مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان
AL BAYAN

السنة الخامسة والعشرون . العدد ٢٧٤ . جمادى الآخرة ١٤٣١ هـ . مايو/يونيو ٢٠١٠ م

ويبقى الداء.. ما بقي (الوهن) !

آفات النفوس والأحداث

المستشرقون الجدد

مسألة بيع الأراضي الفلسطينية: حقيقة أم باطل؟

التدين الفردي والتدين الجماعي

رفض التدخل الأجنبي

وتأكيد سيادة الدول وخصوصياتها

سعر العدد:السعودية ١٠ ريالات . الكويت ٨٠٠ فلس . مصر ٥ جنيهات . المغرب ١٢ درهماً . قطر ١٠ ريالات . اليمن ١٥٠ ريالاً . السودان ٣٠٠ دينار . سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة . الأردن ٧٥ فلسً . الإمارات العربية ١٠ دراهم . البحرين دينار واحد . فلسطين نصف دولار أمريكي

مستشفى أبها الخاص
ABHA PRIVATE HOSPITAL

توفير عناء السفر إلى الخارج

وحدات متخصصة في خدمتكم

- وحدة طب وجراحة المخ والأعصاب
- وحدة جراحة العظام والعمود الفقري
- وحدة جراحة التجميل وشفط الدهون
- وحدة جراحة الكلى والمسالك البولية
- وحدة الجراحة العامة والمناظير
- وحدة الأنف والأذن والحنجرة
- وحدة الأمراض الباطنية والمناظير
- وحدة طب وجراحة العيون
- وحدة النساء والولادة
- وحدة الأطفال وحديثي الولادة
- وحدة جراحة الأطفال
- وحدة الجلدية والتناسلية
- وحدة الأمراض الصدرية
- وحدة العلاج الطبيعي والتأهيل
- وحدة أمراض الكلى
- وحدة السمنة والسكري
- وحدة الطب النفسي
- وحدة أمراض القلب والشرايين
- وحدة علاج الروماتيزم والمفاصل
- وحدة طب وجراحة الأسنان
- وحدة العناية المركزة
- وحدة أمراض الشرج والمستقيم

جهاز الليزر الأخضر KTP
لإستئصال تضخم البروستاتا

جهاز ديناميكية التبول

جهاز الموجات الصوتية
رباعي الأبعاد

جهاز ديكسا DEXA لقياس هشاشة العظام

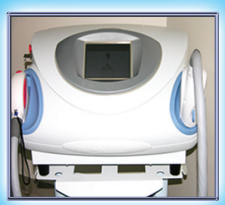
أحدث أجهزة الأمراض الجلدية

جهاز قياس جهد القلب

جهاز الأشعه تحت الحمراء لعلاج البواسير

وحدة الطوارئ واستقبال الحوادث والأشعة التشخيصية والمختبرات الطبية

على مدار ٢٤ ساعة

www.aph.med.sa

أبها – شمال الخطوط السعودية هاتف : ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ ص ب : ١٧٩٤

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

الافتتاحية

٤ **السودان... أمران أحلاهما مُرٌّ!** التحرير

العقيدة والشريعة

٦ **آفات النفوس والأحداث**
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

١٠ **الممثل الأعلى**
عماد الصامت

الغرب: قراءة عقدية

١٦ **البهائية: ماذا تريد؟**
فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

٢٠ **حتمية النصر**
د. محمد أحمد عبد الله الزهيري

٢٦ **العلاقة بين مهمَّة الداعية وصفاته**
نور الدين سكحال

قضايا تربوية

٢٨ **محاسبة النفس بعرضها على كتاب الله (عز وجل)**
د. توفيق علي زبادي

٣٠ **شبابنا والثقافة**
عبد الخالق حسن الشريف

نص شعري

٣٤ **طفليَ الجميلُ** د. حبيب بن معلا المطيري

الإسلام لعصرنا

٣٦ **التدين الفردي والتدين الجماعي**
أ. د. جعفر شيخ إدريس

معركة النَّص

٣٨ **ويبقى الداء... ما بقي (الوهن)!**
فهد بن صالح العجلان

مؤتمرات

٤٠ **رفض التدخل الأجنبي والتأكيد على سيادة الدول وخصوصياتها** المنامة - عمرو توفيق

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
خالد حسن عمارة

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

المسلمون والعالم

٤٦ العرب في مهب التحولات الإستراتيجية
محمد سليمان الزواوي

٥٠ بيع الأراضي الفلسطينية: حقيقة أم باطل؟
أنور محمود زناتي

٥٦ إيران وأمريكا... لماذا تحتاجان إلى القاعدة؟
أحمد فهمي

٥٨ لبنان الكبير — د. يوسف بن صالح الصغير

٦٠ مسلمو كولومبيا... مواجهة خطر الذوبان!
أحمد الطنيخي

٦٢ مرصد الأحداث — جلال الشايب

قصة قصيرة

٦٦ كان يلعب الورق..! — منى محمد العمد

عين على العدو

٦٨ الفساد في الكيان الصهيوني بعد ٦٢ عاماً... سمة متأصلة — د. عدنان أبو عامر

تاريخية

٧٠ ملامح من منهج الإصلاح عند عبد الحميد بن باديس
د. حمودة سعيدي

في دائرة الضوء

٧٦ الحداثة بين الاستيعاب والاستلاب
مولاي المصطفى البرجاوي

متابعات

٨٤ حرية اللباس أم حرية منع اللباس؟
إبراهيم بن عبد الله الأزرق

بأقلامهن

٨٦ ما بين رمضان الماضي ورمضان القادم!!
سارة بنت محمد حسن

الباب المفتوح

٨٨ سَدُّ الذرائع في الشريعة الإسلامية
د. عبد الحكيم درقاوي

٩٢ منتدى القرّاء — عدَّة كتَّاب

الورقة الأخيرة

٩٤ الممستشرقون الجدد
أحمد بن عبد الرحمن الصويان

[كلمة صغيرة]

الغلوّ بين طرفين

تحوَّل الغلو في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية من كونه انحرافاً فردياً محدوداً، إلى تشكُّله على هيئة ظاهرةٍ فكريةٍ تحصد عدداً من الجهلة والسذَّج وأهل الأهواء.

والغلو خَلَلٌ في التفكير والمنهج، وهو علامة من علامات الاضطراب والقلق وعدم الاستقرار، ويدفع المرءَ إلى أحد طرفي الانحراف: الإفراط أوالتفريط.

إننا إزاء ظاهرتين جديرتين بالدراسة والاهتمام:

الظاهرة الأولى: الغلوُّ الذي يدفع المجتمع إلى الاحتراب الداخلي، ويفسد أَمْنَه وطمأنينته، ويغرقه في العنف، ويستهين بأمر الدماء، ويستسهل لغة التكفير، دون رادعٍ من دينٍ أو عقلٍ أو علم.

لقد أصبح هذا النوع من الغلو مطيَّة لإشعال الفتن؛ فأضاع أصحابُه اتجاه البوصلة وسقطوا في دوَّامة مُفْرَغة تهدم ولا تبني، وتُفْسِد ولا تُصلِح.

الظاهرة الثانية: غلوُّ أهل الأهواء الذين يتطاولون على نصوص الشريعة، ويقدحون في ثوابت الأمة، وفي رموزها العلمية ومؤسساتها الشرعية.

لقد ولغ هؤلاء في مستنقع التبعية، وراحوا يروِّجون لفكر الغرب وثقافته باسم التحضر والتسامح والانفتاح.

إنَّ كلا الظاهرتين تدفع باتجاه الأخرى... والحل الذي يقي المجتمع من جميع ألوان الغلو والبعد عن جادة الصراط المستقيم: هو إبراز المنهج الوسطي المعتدل؛ فهو العاصم بإذن الله – تعالى – من طرفي الانحراف والضلال.

ومعيار الوسطية: الالتزام بهدايات القرآن والسُّنة، والاهتداء بهدي سلف الأمة من الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين، وتابعيهم بإحسان من الأئمة والعلماء.

وتربية الشباب والفتيات على الوسطية، وتحصينهم من تيارات الغلو، من الأولويات التي ينبغي أن تأتلف عليها جميع الجهود؛ فسلامة المجتمع ونهضته، من استقامة الفكر وسلامة المنهج. قال الله – تعالى –: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

السودان... أمران أحلاهما مُرٌّ!

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وبعد:

فقد أُعلِنَت نتائج انتخابات السودان التي ستشكِّل هياكل السلطة لمدة محدودة حسب نتائج استفتاءٍ على وضع الجنوب سيجري بعد بضعة أشهر من الآن، ومن ثَمَّ يمكن النظر إلى هذه الانتخابات على أنها مجرد معبَر للمرحلة المقبلة؛ وهذه إشكالية سياسية وإدارية لبلد جرى تقسيمة على أرض الواقع بين شمالٍ وجنوبٍ لكلٍّ منهما رئيسه وجيشه؛ وما الخلافات الحدودية المسلحة في أبيي ودارفور إلا إشارة إلى طبيعة العلاقات المستقبلية بين كيانين يُرَاد لهما الانفصال والتباعد.

ومن المشكلات التي نرى أنها ستواجه السودان مستقبلاً، هي: هل سينفصل الجنوب أم سيبقى - بصورة أو بأخرى - ضمن سودان جديد غير واضح المعالم؟ لكن المشكلة الأخطر من ذلك أن المستهدَف الأساسي هو هوية السودان المسلم؛ حيث أصبح السودان الحالي مكوَّناً من حكومة مركزية شكلية وحكومة معلَنَة للجنوب تهيمن عليها بصورة مُطْلَقة الجبهة الشعبية لتحرير السودان، ولا تسمح بأي نشاط مؤثِّر للأحزاب الأخرى في الولايات الجنوبية؛ حيث منعت نشاط حزب (المؤتمر الوطني) بالقوة عن طريق حَرْق مراكزه هناك، بل بقتل بعض ناشطيه أثناء الانتخابات!

ويبدو أن المؤتمر قد تخلَّى من جهته عن منافسة الجبهة الشعبية في الجنوب لحسابات خارجية أهمها: أنَّ سكوت محكمة الجزاء الدولية حالياً، واعتراف الاتحاد الأوروبي وأمريكا بنتائج الانتخابات، ومن ثَمَّ التسليم بزعامة الرئيس البشير، كل ذلك ثمنُه تَرْك الجنوب حِكراً على الجبهة الشعبية التي قدَّمت زعيمها لرئاسة وزراء جنوب السودان ولم ينافسه أحد من الأحزاب الشمالية، وكانت نتيجة انتخابات الجنوب فوزَ زعيم الحركة الشعبية ورئيس حكومة الجنوب سلفاكير ميارديت بمنصب رئاسة الجنوب بحصوله على ما نسبته ٩٢,٩٩ ٪ من أصوات الناخبين في الجنوب، ولم يحصل منافسه لام أكول أجاوين زعيم الحركة الشعبية التغيير الديمقراطي إلا على نسبة ٧ ٪ من هذه الأصوات؛ ومع ذلك لم يتكلم أحد عن مصداقية انتخابات الجنوب؛ فالمقصود هو الوصول إلى مرحلة الاستفتاء؛ ذلك أن وَضْعَ الحكومة الجنوبية يسمح بأن تقرر الجبهة الشعبية (ومن يرعاها) الأنسبَ من بقاء الجنوب ضمن كيان السودان أو انفصاله. أما في الشمال فالوضع مختلف؛ حيث إن الحكومة المركزية هي في حقيقتها حكومة للشمال فقط؛ وما نسمعه من تعددية حزبية وزعامات متنافسة فهو وضع محصور في الشمال فقط. ونتيجة انتخابات الرئاسة تعطي مؤشراً لمقدار التشرذم الحاصل على الساحة السودانية؛ فقد كانت النتائج المعلَنَة كالآتي:

١ - عمر حسن البشير (حزب المؤتمر الوطني) ٦٨,٢٤ ٪.

٢ - ياسر سعيد عرمان (شمالي) يمثل الحركة الشعبية لتحرير السودان ٢١,٦٩ ٪.

٣ - عبد الله دينق نيال (جنوبي) يمثل حزب الترابي (المؤتمر الشعبي) ٢,٩٢ ٪.

٤ - حاتم السر علي سيكنجو (الاتحاد الديمقراطي) ١,٩٢ ٪.

٥ - الصادق المهدي (حزب الأمة) ٠,٩٦ ٪.

وحصل على أقل من ذلك كلٌّ من مرشح حزب الأمة (الإصلاح والتجديد)، والزعيم التاريخي للحزب الشيوعي السوداني محمد إبراهيم نقد، وفاطمة أحمد عبد المحمود مرشحة الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي. وهؤلاء خليط من العسكريين، والقادة الطرقيين، وبقايا اليساريين والشيوعيين...

إنها حقاً فوضى عارمة؛ فالحركة الشعبية التي تُعِدُّ العدة للانفصال تدفع بياسر عرمان الشمالي للتنافس على الرئاسة ومن ثَمَّ ينسحب؛ ولكن المهم أن الجبهة الشعبية لها رجالها في الشمال حتى في حال الانفصال. أما المؤتمر الشعبي (أو الترابي) فهمُّه إبعاد البشير؛ فهو لا يعترف بنتائج الانتخابات (المزوَّرة) ويبقى مع ذلك في السباق الانتخابي ويقدِّم مرشحه الجنوبي المسلم الذي كان وزيراً في حكومة الإنقاذ، ويبرر هذا الاختيار بأنه يتبنَّى سودان المساواة، ولكن ثمة تساؤل مهم: لماذا لم يقدِّم هذا المرشح في الجنوب؟ ولماذا لم يقدم (الترابي) أحدَ قيادات المؤتمر في دارفور؟

إنهـا مجـرد تسـاؤلات تثيرهـا تصريحاتـه ومقابلاته التي يعترف فيها بدعم المعارضة المسلحة في درافور، وأنه يؤيد قضيتهم؛ ففي تصريح له في مقابلة مع موقع الجزيرة نـت يلخِّص علاقته بأحـداث دارفور وأسـبابها الحقيقية؛ حيث قـال: «هم (أي: قـادة المعارضة بدارفور) خريجو جامعات، وأغلبهم أبناء الحركة الإسـلامية؛ وكانوا وزراء معهم في الحركة نفسها، وهو (أي: البشـير) انحرف، ونحن اعتزلناه وظللنا نصارعه سياسياً ويسـجننا حيناً بعد حين». إن الترابي بهذه النفسية يمثل الحلقة الأضعف في الزعامات الشمالية.

السودان إلى أين؟

إن الذين طبَّلوا لاتهامـات المحكمة الجنائية الدولية وتبنوا تطبيـق قراراتها والتهديـد باعتراض طائرة الرئيس البشـير يرسـلون اليوم مبعوثاً خاصاً للسودان اسـمه: سكوت غريشن يصـول ويجول في السـودان ويقابل - بكل حريـة - الزعماء الحاكمـين والمعارضين على حدٍّ سـواء، بل يعقد الصداقات مع بعضهم ويُعرِب عن ثقته بأن الانتخابات ستكون حرة، نزيهة قَدْر الإمكان، وأن الإدارة ستتعامل مع الفائز أياً كان.

أما عرَّاب كامب ديفد فهـو راعي تمرُّد الجنوب، وكان له دور كبير في إيقاف تقدُّم الحكومـة عندما حُصِر التمرد على الحدود الأوغندية واستمر في رعاية ما يسمى بالسلام؛ فقد أتى مع جماعته التبشيرية التي تتستر خلف ما يسمى بمؤسسة كارتر للإشراف على نزاهة الانتخابات، أو بعبارة أصح: للإشراف على استكمال تطبيق اتفاقية نيفاشا؛ ذلك أن هذه الانتخابات يجب أن تسبق الاستفتاء؛ ولذا فإنها شرعية وإن لم ترقَ إلى المعايير الدولية... هذا هو مؤدَّى كلام الرئيس الأمريكي السابق كارتر الذي صرَّح في مؤتمرٍ صحفيٍّ في الخرطوم بأن: («القسـم الأكبر» من المجتمع الدولي سيعترف بنتائج الانتخابات السـودانية التعددية الأولى منذ ربع قرن؛ حتى وإن كانت غير متماشـية مع المعاييـر الدولية). ويلاحَظ في كلمته هذه أنه يتكلم باسم المجتمع الدولي؛ ولذا فلا غرابة أن تُكرِّر كلامَه رئيسةُ المراقبين الأوروبيين، وأن الرئيس الذي كان مطلوباً بالأمس أصبح اليوم رئيساً شرعياً؛ ولكن إلى متى؟

إلى أن يجري الاستفتاء الذي سينتج عنه أحد أمرين:

الأول: أن يبقى السـودان موحـداً بهوية جديدة، ويبقى التصنيف الأمريكي وسـيف المحكمة الدولية مسـلطاً فوق الرئيـس يحدُّ من حركتـه ويُضعِـف أداءه؛ وإذا كان نائب الرئيس جنوبياً فالمثال النيجيري ليس ببعيد.

الثاني: أن ينفصل الجنوب، ويدخل ما بقي من السـودان تحت تأثير مشاريع انفصال جديدة في دارفور والشرق، وتعود نغمة حصار السودان، مع صراع حدودي مسلَّح مع دولة الجنوب الوليدة.

إنهمـا أمران أحلاهما مُرٌّ، ولا يمكن الخروج منهما بحلولٍ تُفَصَّل في الخارج على أيدي الأعداء؛ فالأمر أخطر من أن نقف عند تجاوزاتٍ انتخابية، أو حكومة مختلَطَة تشـلُّها الخلافات والمناكفات الحزبية، وأخطر من أن يُحَل بتسويات مؤقَّته؛ فمن سيسلِّم الجنوب للجبهة الشـعبية لن يهنأ بحكم الشمال، ومن أشعل دارفور لن يجد سـوداناً يحكمه. وإذا كنا نحزن للغياب غير المبرر للعرب والمسـلمين فإن الأمل معقود على الله أولاً ثم على المخلصين من أهل السودان الذين يتمسكون بهوية السودان المسلمة؛ إذ السودان بحاجة إلى القوي الأمين.

إن ما جرى من انتخابات وما سـيليها من خطوات ليست مقصـودةً لذاتهـا؛ إذ الهدف هو كيانٌ سـودانيٌّ عديم الهوية يتدخل الغرب في كل كبيرة وصغيرة فيه، أو كيانٌ جنوبي مرتبطٌ بالغرب سـيكون أداة مؤثِّرة؛ لإزعاج شـمال السـودان ومصر بإثارة الصراعات المسلحة، والتوسع بإقامة المشاريع المائية التي ستجعل ما يسمى بحرب المياه حقيقة واقعة.

آفات النفوس والأحداث

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)
www.alabdulltif.net

آفات النفوس ودسائسها لا حصر لها، وما يعتري النفوس البشرية من اعوجاج وتلوُّن واضطراب يتعذر استيعابه، وكما قال أحد الشيوخ لابن القيم: «آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر؛ فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، وَلْتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امضِ على سيرك»(١).

ولزوم السنة اعتقاداً وحالاً يهذِّب النفوس، ويحقق استقرارها، ويستلزم حياة طيبة، ويورث ثباتاً وطمأنينة، فلا ترى في هذه النفوس المطمئنة عِوَجاً، ولا تلحظ تناقضاً أو تحولاً، بل هي في منأى عن الإفراط والتفريط، وعافيةٍ من غوائل التقصير والغلو.

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣١٤.

وسلفنا الصالح لَـمَّا حذروا من الابتداع والإحداث في دين الله - تعالى - فلأجل ما يقتضيه من تشريع دينٍ لم يأذن به الله - تعالى - وما تخلِّفه البدع من اندراس السنن، ووقوع العداوة والبغضاء، وحرمان التوبة، والتعرُّض للعقاب والوعيد.

كما أنهم على دراية بأهواء النفوس، وطبائعها وحظوظها، وما يكتنف هذه النفوسَ من آفات وعلل؛ إذ يكشف الابتداع عن نفوس معتلَّة، تقارف تنصُّلاً عن لزوم الصراط المستقيم، وتعاني اضطراباً وتناقضاً، واندفاعاً جامحاً ونشاطاً محموماً في سبيل الابتداع في الدين، ومضاهاة الشرع المنزَّل، إضافة إلى ما تكابده هذه النفوس من تناقض بين التنظير والتأصيل وبين التطبيق والتنفيذ.

فالتفلت من لزوم الشرع: هو من خبايا النفوس الملتوية وآفاتِ أرباب البدع، ويقترن بهذا الروغان عن السُّنة اجتهادٌ ظاهر، وجَلَدٌ متواصل في التشبث بالبدع وإذكائها.

وهذا ما جاء في الحديث الصحيح بشأن الخوارج: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم...»[1].

وأشار الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - إلى هذا «النشاط البدعي» بقوله: «اقتصاد في سُنة خير من اجتهاد في بدعة»[2].

فنفوس أهل الأهواء يعتريها الكسل والعزوف عن اتباع الشرع، لكنها سرعان ما تنشط وتندفع في مقارفة البدع، بكل شوق واستمتاع!

ولَـمَّا قيل لسفيان بن عيينة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟ فقال: أنسيتَ قوله - تعالى -: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣][3]؟

وكَشَف أبو الوفاء ابن عقيل هذه الدسيسة النفسانية بقوله: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاعٍ وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم كفار عندي بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور...»[4].

وأما الإمام الشاطبي فله معرفة متينة بآفات نفوس المبتدعة وحظوظها، وقد أفصح عن ذلك بتحقيقٍ وتحريرٍ، فكان مما قاله - رحمه الله -: «إن الدخول تحت تكاليف الشريعة صعب على النفس؛ لأنه أمر مخالف للهوى، وصادٌّ عن سبيل الشهوات؛ لأن الحق ثقيل، والنفس إنما تنشط بما يوافق هواها لا بما يخالفه، وكل بدعة فللهوى فيها مدخل؛ لأنها راجعة إلى نظر مخترعها لا إلى نظر الشارع. ومن الدليل على ذلك ما قاله الأوزاعي: «بلغني أن من ابتدع بدعةً خلاَّه الشيطان والعبادة، وألقى عليه الخشوع والبكاء، لكي يصطاد به»، وقال بعض الصحابة: «أشد الناس عبادةً مفتونٌ» ويحقق ما قاله الواقع، كما نُقل عن الخوارج وغيرهم؛ فالمبتدع يزيد في الاجتهاد لينال في الدنيا التعظيمَ والجاهَ والمالَ؛ وما ذاك إلا لخفَّةٍ يجدونها في ذلك الالتزام، ونشاطٍ يُداخلهم، يستسهلون به الصعب بسبب ما داخل النفس من الهوى»[5].

ومن آفات النفوس التي تصاحب الابتداع في دين الله - تعالى -: داء الكِبْر وحبُّ الظهور وازدراء الآخرين، وهذا ما قرره ابن تيمية لَـمَّا أورد مفاسد البدعة، فقال: «مسارقة الطبع إلى الانحلال من رِبقة الاتباع، وفوات سلوك الصراط المستقيم؛ وذلك أن النفس فيها نوعٌ من الكبر؛ فتحب أن تخرج من العبودية والاتباع حسب الإمكان، كما قال أبو عثمان النيسابوري - رحمه الله -: «ما ترك أحد شيئاً من السُّنة إلا لِكِبْر في نفسه»[6].

وكذا الشاطبي أَلْـمَح إلى هذا الوباء قائلاً: «لم يتبين للمبتدع أنه ما وضعه الشارع فيه من القوانين والحدود كافٍ؛ فرأى من نفسه أنه لا بد لِـمَا أُطلِق الأمر فيه من قوانين منضبطة وأحوال مرتبطة، مع ما يداخل النفوس من حبِّ الظهور والذكر بالمناقب التي ينفرد بها، واستنباط الفوائد التي لا عهد بها؛ إذ الدخول في غُمار الخلق يميت الهوى؛ لعدم الظهور، أو عدم مظنته»[7].

وجزم العلاَّمة ابن الوزير أن داء الكبر والعُجْب لا يفارق عموم المبتدعة، فقال - رحمه الله -: «الغالب على أهل البدع شدة العُجْب بنفوسهم، والاستحسان لبدعتهم، وربما كان أجر ذلك عقوبة على ما اختاروه أول مرة من ذلك، كما حكى الله - تعالى - ذلك في قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]. وهي من عجائب العقوبات الربانية، والمحذرات من المؤاخذات الخفية. وقد كثرت الآثار في أن إعجاب المرء بنفسه من المهلكات، ودليل العقوبة في ذلك أنك ترى أهل

(١) إخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، (١/١٧٣)، ورواه الطبراني في الكبير.
(٣) ينظر: العبودية لابن تيمية، ص ٧٠.
(٤) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص ٤٥٥.
(٥) الاعتصام (تحقيق: مشهور): ١/٢١٥ - ٢١٧= باختصار.
(٦) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/٦١١ - ٦١٢.
(٧) الاعتصام: ١/٤٩ = بتصرف يسير.

الضلال أشد عُجْباً وتيهاً وتهليكاً للناس واستحقاراً لهم. نسأل الله العفو والمعافاة من ذلك كله»[1].

ومهما يكن فإن تلك النفوس المشحونة بالكبر والتعالي، سرعان ما يتقشع ذلك عنها ويعقبه المهانة والصغار؛ إذ يعاقب الله - تعالى - هذا الصنف بنقيض قصدهم، فتتساقط دعواهم العريضة، وينكشف عوارهم وعجزهم، كما حرره ابن تيمية قائلاً: «هكذا شيوخ الدعاوى والشطح يدَّعي أحدهم الإلهية وما هو أعظم من النبوة، ويعزل الربَّ عن ربوبيته، والنبيَّ عن رسالته، ثم آخرتُه شحَّاذ يطلب ما يُقِيتُه، أو خائف يستعين بظالم على دفع مظلمته؛ فيفتقر إلى لقمة، ويخاف من كلمة؛ فأين هذا الفقر والذل من دعوى الربوبية المتضمِّنة للغنى والعز؟»[2].

وأما ما يعلق بنفوس المبتدعة من التناقض والاضطراب فهذا مما يصعب حصره، لا سيما الروافض الإمامية، والذين يتعسر إيراد اضطرابهم وتخبُّطهم... وكما قال عنهم الدهلوي - رحمه الله -: «من استكشف عن عقائدهم الخبيثة، وما انطووا عليه، علم أن ليس لهم في الإسلام نصيب، وتحقق كفرهم لديه، ورأى منهم كلَّ أمر عجيب واطلع على كل أمر غريب، وتيقن أنهم قد أنكروا الحسي، وخالفوا البدهي الأولي، ولا يخطر ببالهم عتاب، ولا يمرُّ على أذهانهم عذاب أو عقاب؛ فإن جاءهم الباطل أحبوه ورضوه، وإذا جاءهم الحق كذبوه وردُّوه»[3]. وسأكتفي بمثالين:

أحدهما: المرجئة: فإن الإرجاء دين الملوك - كما قال النضر بن شميل في حضرة الخليفة المأمون[4] - ويقال: فلان مرجئي يتبع السلطان[5]، ويرون طاعة الأمراء مطلقاً وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة[6]!

ثم هم يتناقضون؛ فالجهم بن صفوان من غلاة المرجئة ولكن خرج على بني أمية، والحارث بن سريج يرى الإرجاء، وقد خرج على نصر بن سيار[7]، وقد وصف الأميرُ عبد الله ابن طاهر (ت ٢٣٠هـ) المرجئة فقال: «لا يرون للسلطان طاعة»[8].

(١) إيثار الحق على الخلق، ص ٤٢٦ = باختصار.
(٢) منهاج السُّنة النبوية وانظر: الرد على الشاذلي في حزبه لابن تيمية (ت: د. سمية حسين)، ص ٥٥ - ٥٦.
(٣) مختصر التحفة الإثنى عشرية، ص ٣٠٠.
(٤) انظر: البداية لابن كثير: ١٠/ ٢٧٦.
(٥) انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر: ١١/ ٤٣٦.
(٦) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح: ١/ ١٧٧، ومجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٦/ ٢٨.
(٧) انظر: المنتظم لابن الجوزي: ٧/ ١٦٩، ٢٥٨.
(٨) أخرجه الصابوني في عقيدة السلف (ت: الجديع)، ص ٢٧٢.

وأما المثال الآخر: فأرباب التعبد المحدث (التصوف): فإنهم يتشدقون بالمثالية الجامحة والرهبانية الحادثة، بينما هم منغمسون في الشهوات والملذات، وسماعٍ ورقصٍ، وصحبة مردان ونسوان... فهذه المثالية المُفْرِطة تخالف الشرع والعقل والفطرة؛ إذ تسعى إلى استئصال نوازع البشر، وقمع الغرائز، واجتثاث الشهوات، فأعقب ذلك إغراقاً في المذات، وانتكاساً في حضيض الشهوات.

وقد أشار ابن الجوزي إلى ذلك بقوله: «إن قوماً منهم وقع لهم أن المراد رياضة النفوس لتخلُص من أكدارها المردية، فلما راضو مدة ورأوا تعذُّر الصفاء قالوا: مالنا نتعب أنفسنا في أمر لا يحصل لبشر، فتركوا العمل»[9].

وأحد أدعياء التصوف المعاصرين قدَّم أمثلة جليَّة على هذا التناقض المكشوف والاضطراب المعهود عنه وعن أسياده.. فبينا هو يلوِّح في الفضائيات متحدثاً عن الذوق الرفيع والتذوق اللطيف؛ إذ يدعو إلى العكوف في المزابل والنفايات طلباً لتهذيب النفوس، وتراه يصنِّف في السلوك، وتزكية النفوس، ورقَّة الشعور، ثم لا يغادر لَمْزَه وبغيَه على السلف الصالح[10].

والمقصود أن البدع لا تنفك عن أهواء النفوس وأدوائها ورعونتها؛ ولذا أطلق أهل السُّنة على المبتدعة «أهل الأهواء». وإذا كانت البدعة قد تفضي إلى الشرك، فإن الهوى قد يكون إلهاً يُعبَد من دون الله. قال الله - عز وجل -: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(٩) تلبيس إبليس، ص ٤١٥.
(١٠) انظر: ما سطره د. خلدون الحسني في كتابه المتين: «إلى أين أيها الحبيب الجفري؟». وكذا كتاب: «النصيحة مناقشة لفكر الحبيب الجفري» لحسن الحسني.

دار طيبة للنشر والتوزيع

المعرض المخفض الثاني عشر

في الفترة من ١٤٣١/٥/٢٠ هـ إلى ١٤٣١/٧/٦هـ

تخفيضاتنا على أكثر من ١٠٠٠ عنوان

- أسعار مميزة
- عناوين جديدة ومتنوعة
- خصومات تصل إلى ٥٠٪ وأكثر
- تخفيضات متميزة في قسم التسجيلات على :

المصاحف المرتلة - الدروس العلمية - أشرطة التوزيع الخيري

أقراص الـ C.D للسيارة والحاسب الآلي

تصريح تخفيضات موسمية رقم ٢٠٠٧٦

عروضنا سارية حتى نهاية المعرض أو نفاد الكمية

الرياض - ش السويدي العام - غرب النفق - هاتف: ٤٢٥٣٧٣٧ (٥ خطوط)
فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧ - ص.ب: ٧٦١٢ الرياض ١١٤٧٢

المثل الأعلى

عـــمـــاد الـــصـــامـــت

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه خلقه، لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه، سبحانه. والصلاة والسلام على أعلم الناس بربه وأخشاهم وأتقاهم له وعلى آله وأصحابه وذريته، وبعد:

قال - تعالى -: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

المثل الأعلى هو: معرفة حقائق أسمائه وصفاته، وأنها لا تشبه صفات المخلوقين. وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية، والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره.

ولما كان - سبحانه - الرب والأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى، وسائر صفاته عليا، كان له المثل الأعلى، وهو أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحدَه؛ فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أي نظير. وهذا برهان قاطع على استحالة التمثيل والتشبيه من إثبات صفات الكمال، فتأمَّله فإنه في غاية الظهور والقوة[1].

فإذا قال المؤمن بالمثل الأعلى: يا الله! قام بقلبه رب قيوم قائم بنفسه، مستوٍ على عرشه يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته ويسمع أصوات خَلْقه ويرى أفعالهم وحركاتهم ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى ويرضى ويغضب ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب عفوه، ويَجبُر كسيرهم، ويغني فقيرهم... مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كلَّ يوم هو في شأن، يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويفك عانياً، وينصر مظلوماً، ويقصم ظالماً، ويرحم مسكيناً، ويغيث ملهوفاً. أكفُّ جميع الخلائق ممتدة إليه بالطلب والسؤال، ويده مبسوطة لهم بالعطاء والنوال. يمينه ملأى لا يغيضها نفقةٌ آناء الليل والنهار، وعطاؤه وخيره مبذول للأبرار والفجار. ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات والأرض مِنْ نورِ

(١) ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلة، ص ١٦٥.

وجـــه، لا ينام ولا ينبغـــي له أن ينام. يرفع إليـــه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور؛ لو كشفه لأحرقت ســـبحات وجهـــه ما انتهى إليه بصره مِنْ خلقه. وســـع كرسيه السموات والأرض؛ فالسموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والعرش لا يَقدِر قَدْره إلا الله، وهو - سبحانه - فوق عرشه يعلم ويرى ما عباده عليه. الأول فليس قبله شـــيء، والآخر فليس بعده شـــيء، والظاهر فليس قبله شيء، والباطن فليس دونه شيء. له الكمـــال كله، وله الحمـــد كله، وله الثناء كلـــه، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله؛ فتبارك اسمه، وتباركت أوصافه، وتباركت أفعاله، وتباركت ذاته.

وقد أشـــكلت على كثير من المفسرين حقيقة المثل الأعلى، واستشـــكلوا أقوال السلف فيها؛ فابن عباس وغيره قالوا: المثل الأعلى: شـــهادة (أن لا اله إلا الله)، وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيـــد، وقال بعضهـــم: المثل الأعلى: الصفـــة العليا. قال الواحدي: (هذا قول صحيح، والمثل كثيراً ما يرد بمعنى الصفة. وقاله جماعة من المتقدمين)، وقال ابن كيســـان: (المثل الأعلى نحو قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]).

وقال ابن جرير الطبري: (هو الأطيب والأفضل والأحســـن والأجمل وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله إلا هو)[١].

وقد جمـــع بين هذه الأقوال، وأزال ما فيها من الإشـــكال راســـخ في علم القرآن، قد طال فيه باعه، ورحُب بنيله ذراعه، وباشـــر قلبه أسرار القـرآن، وحقائقـه، إنه العلاَّمة ابن القيم، قدَّس الله روحه. قال: (المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمـــين بها، ووجودَها العلمي، والخبـــرَ عنها وذِكرَها. وعبادةَ الرب - ســـبحانه - بواســـطة العلم والمعرفـــة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فها هنا أربعة أمور:

الأول: ثبـــوت الصفات العليا لله - ســـبحانه - في الأمر نفسه، علمها العباد أو جهلوها، وهذا قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلـــم والتصور، وهذا معنى قول من قال من الســـلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذِكْره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهو أيضاً معنى قول من قال من المفســـرين: أهل الســـماء يحبونه ويعظمونه، وأهل الأرض يجلُّونه ويعظمونه، وإن أشرك به من أشرك وعصاه من عصـــاه... قال - تعالى -: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّـــمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

الثالـــث: ذكر صفاته والخبر عنهـــا وتنزيهها عن النقائص والعيوب والمثيل.

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيدُه والإخلاصُ له والتوكل عليـــه، وكلمـــا كان الإيمـــان بالصفات أكمـــل كان هذا الحب والإخلاص أقوى؛ فعبارة السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها)[٢].

المثل الأعلى هو: معرفة حقائق أسمائه وصفاته، وأنها لا تشبه صفات المخلوقين، وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية، والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره

الإيمان بالمثل الأعلى يمنع أن يقوم بالقلب تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوقين:

لأنه - كما قلنا - آنفاً يســـتحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، فيســـتحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى نظير أو شـــبيه، وهذا برهان قاطع على ما قلنا.

قـــال العلاَّمة ابـــن القيم - رحمه اللـــه - واصفاً المؤمنين بالمثل الأعلى العارفين بـــه: (فلم يصعب عليهم بعد ذلك معنى اســـتوائه على عرشه، وســـائرَ ما وصف به نفسه من صفات كماله؛ إذ قد أحاط علمهم بأنه لا نظير له ولا مثيل، ولم يخطر بقلوبهم مماثلة شيء من المخلوقين، وقد أعلمهم الله - سبحانه - على لســـان رسوله «أنه يقبض ســـمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن»[٣]، «وأنه يضع السموات على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشـــجر على إصبع، وسائر المخلوقات على إصبع»[٤]؛ فأي يد للخلق وأي إصبع تشـــبه هذه اليد وهذه الإصبع حتى يكون إثباتها تشبيهاً وتمثيلاً؟

فقاتـــل الله أصحاب التحريف والتبديل على ما حرَّموه من الحقائـــق الإيمانية، والمعارف الإلهية، وما تعرضوا به من زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار[٥].

كيـــف يجتمع في القلب معرفة من له الكمال كله، والجمال كله، والعلم كله والقدرة كلها والكبرياء كلها، وتشبيهه بالمخلوقين؟ هذا من أشد المحال.

(فقاتل الله الجهمية والمعطلة... أين التشبيه ها هنا؟ وأين التمثيل؟ لقد اضمحل ها هنا كل موجودٍ سواه، فضلاً عن أن يكون له ما يماثله في ذلك الكمال ويشابهه فيه)[٦].

(١) تفسير ابن جرير الطبري.

(٢) ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلة، ص١٦٦.
(٣) رواه البخاري ومسلم، من حديث ابن عمر.
(٤) رواه البخاري، من حديث ابن عباس.
(٥) مختصر الصواعق المرسلة، ص ٧٧.
(٦) ابن القيم، تهذيب مدارج السالكين.

المعطلة رمتنا بدائها وانسلّت:

المؤمن بالمثل الأعلى، يستحيل أن يقوم بقلبه تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوقين، وإنما يقوم هذا التشبيه بقلب حُجِب عن المثل الأعلى، ولم يعرف حقائق الأسماء والصفات؛ ففهم من هذه الصفات الإلهية ما فهم من صفات المخلوقين، ثم فر إلى إنكار حقائقها وابتغاء تحريفها، وسمَّاه تأويلاً؛ فشبه أولاً، وعطل ثانياً، وأساء الظن بربه وبكتابه وبنبيِّه وبأتباعه.

فالمعطلة النفاة رموا أهل السنة بدائهم وانسلوا منه لِواذاً، وقذفوهم بمصابهم وجعلوه ملاذاً لهم ومعاذاً، يرمون أهل السنة بألقاب السوء: مشبهة، مجسمة، ممثلة، حشوية... وهم أحق بها وأهلُها.

ومما ينبغي أن يُعرَف أن التشبيه نوعان: تشبيه المخلوق بالخالق، وتشبيه الخالق بالمخلوق.

- فتشبيه المخلوق بالخالق في العبادة والخضوع والتعظيم، هو الواقع في الأمم. والقرآن مليء بالرد على من شبَّه المخلوق بالخالق في صفات الإلهية حتى عبده من دونه، وسيأتي بيانه لاحقاً، إن شاء الله.

- أما تشبيه الخالق بالمخلوق فلم يأتِ إنكاره في القرآن (وإن كان باطلاً)، وإنما المتكلمون يذكرونه في كتبهم ويجعلونه مذهباً لبعض الناس، ومقالةً لطائفة المشبهة، وهي فرقة مقدرة في الأذهان لا وجود لها في الأعيان. وقد حقق ذلك العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كتابيه: الصواعق وإغاثة اللهفان.

قال - رحمه الله تعالى - في تشبيه الخالق بالمخلوق: (هذا يذكره المتكلمون في كتبهم ويجعلونها مقالة لبعض الناس، وهذه كتب المقالات بين أظهرنا، لا نعلم ذلك مقالة لطائفة من الطوائف البتة، وإنما المعطلة يسمون كل من أثبت صفات الكمال لله - تعالى - مشبهاً وممثلاً)[1].

وقال: (المقصود أن هؤلاء المعطلة الملحدين في أسماء الرب - تعالى - هم المشبهون في الحقيقة لا من أثبت حقائقها من غير تمثيل ولا تشبيه؛ ولهذا لا يأتي الرد في القرآن على هذه الفرقة التي انتصب لها هؤلاء؛ فإنها فرقة مقدرة في الأذهان لا وجود لها في الأعيان)، وقال: (لا نعلم فرقة من فرق بني آدم استقلت بهذه النحلة وجعلتها مذهباً تذهب إليه، حتى ولا المجسمة المحضة الذين حكى أرباب المقالات مذاهبهم، كالهشامية والسالمية وغيرهم ممن قال: إن الله جسم، لم يقولوا: إنه مماثل للأجسام)[2].

قلت: كتب المقالات تذكر المشبهة، وهي تعني بها المجسمة: كالكرامية والهشامية والسالمية وغيرهم ممن قال: إن الله جسم لا كالأجسام، فهم مجسمة وليسوا مشبهة، لكن أرباب المقالات يجعلون التشبيه لازمَ قولهم.

أما المتكلمون فهم - غالباً - لا يقصدون بالمشبهة والمجسمة إلا أهل السنة الذين يثبتون لله - سبحانه - ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تشبيه ولا تمثيل.

وهذا التحقيق والتدقيق لم أجده عند غير العلاَّمة ابن القيم، رحمه الله تعالى.

المعطلة هم المشَبهة حقاً وصدقاً:

والمعطلة نفاة الصفات هم المشبهة حقاً وصدقاً وذلك من أربعة أوجه:

أولاً: زعمهم أن آيات وأحاديث الصفات ظاهرها يوهم التشبيه: لذلك يجب أن تؤول وتُصرَف عن ظاهرها؛ لئلا يقع التشبيه، وهذا قول المعطلة جميعاً: جهمية ومعتزلةً وأشعرية وما تريدية... وغيرهم.

فأنت ترى القوم يزعمون ويقررون أنه يلزم من إثبات الصفات لرب الأرض والسموات تشبيهُه بالمخلوقات...! أليسوا هم المشبهة حقاً والحشوية صدقاً؟

أم المشبهة هم أهل الإثبات الذين نطقوا بما نطق به القرآن، وقرروا ما قررته السُّنة؟ لو كان إثبات الصفات لرب الأرض والسموات، كما جاءت في الأحاديث والآيات تشبيهاً وتمثيلاً لَمَا كان على أهل الإثبات لوم ولا عتاب؛ لأنهم متمسكون بالسُّنة والكتاب. قال - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

فالذي يثبت لربه - سبحانه - ما أثبته لنفسه في كتابه وفي سُنة نبيه ﷺ وينفي عنه ما نفاه عن نفسه هو المتمسك بالكتاب والمتبع للوحي وهو على صراط مستقيم.

فأهل الإثبات لم يقم في قلوبهم قط هذا التشبيه، ولم يقع في عقولهم - قطعاً - هذا التمثيل؛ فكيف ترمونهم بالتشبيه والتمثيل والتجسيم وهم برآء منكم، ومن زعمكم ومن ظنكم بربكم؟

وأي ظنٍ أسوأ من ظنكم بربكم أنه وصف نفسه في كتابه بصفات تشبه صفات المخلوقين؟

وأي ظنٍ أقبح من ظنكم برسوله ﷺ أنه لم يبيِّن صفات رب العالمين؟

فذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الضالين والمتحيرين والمتهوِّكين.

(١) ابن القيم مختصر الصواعق المرسلة، ص٣٦١.
(٢) المصدر السابق، ص٣٦١.

وهذا الوهم منهم نشأ من زعمهم أن الصفات لا تقوم إلا بالأجسام؛ والأجسام حادثة. قالوا: والذي دلنا على حدوث الأجسام أنها لا تخلو من الحوادث ولم تسبقها، وما لا يخلو من الحودث ولم يسبقها فهو حادث؛ واستدلوا على عدم خلوها من الحوادث بطرق:

- منهم من قال: لا تخلو من الحوادث الأربعة، وهي: الاجتماع والافتراق والحركة والسكون.

- ومنهم من قال: لا تخلو من الحركة والسكون فقط وهي طريقة الرازي.

- ومنهم من قال: لا تخلو من الأعراض؛ والأعراض حادثة وهي لا تبقى زمانين، وهي طريقة الآمدي وزعم أن أكثر الأشعرية على هذه الطريقة.

قالوا: وبهذا الأصل أثبتنا حدوث العالم ونفيَ كون الصانع جسماً وإمكان المعاد؛ فلو بطل الدليل الدال على حدوث الجسم؛ لبطل الدليل الدال على ثبوت الصانع وصِدْق الرسول، فصار العلم بثبوت الصانع وصِدْق الرسول، وحدوث العالم وإمكان المعاد موقوفاً على نفي الصفات؛ لأن الصفات دليل الأجسام؛ فهذا أصل ما بنى عليه القوم دينهم وإيمانهم[1].

ومن الناس من يظن هذا الأصل من لوازم الإيمان وأن الإيمان لا يتم إلا به ومن لم يعرف ربه بهذا الطريق لم يكن مؤمناً به ولا بما جاء به رسوله، وهذا مذهب الجهمية والمعتزلة وأكثر الأشعرية وكثير من المنتسبين إلى الأئمة الأربعة وكثير من أهل الحديث والصوفية.

وقد صرح الإمام أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر بأن: الإيمان ليس موقوفاً على هذه الطريق ولا هي من لوازمه، وليست طريقَ الرسل ويحرُم سلوكها لما فيها من الخطر والتطويل[2].

وقال أهل الكتاب والسُّنة: بل هي طريق في نفسها باطلة ومتناقضة أعظم تناقض، وتُعارِض الكتاب العزيز أتم معارضة، ومستلزمة لنفي الصانع وصفاته وأفعاله ومستلزمة لنفي المبدأ والمعاد؛ فأول لوازم هذه الطريقة نفي الصفات والأفعال، وأنه لا يفعل شيئاً البتة، ونفي العلو والكلام، ونفي الرؤية، ومن لوازمها أيضاً القول بخلق القرآن، وقد ألزمهم ابن سينا بهذه الطريق (القول بنفي المعاد) إلزاماً لا محيص لهم عنه؛ فقال: (إذا كانت نصوص الصفات استعارات ومجازات، فالأَوْلى أن تكون نصوص المعاد كذلك)[3] وهذا حق؛ فلا جرم أن نصوص الصفات أبين

(١) المصدر السابق، ص ١٩٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٩٣ .
(٣) المصدر السابق، ص١٨٢.

تشبيه المخلوق بالخالق في العبادة والخضوع والتعظيم، هو الواقع في الأمم. والقرآن مليء بالرد على من شبَّه المخلوق بالخالق في صفات الإلهية حتى عبده من دونه.

وأظهر دلالة من نصوص المعاد، فإذا كانت آيات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه وتكلُّمه وتكليمه على سبيل الاستعارة والمجاز، فما الذي يمنع من أن تكون آيات المعاد كذلك؟

فبهذا الأصل سلَّط الله على المعطلة أعداءهم، واستطالت عليهم الفلاسفة والدهرية؛ فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا. والله الموعد: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ثانياً: اعتقادهم أن الأجسام متماثلة ومتشابهة: فهم لا ينفون أي صفة عن الخالق - سبحانه - إلا لظنهم أنها تستلزم تشبيهه بالمخلوق؛ لأن المخلوق متصف بها في زعمهم؛ فهي من صفات المخلوقين فمتى وصفنا الخالق بهذه الصفات لزم تشبيهه بالمخلوقين؛ لأن الأجسام متماثلة في نظرهم؛ لذلك فهم لا ينفون عن الخالق صفاته إلا بعد اعتقادهم هذا التشبيه والتمثيل؛ فيلزمهم أن الله - سبحانه - قد شبَّه نفسه بالمخلوقين عندما أطلق على نفسه هذه الصفات، ونبيُّه ﷺ كذلك قد شبهه بالمخلوقين، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

فانظر إلى ضلالهم، وسوء فهمهم؛ كيف قادهم إلى أن يفتروا على الله كذباً، ويحرفوا الكلم عن مواضعه. ألا يعلم أولئك أن ذاته - سبحانه - لا تشبه الذوات؟

فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فصفاته لا تشبه الصفات، هذا هو المعقول عند أصحاب العقول أما اعتقاد أن الأجسام متماثلة فهو أصل باطل عند جميع العقلاء قديماً وحديثاً، لكن هؤلاء لما عارضوا الوحي بعقولهم، أفسد الله عليهم عقولهم فجعلهم يقولون ما يُضحِك العقلاء.

والأدلة العقلية والسمعية الدالة على بطلان هذه النظرية كثيرة جداً أكثر من أن تحصى فأيُّ نسبةٍ ليد المخلوق الضعيف العاجز إلى يدٍ تطوي السموات السبع ويدٍ تقبض الأرض؟

وأيُّ نسبةٍ لإصبع المخلوق إلى إصبع توضع عليها الجبال كلها وإصبع توضع عليها الشجر جميعاً؟

بل أي نسبةٍ لرِجْل البعوضة إلى رِجْل الفيل؟ فهل يصح في العقول أن يقال: إن البعوضة تشبه الفيل؟

وأي نسبة لجناح العصفور إلى جناح جبريل؟ فهل يقال: إن العصفور يشبه جبريل؟ ثم من قال لك: إن الجناح لا بد أن يكون

من ريش؟

وهل سَـمْع الجني مثل سمعك وبصره مثل بصرك وإرادته مثل إرادتك؟

وهل قـول النملة مثل قولك وإرادتها مثـل إرادتك وكلام الهدهد مثل كلامك؟

وهل سـجود الشـمس والقمـر والجبال والشـجر مثل سجودك؟

المقصود أنهم لَـمَّا ظنوا تماثل الأجسام وقام هذا التشبيه الذهني في عقولهم السـخيفة ظنوا أنـه لا تقوم به الصفات والأفعال، فنفوا عنه صفاته العليا؛ لئلا تستلزم التشبيه؛ ففروا من هذا التشـبيه المزعوم ووقعوا في لوازم قبيحة شنيعة تليق بهم لا محيص لهـم عنها؛ علماً أن هـذه الألفاظ لا يجوز إطلاقهـا على الرب – سـبحانه – نفياً ولا إثباتاً، مثل لفظ الجسـم والمركب وغيرها؛ لعدم ورودها فـي الكتاب ولا في السُّنة؛ فلا نَصِفه – سبحانه – إلا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

ثالثاً: تشبيههم الباري- جل وعلا - بالناقصين: بتعطيله عن صفات الكمال ونعوت الجـلال؛ ومن لم يكن من الكاملين كان من الناقصـين، ومن لم يكن له المثـل الأعلى كان له مثل السـوء، وهذا ليس إلزاماً لهم بتعطيلهم فحسب؛ بل قد صرح بـه أكابرهم. قال فخر دينهم: (لم يقـم دليل عقلي على تنزيه الـرب عن النقائص والعيوب، وإنما علمنـا ذلك بالإجماع)[1]. وهو فـي كتبه يقدح في دلالـة الإجمـاع ويبيِّن أنها ظنية لا قطعية؛ فالقوم ليسـوا قاطعين بتنزيـه الرب من النقائص والعيـوب، بل غاية ما عندهم في ذلك الظن، وفخر دينهم هذا يوافق الفلاسـفة في مسألة الإرادة ويرجِّح أن الرب – سبحانه – فاعل بالذات، ليس فاعلاً بمشيئته واختياره[2]. فالحق أنه ما افتخر بالدين ولا افتخر به الدين.

ومما يدل على أن المعطلة قد شبهوه بالناقصين: أنهم سموه ماكراً وخادعاً وكائداً وجوزوا إطلاق هذه الأسـماء عليه. قال البقوري مسـتدركاً على شـيخه القرافي في الفروق لَـمَّا ذكر أنه يُقتصَر بهذه الأسماء على محلها للمقابلة: (ورأيت صاحب الشعب الشيخ أبا محمد عبد الجليل القصري الأوسي – رحمه الله – ذكر في الأسماء ماكراً وخادعاً. وظاهر كلامه أنها تطلق لا ما قاله شـهاب الدين (أي: القرافي)، ثم ينقل البقوري عن الرازي في تفسيره ما يدل على جواز إطلاقها[3].

(١) المصدر السابق، ص٢٠٢.
(٢) ابن تيمية، التفسير الكبير، الجزء الأول، ص١٦٧.
(٣) البقوري، ترتيب فروق القرافي، ص٢٩١.

وإن تعجـب فعجـبٌ حال هؤلاء المعطلة أتـوا إلى صفات الكمـال ونعوت الجـلال فنفوها عنه – سـبحانه – وأتوا إلى النقائص والعيوب، فأطلقوها عليه.

والعجيب جداً أن القرافي قبل المسألة السابقة بقليل يقرِّر في فروقه أن القرآن العظيـم لا يجوز الحلف به؛ لأنه مخلوق وإنما يجوز الحلف بالكلام النفسـاني القديم الذي لم يسمعه جبريل ولا موسـى – عليهما السـلام – ولم يرد عليه البقوري ولم يسـتدرك على عادته: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

رابعاً: تشبيههم المخلوق بالخالق وإعطاؤه من حقوق الألوهية وخصائـص الربوبية، ويصرفون له أنواعاً من القربات والنذور والدعوات، ويطلبون منه قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وهذا هو التشـبيه الذي نهاهم عنه رب الأرض والسموات، وحذرهم منـه. والقرآن مليء بالتحذير من الغلو في المخلوق، وتشـبيهه بالخالق في العبادة والخضوع والتعظيم.

وربما يقول بعضهم: أين العدل والإنصاف؟ كيف تنسـب إلينا ما لم نفعله وما لم نعتقده؟

أقول: بلـى وربي إنه لحق، وليس هذا بكـذب ولا بهتان؛ فكثير من المعطلة هم أكثر الناس نقضاً لتوحيد العبادة وتوحيد الإلهية، وهم أشـد الناس تعلُّقاً بأصحـاب القبور، وهم الذين اختلقوا الحديث المشـهور: «إذا ضاقت عليكم الأمور، فعليكم بأصحاب القبـور»[4]. قال العلاَّمة ابن القيـم – رحمه الله – : (تبين أن المشـبِّهة هم الذين يشـبهون المخلوق بالخالق، في العبادة والتعظيم والخضوع والحلف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند قبره، وحلق الرأس له، والاستغاثة به، والتشريك بينه وبين الله بقولهم: ليس لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، وما شـاء الله وشئت، وأمثال ذلك؛ فهؤلاء هم المشبهة حقاً لا أهل التوحيد المثبتون لله ما أثبت لنفسـه، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه... الذين لا يجعلون له نداً من خلقه ولا عدلاً ولا كفؤاً ولا سميّاً، وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع)[5].

(٤) العجلوني، كشف الخفا ومزيل الإلباس، ص ١١٧.
(٥) إغاثة اللهفان، ص ٥٧٧.

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

المركز الخيري لتعليم القرآن الكريم وعلومه

معاهد البيان لإعداد معلمات القرآن
AL-Bayan Institute For Concoction Female Teachers

رؤيتنا

رؤيتنا

رؤيتنا

صياغة معلمات قرآن قدوات ماهرات ومؤثرات

معاهد البيان لإعداد معلمات القرآن

تعلن عن بدء التسجيل في دبلوم معلمة القرآن

الشروط

- أولوية القبول للسعوديات.
- نقبل خريجات الثانوية والأولوية للجامعيات.
- أن يكون عمر المتقدمة بين ١٨ - ٤٢ سنة.
- حفظ خمسة أجزاء فأكثر بإتقان.
- الإلمام بأحكام التجويد الأساسية وتطبيقها.

المميزات

- حفظ القرآن الكريم كاملاً.
- منح إجازة (بسند متصل بالرسول ﷺ) للمستحقات.
- منح شهادات علمية وتربوية متخصصة.
- مناهج علمية وتربوية متخصصة.
- دراسة مجانية.
- توفر حضانة ونقل بأسعار رمزية حسب المتاح.

المواعيد

اليوم	التاريخ	الأعمال
من السبت إلى الأربعاء	١٨ /٤ إلى ٦/١٩	تعبئة استمارات التسجيل من قبل المتقدمة
الإثنين	١٤٣١/٧/٢هـ	اختبار القدرات (من الساعة ٨ حتى الساعة ١١)
السبت	١٤٣١/٧/٧هـ	تبليغ المجتازات لاختبار القدرات.
من السبت إلى الأربعاء	٧/١٤ إلى ٢٥ /٧	اختبار القرآن والمقابلة الشخصية للمجتازات
الإثنين	٣٠/ ٧ /١٤٣١هـ	إعلان أسماء المقبولات

الدراسة مجانية

فرع الربوة
ت ٤٤٥٥٩٧٩
ف ٤٤٥٠٦٤٣

فرع الواحة
ت ٢٦٣٥١١٢
ف ٢٦٣٥١١٦

فرع الشفا
ت ٢٩٨٢٥٥٩
ف ٢٩٨٣٣١٩

البهائية: ماذا تريد؟

مشرق أذكار ويلمت في أمريكا

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

في بداية العشرينات من القرن التاسع عشر ظهرت في بريطانيا على يد الأقلية الحاكمة حركةٌ دينية كاثوليكية خفيَّة تُعرَف باسم: «حركة أكسفورد» The Oxford Movement أو «التراكتارية» Tractarianism أو «البيوزية» Puseyism، وكان هدفها الأول إعادةَ الكاثوليكية إلى بريطانيا بعد ازدهار الكنيسة الأنجليكانية فيها. وقامت هذه الحركة على ما يشبه «التقية»؛ حيث كان القساوسة الكاثوليك يتولَّون مناصب في الكنيسة الأنجليكانية دون أن يعلم الأتباع أنهم على غير مذهبهم. يقول عنهم «والتر والش» في كتابه «التاريخ الخفي لحركة أكسفورد»: «كانوا يَدعون من منابرهم إلى العقائد السائدة للكنيسة الأنجليكانية كما تعلَّموها على مدى ثلاثمائة عام تقريباً. أما في الخفاء، وعند من يثقون به فكانوا يُعلِّمون تلك العقائد والممارسات الرومية التي لم يجرُؤوا على إظهارها أمام الملأ»(1).

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(1) Walsh, Walter. The Secret History of the Oxford Movement (London: Swan Sonnenchein & Co, Ltd., 1899), p. 3.

ونشـــطت هذه الحركة في بعض الجامعـــات البريطانية، وعلى رأســـها جامعة أكســـفورد، وكانت مظلتها «ماســـونية الطقس الاسكتلندي (الإيكوســـي)» التي أسسها اليسوعيون الكاثوليك في فرنســـا. ويشـــير الكاتب السياســـي المعاصر «روبـــرت دريفوس» إلـــى أن هذه الحركة كانـــت تحالفاً بين الحكومة البريطانية، والماسون، واليسوعيين الكاثوليك. وكانت مهمة رُسُلها أن يزرعوا خلايا «ماسونية الطقس الاسكتلندي» الكاثوليكية في جميع أنحاء العالم.(١)

كان رُسُل حركة أكسفورد إذا دخلوا بلداً مسلماً لا يتجهون إلى تنصيـــره، بل يمدون يد العون للنِحَـــل الباطنية في ذلك البلد. وكانت الأســـرة الملكية البريطانية الداعمَ الرئيس لهذه الحركات الباطنية بالإضافة إلى مشـــاهير الساسة من أمثال «بنجامين ديزرائيلي» و«اللورد بالمرســـتون». وكان أهم مشروع لهذه الحركة في القرن التاســـع عشر الميلادي هو دعم النِّحلة البهائية الفارسية.

تُعَدُّ البهائية امتداداً للنِّحلة الباطنية البابية التي أسســـها المرزا علي محمد رضا الشـــيرازي الذي أعلن أنه الباب عام ١٨٤٤م. أما مؤســـس البهائية فهو الباطني حسين علي الملقب بـ: «بهاء الله» الذي ادعى في شـــخصه مـــا ادعاه النصارى في عيســـى - عليه الســـلام - من أنه رســـول الله حلت فيه الروح الإلهيـــة، وهذا من أدلة ارتباط البهائية بأهل الصليب. كما يقول البهائيون بصلب المســـيح - عليه الســـلام - خلافاً لصريـــح القرآن الكريم؛ وفي هـــذا ترويج لكفر النصارى. ثم إنهم يزعمون أن دين الباب ناســـخ لشريعة المصطفى ﷺ(٢). وليس المقصود هنا تتبُّع عقائد هذه الفرقة الباطنية الخبيثة؛ فبطلانها بيِّنٌ، ولكن المراد بيان المشـــروع الأكبر الـــذي لأجله دُعمت من قِبَل الملكية البريطانية.

في عام ١٨٥٢م اعتُقِل أحد قادة البهائية في إيران بتهمة محاولة اغتيال الشاه، فضُيق الخناق عليهم ونُفِي أشهر القادة البهائيين إلى بغـــداد ومنها إلى إســـطنبول. في هذه الأثناء اتصل قـــادة البهائية - ومنهم «البهـــاء»، وابنه عباس أفندي «عبد البهاء» - بالماســـونية الاســـكتلندية. وفي عام ١٨٦٨م قـــررت الدولة العثمانيـــة أن البهائية أضحت تشـــكِّل خطراً محدقاً ولا يمكن منحها حرية الحَرَاك، فوضعوا قادتها تحت الإقامة الجبرية في عكا، لكنهم بفضل أصدقائهم الإنجليز في لندن كانوا يظهرون الفينة بعد الفينة.

ومع نهاية القرن التاســـع عشـــر كانت البهائية قد عادت تزدهر ثانيـــة - خصـــوصاً في إيران - حتى زعم المستشـــرق «إ. ج. براون» - الذي اعتنى بدراســـتها - أنها تيار المستقبل في الشرق الأوسط. أما الصليبي الآخر اللُّورد «كُرزون» فأعلن أنها: إن حافظت على انتشـــارها «فستحل محل» الإسلام في بـــلاد فارس. وبحلول القرن العشـــرين أضحى من المعلوم أن البهائية صناعةٌ بريطانية، واتهمتها الدولة العثمانية بمحاولة إقامة كيان لهم في ســـوريا، فقررت عام ١٩٠٧م طَرْد قادتها خـــارج تخوم الدولة. وقبل تنفيذ الحكـــم قامت «حركة تركيا الفتاة» (الطابور الخمس الآخر لماسونية الطقس الاسكتلندي ومحفل الشـــرق الأعظم) بثورتها الشـــهيرة التي أمسكت من خلالها بزمام السلطة، وأُطلق سراح «عبد البهاء» من سجنه.

وبعـــد خروج «عبد البهاء» من الســـجن اتجه إلـــى أربابه في لندن ونيويورك ينشر رسالة البهائية، وهناك في لندن منحته ملكة بريطانيا وسام «الفارس القائد في تنظيم الإمبراطورية البريطانية» مقابـــل الرســـالة التي روَّجت لهـــا البهائية - ولا تـــزال - خدمةً للصليبية؛ فما هذه الرسالة؟

ويمكـــن تلخيص رســـالة البهائية في أنها دعـــمٌ «للنظام العالمي الجديد»؛ ففي عام ١٧٧٦م تأســـس تنظيم الإلوميناتي «المتنورين» اليســـوعي؛ وكان الهدف منه إقامة حكومة عالمية رومية صليبية على أنقاض الدول القومية ذات الاســـتقلال لتُحكَم سياسياً واقتصادياً من عاصمتها المفترضة (القدس). وكان المؤسسون لذلك التنظيم هم مَنْ أسهم في نشر البهائية؛ أعني: (اليســـوعية الكاثوليكية وماسون الدرجات العليا بدعم من أثرياء اليهود).

لقد عُرف مشروع الحكومة العالمية باسم «النظام العالمي الجديـــد» وبقي ماثلاً أمـــام أنظار الصليبيـــين إلى عصرنا الحاضر؛ حيـــث يُعرَف الآن بـ: «العولمـــة»، أو «حركة العصر الجديد»... ونحوهما. وهذا المشروع الصليبي هو عين مشروع البهائية كما ينص عليه قادتها؛ ففي كتاب «منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد» الـــذي نشـــرته «مؤسســـة النشر البهائيـــة» عام ١٩٧٠م نقرأ ما نصه:

«قد يبدو عدد البهائيين الصغير غير ذي بالٍ إذا ما قورن

(1) Dreyfuss, Robert. Hostage to Khomeini (New York: New Benjamin Franklin House, 1980), p. 114.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١/ ٤١٠ - ٤١٢.

بعدد أتبـاع الأديان القديمة، ولكنَّ البهائيين مطمئنون إلى أن القـوة الإلهية قد باركتهم بمنحهـا إياهم امتياز **خدمة نظامٍ عالميٍّ جديد** سوف تجتمع فيه الأفواج من الشرق والغرب في **يومٍ ليس ببعيد**»[١].

وفي رسـالة مؤرَّخة بـ ٨ فبراير عام ١٩٣٤م كَتب شوقي أفنـدي (زعيم البهائية من عام ١٩٢١ – ١٩٥٧م) مبيِّناً هدف المنظومة البهائية ومشروعها:

«إنَّ هذا النظام الإداريَّ [الذي تقوم عليه البهائية] حينما تبـدأ أجـزاؤه المكوِّنة لـه، ومؤسسـاته الأصيلة فيه بعملها بقوَّة وكفـاءة سـوف يؤكِّد على مُطالبيـه، ويعـرض قدرته على ألا يكون مجـرَّد نـواة، **بل يكون نموذجاً للنظام العالمي الجديـد الذي قُدِّر لـه أن يحتضن الإنسـانية جمعاء عندما يحين الوقت لذلك...**».

ويضيف شوقي أفندي قائلاً:

«ولا يقلِّلن أحد من شأن هذا النِّظْم الإلهيِّ الذي لا يزال في عهد طفولته أو يشـوِّهنَّ هدفه؛ فالصخرة التي شُيِّد عليها ذلكم النِّظام الإداريُّ هي ما أراده الله للإنسـانية في هذا اليوم إرادة محتومة. وإن المنبع الذي يستقي منه إلهاماته هو بهاء الله نفسه لا غيره... والهدف المركزي والأساسي الذي يقوم عليه ويحيِّيه: هو تأسيس النظام العالمي الجديد وَفقاً لما أشار به بهاء الله».

بل وَفْقاً لما أشـار به أسياد «البهاء» من الصليبيين. أليس هذا ما دعا إليه «بوش الأب» في خطاب ألقاه أمام الكونجرس بعنوان: «في سـبيل نظام عالمي جديد»؛ حيث قال: «إن أزمة الخليج الفارسي (العربي) تُعَدُّ فرصة نادرة للمضي نحو حِقبة تاريخيـة من التعاون... **من هـذه الأوقات المضطربة سـيظهر نظـام عالمي جديد**، يمكن فيه لأمم العالم في الشرق والغرب والشمال والجنوب أن تزدهر وأن تعيش في وئام... في يومنا هذا يعاني العالمُ الجديد مخاضاً»[٢].

وهو كذلك مشروع «أوباما» الذي تحدث عنه «كيسينجر» عندما سـئل على تلفاز الـ CNBC عما يرى أنه أهم ما على «أوباما» أن يقوم به؛ حيث قال: «الرئيس المنتخب يتولى مقاليد الحكم في لحظة تشهد اضطرابات في أنحاءَ كثيرة من العالم في آن واحد... سوف تكون مهمته تطوير إستراتيجية شاملة لأمريكا في هذه الفترة؛ حيث يمكن أن يُنشَأ فيها فعلاً «**نظام عالمي جديد**». إنها فرصة عظيمة»[٣].

إن «النظام العالمي الجديد» يسـعى إلى القضاء على كل سـلطة مسـتقلة ليُحكَم العالمُ من قِبَل نخبة صليبية تتحكم في السياسـة والاقتصـاد العالميين. وقد أكـدت ذلك عضو الكونجرس «مارجـري هولت» عندما رفضـت التوقيع على وثيقـة «إعلان الاعتماد المتبـادل» The Declaration of Interdependence عام ١٩٧٥م قائلة:

«إنه [أي الإعلان] يدعو إلى التنازل عن سـيادتنا القومية لصالح المنظمـات الدولية. إنه يعلـن أن اقتصادنا ينبغي أن يُضبط من قِبَل سـلطات دولية. إنه يقتـرح أن ندخل **نظاماً عالمياً جديداً**... هـل تعجبكم فكرة «سلطات دولية» تتحكم في إنتـاجنا ونظـامنا المـالي؟... إذا مـا تنـازلنـا عـن اسـتقلالنا لـ «**نظـام عالمي جديد**» فقد خُنَّـا قِيَمَنا التاريخية من حرية وحكم ذاتي»[٤].

ومـن أراد أن يطلع على الخطوات الدقيقة والأكيدة التي يُسـار عليها لإقامـة «النظام العالمي الجديـد» فَلْيقرأ تراث البهائية؛ حيث يقول شـوقي أفندي في رسالته المؤرَّخة بـ ٢٨ نوفمبر عام ١٩٣١م:

«**نحـو هـذا الهدف – هـدف نظـام عالمي جديـد إلهيٍّ في منشـئه، وشـاملٍ في مداه، ومنصفٍ عادل في مبدئه، وتتحدى ملامحُه كلَّ ما عداها – يجب على البشريَّة أن تستحثَّ خطاها، وتكـدح إليه كدحاً... إنَّ شـكلاً من أشـكال الحكومـة العالميَّة يجـب أن يتطوَّر؛ فتتنازل من أجله جميع أمم العالم طوعاً عن جميع ادِّعاءاتها في شنِّ الحروب، ويكون له حقُّ فرض الضرائب وتحديد السـلاح واقتصاره علـى حفظ الأمـن الداخلي ضمن حدود سـيادته**[٥]. **ومثـل هذه الحكومة يجـب أن تضمَّ ضمن إطارهـا هيئـة تنفيذية عالمية تسـتطيع أن تفرض سـلطتها العليـا الـتي لا ينازعهـا فيها أحـد علـى كلِّ عضـوٍ معاندٍ من أعضاء الجامعـة الدولية. وإنَّ محكمةً عُليـا**[٦] **تكون أحكامها ملزِمـة للفرقـاء المعنيِّين حتَّـى في الحالات الـتي يمتنع فيها**

(١) كل النصوص البهائية الواردة مقتبَسة من كتاب: «منتخبات من كتاب بهاء الله والعصر الجديد» (ولمت، إلينوي، الولايات المتحدة: مؤسسة النشر البهائية، ١٩٧٠م)، وفي النصوص المقتبسة ركاكة بيِّنة جرى تجاوزها حفاظاً على الاقتباس كما هو.

(2) Douglass, Herbert E., Dramatic Prophecies of Ellen White, p. 98.

(3) http://www.youtube.com/watch?v=KD3BqK-9ZiU

(4) Melvin Stamper Jd. Fruit from a Poisonous Tree (Bloomington, IN: iUniverse, 2008), p. 118.

(٥) هذا يفسر حرص الدول الرومية على عدم انتشار السلاح فلا تنازعها قوة أخرى.

(٦) تذكر – أيها القارئ الكريم – أن هذا قيل عام ١٩٣١م؛ أي قبل تأسيس محكمة العدل الدولية بأربعة عشرة عاماً؛ فمن أين لهؤلاء معرفة ذلك؟ أم هي من كرامات الأولياء؟

أولئك الفرقاء عن عرض قضيّتهم عليها طوعاً، وإنّ جامعة عالمية تُلغَى فيها جميع الفوارق الاقتصادية إلغاءً أبدياً، وفيها يُعتَرَف اعترافاً واضحاً باعتماد رأس المال والعمل أحدهما على الآخر، وفيها يهدأ إلى الأبد ضجيج الحروب والتعصبات الدينية، وفيها تُطفأ جميع نيران التعصبات القوميّة إطفاءً نهائياً، وفيها يقوم قانونٌ دوليٌّ واحد هو ثمرة أحكام الممثّلين العالميين المتحدين بالمصادقة على تلاحم جميع قوى الوحدات المتحدة، وأخيراً يتحوّل فيها هياج القوميات المتحاربة المتقلّبة في أطوارها إلى وعي بالمواطنة العالمية. هذه كلُّها - في الواقع كما يبدو - هي الخطوط العريضة لنظامٍ تنبّأ به بهاء الله ...»[1].

وأَصرَح من هذا ما كتبه في رسالته المؤرَّخة بـ ١١ مارس سنة ١٩٣٦م؛ وهي رسالة جديرة بالدراسة والتمحيص؛ إذ إننا نَلِجُ العالم الذي وعدت به (أو خططت له):

«إنّ هيئةً تنفيذية عالمية تسندها قوّة دولية سوف تنفّذ القرارات التي تُصدِرُها هيئة التّشريع العالميّة وتطبّق القوانين التي تشرِّعها وتحرس الوحدة الأساسية لرابطة الشعوب العالمية بمجموعها، وإنّ محكمةً دوليةً سوف تقاضي وتُصدِر قرارها النّهائي الإلزاميّ في جميع المنازعات التي تنشُب بين العناصر المختلفة المكوّنة لهذا النظام العالمي، وسوف تبتكر وسيلةً للاتّصالات الدولية تحتضن جميع الكرة الأرضية، وتكون متحرّرة من العوائق والقيود القومية، وتقوم بوظائفها بسرعة رائعة وبانتظام تامٍّ[2]، وستكون عاصمةٌ عالميةٌ المركزَ العصبيَّ لحضارة عالمية والنقطةَ التي فيها تتجمّع جميع القوى الموحّدة للحياة، ومنها يَشِعُّ نشاط نفوذها الفعّال[3]. وإنّ لغةً عالمية سوف تُختَرَع أو تُنتَخَب من بين اللغات الموجودة في العالم وتدرَّس في مدارس جميع الأمم المتحدة باعتبارها لغةً مساعدة إلى جانب اللغة الأم[4]، وإنّ خطّاً عالمياً، وأدباً عالمياً،

(١) لا شك أن زعماء البهائية كانوا على اطلاع على تفاصيل ما يحاك ضد الإسلام من قِبَل الصليبيين.

(٢) هذا يبيِّن لنا هدف «العولميين» من توسيع نشر خدمة الشبكة العنكبوتية – على ما فيها من حسنات – في أنحاء العالم حتى الدول الفقيرة.

(٣) سبق أن ذكرت في مقال سابق أن هذه العاصمة هي «القدس» التي يخطِّط لتسليمها للكنيسة الرومية الكاثوليكية بزعامة البابا، ولكن تحت قناع منظمة الأمم المتحدة.

(٤) قامت محاولة لتأسيس لغة عالمية تدعى «إسبرانتو» Esperanto على يد «لودوفيتش زامنهوف» في السبعينات من القرن التاسع عشر، والذي اعتنقت ابنته «ليديا» البهائية عام ١٩٢٥م. أما المحلل السياسي «دريفوس» فيؤكد في كتابه «رهينة الخميني» على أن مخترع لغة «إسبرانتو» تزوَّج إحدى بنات «عباس أفندي»، عبد البهاء. ولا شك أن الأمر ليس من قبيل الصدفة. لكن لا أدري أيحاول العولميون نشر هذه اللغة لتصبح عالمية أم سيُكتفى باللغة الإنجليزية التي اكتسحت العالم أجمع، وهو الأرجح.

> تُعَدُّ البهائية امتداداً للنحلة الباطنية البابية التي أسسها المرزا علي محمد رضا الشيرازي الذي أعلن أنه الباب عام ١٨٤٤م. أما مؤسس البهائية فهو الباطني حسين علي الملقب بـ «بهاء الله» الذي ادعى في شخصه ما ادعاه النصارى في عيسى - عليه السلام - من أنه رسول الله حلت فيه الروح الإلهية

ونظاماً عالمياً موحّداً للنقد[5] والموازين والمكاييل سوف يُسهِّل اختلاط الأمم والأجناس ويجعله بسيطاً يسيراً. وفي مثل هذه الجامعة العالمية سوف يتفق الدين والعلم باعتبارهما القوّتين المؤثّرتين في الحياة البشرية، وسوف يتعاونان ويتطوران بكلّ وِفاق، وسوف لن تعود الصحافة تحت نظام إداريٍّ مثل هذا النظام؛ لتكون أداة تُستَغَل استغلالاً سيئاً مضرّاً لخدمة مصالح معيّنة شخصيّة أو عمومية، وسوف تتحرر من نفوذ الحكومات المتناحرة والشعوب المتعادية وتُمنَح أقصى المدى في حرية التعبير عن الآراء المتنوعة والمعتقدات المتباينة، وسوف تنظَّم المنابع الاقتصادية في العالم، وتُستَثمَر منابع المواد الخام استثماراً كاملاً وتُرتَّب وتُطوَّر أسواقها وينظَّم توزيع منتجاتها تنظيماً عادلاً».

فهل بقي لذي لُبٍّ أدنى شك في أن ثمة مؤامرة تحاك؟ إن البهائية التي أخذت على عاتقها الدفاع عن أهل الصليب منذ نشأتها يجب ألا يُنظر إليها كجماعة باطنية خارجة عن الملة وحسب، بل هي طابور خامس يفوق نفوذُه السياسي نفوذَه العقدي، ومشروعها الأكبر هو دعم الصليبيين ليحكموا بيت المقدس ثانية تحت مظلة أممٍ متحدة. وهل مراكزهم الإدارية وأضرحتهم التي تبدو كالقصور على تراب «حيفا» إلا من أجل رعاية المشروع عن كثب؟

(٥) جرت اتفاقية حديثة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك لتأسيس «اتحاد أمريكا الشمالية»، وستسمى وحدته النقدية «أميرو» على غرار الـ «يورو».

حتمية النصر

د. محمد أحمد عبد الله الزهيري(*)

إن المتابع للنتاج الثقافي والعلمي (العربي - الإسلامي) منذ سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية يجد أن هذا النتاج - وبالتحديد في نظرته إلى مستقبل الإسلام - ينقسم إلى أربعة اتجاهات رئيسية، هي:

أولاً: اتجـــاه انهزامي انبهر بثقافـــة الغالب فنظر إليه نظرة إعجاب «مرايا محدبـــة»، فدعا إلى اتباعها وتقليدها (حَذْوَالقُذَّة بالقُذَّة)، وذهب إلى أننا إذا أردنا النهوض فعلينا أن نأخذ حضارة الغرب خيرَها وشرَّها وحلوَها ومرَّها. ونظر لكل ما هو عربي إسلامي نظرة احتقار وتهوين «مرايا مقعرة»، ولم يرَ في حضارة العرب وتاريخهم أي إيجابية؛ وتغلب هذه الصفة على أدبيات اليهود والنصارى والفِرَق الشـــاذة. ومَنْ نهل من مَعِين الحضارة الغربية يســـهل عليه طَمْسُ حضارة المســـلمين وتاريخهم ونتاجاتهم العلميـــة وإنجازاتهم خلال أربعة عشـــر قرناً؛ فيصفه بأوصافِ تحقيرٍ وتهوينٍ، ويصف أعلامه بالجمود والتقليد، وقد يصل التطاول إلى الإســـلام وكتابه ونبيِّه ﷺ.

ثانيـــاً: اتجاه توفيقـــي يدافع عـــن الثقافة والحضارة الإســـلامية ويحاول أن يردَّ الشُّبَه التي يرددها المستشرقون وتلامذتهم لكن من موقع الضعف؛ فكأنهم تشرَّبوا هذه الشُّبه فأوردوها نقداً وردُّوا عليها نســـيئةً. ويظهر ذلك واضحاً في ردِّهم على شُـــبهة انتشار الإسلام بالســـيف، وشُبهة نظرية النشوء والارتقاء لدارون، وشبهة المساواة وحقوق المرأة. هذه الردود التي تمثل قمة الانهزامية حينما قالوا بأنهم لم يعرفوا الصورة التي خلق الله عليها آدم.

(*) رئيس قسم اللغة العربية في جامعة إب.

ثالثاً: اتجاه يؤمن بالإسلام وانتصاره لكنه يربط هذا النصر بهذا الشخص أو ذاك، ويرى أن انتصار الإسلام في العصر الحديث لن يكون إلا بظهور «المهدي» أو «السفياني» أو «القحطاني»؛ وهذا الاتجاه لا يقل خطورة عن الاتجاهين السابقين؛ لأنه دعوة إلى السلبية وانتظار المعجزات وربط النصر بالرجال. وهذا الاتجاه - كما حدثنا الشيخ عبد المجيد الزنداني - وقع في ثلاثة أخطاءَ، هي:

الخطأ الأول: عدم تحقيق المناط في مراعاة انطباق النص على الواقع: وقد ظهر ذلك في كثير من الكتابات والخطب التي جزمت بأن «السفياني» هو «صدام حسين»، وتعسفت في نسبته الدمشقية بأنها غير دمشق الشام وأن هناك دمشق في العراق مع أن صدام من قرية «الحويجة» في محافظة صلاح الدين ولا توجد في صلاح الدين مدينة اسمها «دمشق»، وتعسفوا في نسبته إلى «أبي سفيان» مع أنه - أي صدام حسين - كان ينسب نفسه إلى «آل البيت» وكان يطلق على نفسه: «سليل الدوحة النبوية»، ومهما يكن فالناس مصدَّقون في أنسابهم ولا أخفي على القارئ سراً - على الرغم من أني لم أَحفَل بهذا التوجه وهذه الكتابات - وهو أن أحاديث السفياني تنطبق على «يزيد بن أبي سفيان» ولم يشذَّ من هذه الأحاديث إلا حديث الخسف الذي لم يقع لجيش يزيد، وهذا بسبب اللَّبْس الذي حصل في فهم أحاديث الغيب التي تتحدث عن المستقبل؛ لأن الخسف سيكون حين ظهور المهدي الحقيقي (محمد بن عبد الله)، وليس المهدي المنتظر (الخرافي) عند الرافضة الذي ينتظرون خروجه منذ ألفٍ ومائتي سنةٍ، والذي لن يكون مخلِّصاً وحيداً ومصلحاً يظهر طفرة، وإنما سيكون خليفة في سلسلة خلفاءَ راشدين بشَّر بهم النبي ﷺ بقوله: «ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة»[1]، كما ذكر ابن كثير في «علامات يوم القيامة»، وكما في حديث: «يظهر على حين موت خلفية» الذي حاول هؤلاء الجزم بأنه الملك فهد بن عبد العزيز.

والخطأ الثاني: يكمن في الاستدلال بأدلة أهل الكتاب والاعتماد عليها؛ مع أن النبي ﷺ قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم؛ لأنكم قد تكذبون الحق»[2] و «شَرْعُ مَنْ قَبْلَنا شَرْع لنا إذا جاء في شرعنا ما يوافقه»[3]؛ فلا يخفى أن معرفة صحة «شرع من قَبْلَنا»، إنما كان عن طريق شرعنا.

والخطأ الثالث: اعتماد الحساب الذي لم يُعتَمَد عند المسلمين إنما تعتمده اليهود والنصارى والروافض والفرق الشاذة الذين يقدسون الرقم «١٩»، ومع أني لم أحفل بهذه الكتب وهذه الخطب؛ إلا أنني ظللت أقمع صوتاً في داخلي بأن «صدام حسين» هو «السفياني»[4] لا سيما وقد نزل الأمريكيون في المنطقة الخضراء التي مضى الحديث بأن السفياني سيوقِع بالروم فيها حتى أُعدِم.

رابعاً: اتجاه موقن بانتصار الإسلام واثق من ظهوره ويعتقد أن النصر جهد بشري كما قال - تعالى -: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّـهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله - سبحانه -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وأن المعجزات والكرامات والعون الإلهي لن يأتي إلا حينما تَستَنفِد الطائفة المستحقَّة للنصر جهدها ووسائلها المادية والمعنوية، وحينما تقول قولَ الرسل وأتباعهم: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وهي الحالة التي وصفها الله - تعالى - بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]. والنصر مضمون لهذا الدين ومن تمسك به، وليس لفلان أو فلان أو بفلان؛ وقد فهم المسلمون هذه الحقيقة منذ عهد الرسول ﷺ فجاهدوا وضحُّوا بأنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأوقاتهم فصبروا لكل ما لا قوه وما واجهوه من لأواء: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقد فرقوا بين نصر الفرد الذي يتحقق بموت الإنسان على الطاعة فيفوز بالجنة فتجده يقول: «لئن عشت حتى آكل هذه التمرات؛ إنها لحياة طويلة»[5]، و «موتوا على ما مات عليه؛ إني لأجد ريح الجنة دون أُحُد»[6]، وإذا أصيب قال: «فزت ورب الكعبة»[7]، أو ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤] ويحكونها شعراً كقول قائلهم:

ولستُ أبالي حين أُقتَل مسلماً
على أي جَنْبٍ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإنْ يشأْ
يباركْ على أوصال شِلوٍ مُمَزعِ[8]

(١) مسند أحمد: (١٧٦٨٠).
(٢) البخاري: (٤١٢٥).
(٣) فتح الباري: ١/ ٢٨٠.
(٤) ينظر: المستدرك على الصحيحين: (٨٥٨٠).
(٥) مسلم: (٣٥٢٠).
(٦) جوامع السيرة: ١/ ١٦٢.
(٧) عيون الأثر: ٢/ ١٨.
(٨) عيون الأثر: ٢/ ١٢.

وبين النصر الجماعي الذي هو انتصار الدين والدعوة والمبادئ؛ وإن مات الداعية أو قُتِل، كما في موت النبي ﷺ في وقت عصيب ارتدت فيه العرب وذَهَل الأصحاب فوقف أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه – يبيِّن حقيقة هذا الدين، فقال: «إنه من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات»[1]؛ فالنصر مربوط بالدين والمبادئ والطاعة وليس بشيء آخر؛ وحينما تردد المسلمون في غزوة مؤتة لما بلغهم أن عدد جيش العدو مائتا ألف وقف عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – يقول: «أيها الناس إننا لا نقاتل الناس بعدد ولا عدة وإنما نقاتلهم بهذا الدين، وإن التي منها تهربون للتي خرجتم تطلبون: النصر أوالشهادة، فسيروا على بركة الله»[2]، وكتب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه – وهو في القادسية، فقال له: (كن من المعصية أحذرَ منها من العدو؛ فإننا لم ننتصر إلا بطاعتنا لله ومعصيتهم له؛ فإن تساوينا وإياهم بالمعاصي تفوقوا علينا بالعدد والعدة). وحينما أدرك أن بعض الغوغاء قد اغترُّوا بخالد بن الوليد – رضي الله عنه – بيَّن بالتجربة العملية التي لا تقبلها العقول المادية أن النصر لهذا الدين وليس لخالد أو غيره فعزله في أوج انتصاراته في موقعة اليرموك، وهي ظاهرة أمميه فريدة اختص بها هذا الدين... لقد عزل خالد؛ فهل توقفت الانتصارات؟

وقد ظلت هذه الحقيقة واضحةً في أذهان المسلمين في مختلف العصور؛ فهذا نور الدين زنكي المعروف بنور الدين الشهيد لَمَّا قيل له: لا تخاطر بنفسك فلا يقوم للدين بعدك قائمة قال: (هذه إساءة أدب مع الله – تعالى – ومن حفظ الدين قبل نور الدين؟) وكان كثيراً ما يردد الفضل لله وحده[3].

فالنصر لهذا الدين حتميٌّ حتى يدخل إلى كل بيت، ويبلغ ما بلغ الليل والنهار. يقول الله – تعالى –: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨ – ٩]. وفي سورة التوبة يستعمل الله – جل جلاله – بدل «لام التعليل» مع المصدر المؤول الواقع موقع الجر مع «إن» التي هي حرف مصدري ونصب واستقبال وتُشكِّل مع الفعل المضارع مصدراً مؤولاً في محل جر، وبدل المصدرِ الصريح «مُتمٌّ» المصدرَ المؤول «أن يُتِمَّ» المسبوق بأداة الاستثناء «إلا» المسبوقة بالفعل المضارع «يأبى» التي فيها من الدلالة على حتمية انتصار الدين وتمام نور هذه الحتمية التي تُذهب كلَّ شكٍّ وريبةٍ وظنٍّ من تفكير كل مسلم؛ لأن ما يأباه الله ويرفضه مَنْ ذا الذي يوجده أو يعمله. إن رَبْطَ النصر بالله – تعالى – لا يعني إنكار دور الجهد البشري والعمل من المؤمنين إنما يعني أن الله سينصر دينه ويُتِمُّ نعمته؛ فإن قمنا نحن بدورنا وكنا في الركب وإلا فإن الله سوف يهيئ من يقوم بأمر الدين كما قال الله – تعالى –: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقد قيل: إنهم العجم من السلاجقة والأتراك والموحدين والأيوبيين والمغول... وغيرهم، وقد يكونون من الموالي العبيد كما حصل مع المماليك الذين قضوا على خطرين عظيمين، هما: (الصليبيون والتتر) حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنهم الفرقة الناجية والطائفة المنصور في عصره وقد أحسن الشاعر المسلم محمد محمود الزبيري في قوله:

صحونا برغمك يا (إيدن)
فَلِلفجر ربٌّ به نؤمن

وسيبكي من تخلَّف عن الركب كما بكى أبو خراشة حينما دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فقال: لا، حتى ينصرك الله على قومك، فقال ﷺ: «كن في الركب خير لك» فأصرَّ الرجل على موقفه؛ فلما فتح الله على رسوله أعظم فتح (وهو فتح مكة) جعل يبكي؛ لأنه لم يكن في الركب.

إن حتمية النصر تؤيدها أدلة النقل الصريح من الكتاب والسُّنة كما تؤيدها أدلة العقل الصحيح وشواهد الواقع الحديث المعاصر، وتتكاثر الأدلة القرآنية الصريحة على القول بأن النصر حتمي وأن المستقبل للإسلام وقد سبق قول الله – تعالى –: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢]. كما سبق التعرض لبعض اللفتات التفسيرية للآيات في سورة الصف وزيادتها في سورة التوبة وهناك لفتات أخرى، منها: إضافة النور إلى (مُتِمٌّ)، والنور من الصفات الذاتية لله – سبحانه وتعالى – وقد وصف

(١) البخاري: (١١٦٥).
(٢) جوامع السيرة: ١/ ٢٢١.
(٣) ينظر: الموسعة الميسرة في التاريخ الإسلامي، إعداد فريق البحث والدراسات الإسلامية، تقديم راغب السرجاني، القاهرة، مؤسسة إقرأ، ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ٢/ ١٠٣١١٦.

الله نوره في سورة النور، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]؛ فمن ذا الذي يستطيع إطفاء نورٍ كوكبٍ أو نجم؟ فما بالك بنور الله؟ ومنها الجملة الاسمية: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: ٨] التي تؤكد أن تدبير هذا الدين وحفظَه ونَصْرَه هو لله وحده كما يؤكد ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]؛ ومع أن الجملة الاسمية تتصف بالثبات إلا أن استعمال القرآن للخبر لفظ ﴿مُتِمُّ﴾ الذي هو مصدر صريح أفاد الجملة حركة فهذا النور لا يزال يزيد شيئاً فشيئاً حتى يكتمل ويَتُم، والذي لن يجد الإنسان ما يَعبِّر به عن التاريخ الإسلامي وانتشاره حتى انتصر وهيمن خيراً من المصدر «مُتِمٌّ»؛ فالإسلام مثل (القمر) الذي يزيد ويَتِم شيئاً فشيئاً حتى يكتمل ويَتِم في منتصف الشهر، والمتتبع لتاريخ الإسلام لا يجده يخرج عن هذا الوصف؛ فهو كل يوم يكتسب مواقع جديدة ويزداد قوة وإن انتكس في مكان انتصر في مكان آخر؛ ففي الوقت الذي كان يتراجع فيه في الأندلس كان يزحف العثمانيون في أماكن أخرى في شرق أوروبا حتى وصل المسلمون إلى (بودابست) عاصمة المجر في قلب أوروبا، وحاصروا روما بعد فتح القسطنطينية. وكذلك المغول الذين دخلوا بغداد وقضوا على الخلافة، سرعان ما دخلوا في دين الله أفواجاً وتوجهوا للفتح في الهند والصين ووسط أسيا وأقاموا دولاً عديدة، وقُلْ مثل ذلك في إفريقيا وجنوب شرق أسيا التي دخلت في الإسلام بدون فتحٍ ولا جيشٍ؛ ليتأكد الجميع أن نصر هذا الدين حتمي وأن قوَّته في داخله وإلا فبماذا يفسَّر غزو المغول (التتر) لبلاد المسلمين وقضاؤهم على خلافتهم وتدميرُهم لحضارتهم وإغراقُهم لتراثهم في نهر دجلة وقتلُهم لمليونَي مسلم حتى تحول نهر دجلة إلى لون الدم مرة وإلى لون الحبر أخرى، ثم سرعان ما أسلموا وذهبوا في الأرض مجاهدين حتى قال بعض المؤرخين: إن التتر انتصروا عسكرياً، والإسلام انتصر عليهم حضارياً وثقافياً، وإن نظرية ابن خلدون حول ثقافة الغالب انعكست عند المسلمين. أما دخول المسلمين في جنوب أسيا ووسط إفريقيا، المنطقتين اللتين فيهما أكبر تجمُّع إسلاميٍّ فلا تفسير له إلا قوله - تعالى -: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩].

إن الإسلام قد يتعرض لنكسات وابتلاءات بسبب معاصي المسلمين ومخالفاتهم، كما قال - تعالى - ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، لكن في هذه الانتكاسات دروس يعرف المسلمون منها جوانب التقصير وأسباب الهزيمة فيتجنَّبونها، ويتعرفون جوانب القوة وأسباب النصر فيأخذون بها. وقد خرج الإسلام من كل نكسة أو ابتلاءٍ أقوى وأصلب وكأنَّ هذه الفتن هي النار التي تبيِّن الذهب الصحيح من غيره، وقد أكد القرآن على هذا في آيات كثيرة، منها قوله - تعالى -: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقوله - تعالى -: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وقوله - تعالى -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقوله - تعالى -: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].

وكذلك أحاديث السُّنة الصحيحة التي تتناغم مع القران وصدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فإذا كان القرآن قد بشر بانتصار الإسلام وهيمنته وتمامه فلن يكون إلا ذلك؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال - تعالى -: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، فإن السُّنة قد بشرت بأن الإسلام سيبلغ ما بلغ الليل والنهار ويدخل إلى كل بيت بعزِّ عزيز أوذُلِّ ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله وذلاً يذل الله به الكفر وأهله، وسَيُقتَل الخنزير، ويُكْسَر الصليب، وينتشر العدل والخير حتى يمر الرجل على قبر الرجل فيقول: يا ليتك معنا! وبشَّر بفتح القسطنطينية وروما فقيل: أيهما أولاً يا رسول الله؟ قال: «مدينة هرقل»[1].

أما الذين بشروا بالفتن ويكثرون من ذكرها فلا بد أن يعرفوا أن هذه الفتن ما هي إلا استثناءات يخرج الإسلام بعدها أقوى وأمضى؛ فقد خرج من الفتن الكبرى وأقام أعظم دولة فتحت مشارق الأرض ومغاربها وعاشت ما يقرب من قرن بينما كانت الفتنة ست سنوات فقط، وخرج من فتنة المغول الذين دمروا وقتلوا واحرقوا في مشرق العالم الإسلامي ما لو كان في أمة أخرى فلن تقوم لها قائمة فضلاً عن أن يدخل أصحابها في الإسلام، وهو ما يدحض نظرية

(١) مسند أحمد: (٦٣٥٨).

ابن خلدون التي يقول فيها: (إن المهزوم مولع بثقافة الغالب)، وهي صحيحة إلا في حق الإسلام الذي انهزم عسكرياً وانتصر ثقافياً وظهرت بعد هذه الفتنة بمدة قصيرة دولٌ فتية تابعت الفتوحات حتى حاصرت روما وها هم المسلمون اليوم بعد الغزو الاستعماري وفتن القومية والوطنية والشيوعية والديمقراطية ينهضون ويقفون في وجه اعتى القوى في العالم كما في العراق وأفغانستان وفلسطين والشيشان، واستطاع المجاهدون أن يحققوا معها توازن الرعب الذي جعل الدول العظمى تحذِّر من فشلها في مواجهة (الإرهاب)؛ لأن انتصار المجاهدين وهزيمة المحتل (البديهية المحتومة) سيقلب موازين القوى في العالم وحينئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله. ومما يثبت أن أحاديث الفتن مخصوصة واستثناء قول النبي ﷺ: «أمتي كالغيث لا يدرى أولها خير أم آخرها»[1]، وقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرها من خذلها أوخالفها حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[2]. وأَمْرُ الله ريحٌ طيبة يرسلها الله تقبض روح كل مؤمن، والأيام دول، والدَّولة لنا عليهم، وبشائر النصر بادية ظاهرة للعيان، وسيكون الكلام عنها في مقالة قادمة، إن شاء الله.

حقيقة النصر:

النصر الفردي يتمثل في رضى الله والفوز بالجنة والنجاة من النار كما قال - تعالى -: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهذا قد يتحقق للإنسان المؤمن في عهد الاستضعاف، أو في عهد الاستخلاف في ظل حكم الفراعنة والطغاة، أو في ظل حكم الرسل والخلفاء الراشدين؛ فالرسل إلا القلة من بني إسرائيل عاشوا مستضعفين ولم يؤمن لبعضهم ألا الرجل أوالرجلان أوالرهيط[3]، وقد يأتي النبي وليس معه أحد؛ فامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون ومؤمن سورة ياسين وغيرهم كثير دخلوا الجنة في ظل حكم الطغاة، وكم من المنافقين والمرتدين واليهود والنصارى يدخلون النار في ظل الحكم الإسلامي. وما كان الله ليضيع عمل عامل، والجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان. وقد تساءل المسلمون حينما حُوِّلت القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام؛ فقالوا: «ما بال إخواننا الذين ماتوا ولم يصلوا إلى الكعبة؟ فأنزل الله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

إذاً اتضح أن حقيقة النصر الفردي هو هذا. فهو لن يتحقق إلا بالعبادة والثبات والعمل من دون يأس كما قال الله - تعالى -: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ولن يتوقف حتى يلقى المسلمُ الله ويحطَّ رحاله في الجنة كما أمر الله - سبحانه - في قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، والنبي ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالخواتم»[4]. وإلا فقد يُخشَى على الإنسان أن يكون ممن قال فيه النبي ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. . .»[5].

أما نصر الدعوة: فيتمثل في انتصار المبادئ والقيم والعقائد والأخلاق ولا علاقة بين انتصار الدعوة وانتصار الفرد؛ فالدعوة قد تنتصر بموت الداعية. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها الغلام المؤمن - كما في صحيح مسلم في تفسير سورة «البروج» - الذي قُتِل وانتصرت الدعوة حينما قال الغلام للطاغية: «إنك لن تقتلني إلا إذا أخذت سهماً من كنانتي وقلت: باسم الله رب الغلام. ففعل الطاغية ذلك، فقال الناس: آمنا برب الغلام»[6]. وقد مات الرسول ﷺ وارتدَّ أكثر العرب، وليس في بيته شيء فخرجت زوجته تستعير الزيت للسراج، وانتصرت دعوته وبلغ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها. وكذلك الإمام أحمد مات في إقامته الجبرية بعد الابتلاء والمحنة وانتصرت دعوته، وهو اليوم إمام أهل السُّنة والجماعة. وأيضاً شيخ الإسلام مات في سجن القلعة وانتصرت دعوته فهو اليوم لا يُعرَف إلاَّ بشيخ الإسلام، وكذلك سيد قطب الذي مات شنقاً وانتصرت دعوته فلا يوجد اليوم أحد لم يتأثر بسيد قطب ودعوته ولا يسمى إلا الشهيد.

إن الخطورة تأتي من الخلط بين النصر الفردي والنصر الدعوي وبين الدعوة والداعية. قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا

(١) عقد الدرر في أخبار المنتظر: ١/٣٣.
(٢) عقد الدرر في أخبار المنتظر: ١/٢٨.
(٣) مسلم: (٣٢٣).
(٤) البخاري: (٦١١٧).
(٥) البخاري: (٢٩٦٩). ومسلم: (٤٧٨١).
(٦) مسلم: (٥٣٢٧).

﴿مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقد اضطر الصديق - رضي الله عنه - بعد موت النبي ﷺ حينما رأى اضطراب الناس وحيرتهم وصدمتهم إلى أن يقول: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»؛ ثم تلا الآية: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد اضطرب أمر المسلمين في أُحُد لَمَّا أشيع أن رسول الله قد مات فقعدوا بسبب خلطهم بين الداعية والدعوة يبكون حتى مرَّ بهم سعد بن الربيع - رضي الله عنه - فقال لهم: (ما يبكيكم؟ قالوا: قُتِل رسول الله. قال: فما قيمة الحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه ثم استقبل الصفوف وهو يقول: والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد!)[١].

وقد حرص النبي ﷺ على التأكيد على أن النصر مرتبط بالدين والدعوة وليس بفلان أو فلان، فقال في حديث خباب: «والذي نفس محمد بيده! لَيُتِمَّن الله هذا الأمر. . .»[٢]، فلم يسمِّ نفسه أو أصحابه إنما نسب النصر لله، ورفض رفضاً قاطعاً الخلط بين الفرد والسلطة وبين الدين والدعوة حينما عرضت عليه قريش الملك والمال والجاه، فقال: «والله! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أَهلِكَ دونه»[٣]، وحينما عرض الإسلام على بحيرة بن فراس شيخ بني عامر فتفرس الرجل في وجه النبي ﷺ، فقال: (لو ملكت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، فقال للنبي ﷺ: نبايعك على أن يكون لنا الأمر من بعدك. فقال له: «الأمر لله يضعه حيث يشاء»)[٤]، وهذا رد على دعاة التوريث والوصية والعهد؛ لأن النبي ﷺ لم يكن له قائد محدَّد إنما كان له في كل غزوة قائد حتى أمَّر أسامة بن زيد وهو ابن ست عشرة سنة وهو مولى أسود، وهناك من هو أفضل منه بين الناس؛ ليبين أن النصر مربوط بهذا الدين وهذه الدعوة وأن واجب المسلمين أن يسمعوا ويطيعوا لمن تأمَّر عليهم ولو كان عبداً حبشياً كأن رأسه زبيبة[٥] ما دام مسلماً مصلياً.

(١) البخاري: (٣٧٤٢).
(٢) البخاري: (٣٣٤٣).
(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٦.
(٤) سيرة ابن هشام: ١/ ٤٢٤.
(٥) البخاري: (٦٥٢).

أما الذين بشروا بالفتن ويكثرون من ذكرها فلا بد أن يعرفوا أن هذه الفتن ما هي إلا استثناءات يخرج الإسلام بعدها أقوى وأمضى؛ فقد خرج من الفتن الكبرى وأقام أعظم دولة فتحت مشارق الأرض ومغاربها وعاشت ما يقرب من قرن بينما كانت الفتنة ست سنوات فقط

إن الخطأ في إدراك حقيقة النصر وأن هناك فرقاً بين نصر الفرد ونصر الدعوة هو السبب في تسرُّب اليأس والتذمر والشكوك إلى نفوس كثيرٍ من الشباب المسلم الذي كان ذات يوم كله تفاؤلاً وحماساً وحركة، وكان يفيض أملاً وثقة بمستقبل الإسلام وانتصار المسلمين وقيام الخلافة الراشدة كما أنه السبب في إخفاق وتعثُّرِ وفشل كثيرٍ من الحركات الإسلامية الدعوية.

وهذا الخطأ هو فهم الشباب أن النصر هو الوصول إلى السلطة ووصول قادة الجماعة ودعاتها إلى سدَّة الحكم. أو ما أشبه ذلك، وهو ما أدى إلى خطأ أخر هو الخلط بين الأهداف الغائية والأهداف المرحلية «المتغيرة»؛ فالهدف الغائي الثابت، هو «رضى الله والجنة». والأهداف المرحلية المتغيرة التي هي وسيلة الوصول إلى الهدف الغائي؛ لأن الدنيا كلها وسيله للآخرة. وهذه لفتة لطيفة مهمة للعباد الذين يجعلون العبادة غاية أو لبعض طلاب العلم الذين يجعلون العلم غاية أو لطلاب الدنيا الذين يجعلون الدنيا غاية وللحزبيين الذين يجعلون الوصول للسلطة غاية، حتى يعرفوا أهمية التوازن في حياة الإنسان المسلم فيؤدون لكل ذي حق حقه؛ لذلك كان من اللازم بيان حقيقة النصر.

إن النصر حتميٌّ في اعتقاد كل مسلم موحِّد، ولكن هذا النصر له شروط وأسباب لا يمكن أن أن يتحقق بدونها.

العلاقة بين مهمَّة الداعية وصفاته

نور الدين سكحال

إن كل مهمة - بحسب طبيعتها - تقتضي للنجاح فيها، أن يكون القائم بها متَّصفاً بمواصفات، أو مؤهَّلا بمؤهِّلات تمكِّنه من القيام بها على أكمل وجه.

فالعلاقة وطيدة بين المهمَّة ونوعية المؤهِّلات التي تقتضيها، ولذلك فقد يصلح شخص مًا للقيام بمهمَّة معينة، ولا يصلح لمهمَّة أخرى؛ وقد ينجح في مهمة تربوية تعليمية، ولا ينجح في مهمة إدارية.

ومن النصوص القرآنية التي نؤصل بها للعلاقة بين المهمة والمؤهلات، آيات من سورة البقرة، نقلت لنا النقاش الذي دار بين ملأٍ من بني إسرائيل من بعد موسى - عليه السلام - ونبيٍّ بعثه الله إليهم؛ حيث طلبوا منه أن يجعل عليهم مَلِكاً، يقودهم في قتالهم ضد أعدائهم، فأخبرهم أن الله - عزوجل - اختار لهم طالوت ملكاً، فتعجبوا من تعيينه ملكاً عليهم، رغم أنه لا يملك المؤهلات لهذا المنصب الخطير في نظرهم، والتي تتمثل - أساساً - في أن يكون من أكثرهم ثروة ومالاً، فأخبرهم نبيُّهم أن المهمة المنوطة به تقتضي مؤهلات ذات صلة بها؛ فالقائد العسكري يُشتَرط فيه أن تكون له دراية بفنون القتال، وقدرات بدنية كبيرة، واتِّصاف ببعض الصفات اللازمة لهذه المهمة، ولا علاقة للنجاح في هذه المهمة بكونه غنياً أو فقيراً.

وقد سجل القرآن الكريم لنا هذا النقاش بين بني إسرائيل ونبيِّهم في قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا من دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٦ - ٢٤٧].

وإلى هذه العلاقة بين المهمة، وما تقتضيه من مواصفات ومؤهلات، أشار يوسف - عليه السلام - حين طلب من الملك أن يولِّيه خزائن الأرض، فركَّز على صفتين أساسيتين لا بد منهما للنجاح في القيام بهذه المهمة، وهما: الأمانة والعلم، ذكرهما القرآن على لسانه - عليه السلام - في قوله - تعالى -: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. [يوسف: ٥٥]

لقد حرصنا على بيان هذا المعنى، وإيراد الشواهد عليه، رغم ما يبدو للناظر لأول وهلة أنه واضح لا يحتاج إلى بيان واستدلال، بسبب ما يلاحظه الدارس لكتب فقه الدعوة عند طَرْقها لموضوع صفات الداعية، من غفلةٍ عن العلاقة الموجودة بين صفات الداعية والمهمة التي هو مكلَّف بها، واكتفاءٍ بسرد مجموعة كبيرة من الصفات تمثِّل صفات المؤمنين عامة وليست صفات خاصةً يتميَّز بها رجل الدعوة؛ حيث نجدهم يسهبون في الحديث عن صفاتٍ من مثل: العلم، الإخلاص، الصبر... وغيرها من الصفات التي يُكتفى في الغالب بتناولها تناولاً عاماً، بعيداً عن ربطها بمهام محدَّدة يقوم بها رجل الدعوة.

كما حرصنا على بيان هذا الأمر؛ لما يلاحظه المتابع لواقع العمل الدعوي، من عدم مراعاة بعض الدعاة للمؤهلات التي تقتضيها بعض المهام التي يتقدمون إليها، واعتقادهم أن نجاح الواحد منهم

في ميدان الخطابة، أو كسبَه لقدرة التأثير بكلامه، تجعله مؤهَّلاً للنجاح في ميادين أخرى للعمل الدعوي، تقتضي مهارات فنية وتخصُّصية أخرى تتجاوز مهارة الحديث الجيد إلى الناس.

وفي تقديرنا أن التناول السليم لموضوع صفات الداعية ينبغي أن يُستحضَر فيه المهمة الدقيقة للداعية، والربط المحكم بين هذه المهمة وما تقتضيه من صفات ومؤهلات.

والمعلوم أن مهمة الداعية تتمثل في القيام بوظائف ثلاث: البلاغ، والتزكية، والتنفيذ. وكلٌّ وظيفة من هذه الوظائف تحتاج إلى نوع خاص من الكفاءات أو المؤهلات أو الصفات، يَبْعُد أن تتوفر في شخص واحد مهما كانت قدراته ومهاراته باستثناء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بل إنَّ من الأنبياء - عليهم السلام - من كان يرى عدم امتلاكه بعض المؤهلات التي تقتضيها وظيفة من وظائف دعوته، فسأل الله أن يعينه بمن يملك مؤهلات قوية ذات صلة بتلك الوظيفة؛ فهذا موسى - عليه السلام - يسأل ربه أن يشدَّ أزره بأخيه هارون لما يمتلكه من قدرة عالية على البيان يرى - عليه السلام - أنه لا يمتلكها، كما يدل على ذلك قوله - تعالى - على لسانه: ﴿ **وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ** ﴾ [**القصص**: ٣٤].

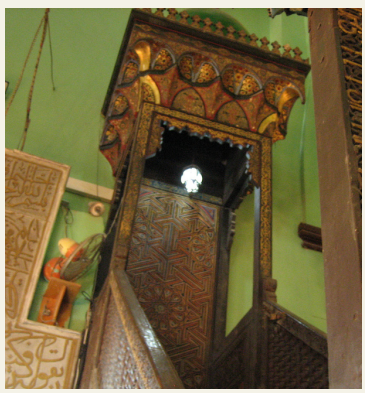

قد يقول القائل: ألم يكن هارون - عليه السلام - أوْلى من موسى - عليه السلام - بالرسالة باعتبار فصاحته وبيانه؟ والجواب: أن الوظيفة الأساسية التي اصطُفي موسى - عليه السلام - للقيام بها، والمتمثِّلة في إنقاذ بني إسرائيل وقيادتهم، كانت تقتضي مواصفات تتجاوز حدود القدرة على البيان، ويمكن أن نفهم ذلك بالتأمُّل في عدم استطاعة هارون - عليه السلام - التحكُّم في بني إسرائيل عند ذهاب موسى إلى لقاء ربه، وتمكُّن السامري من إضلالهم.

وفي موقف آخر يسعى موسى (النبي) - عليه السلام - إلى (الرجل الصالح) الذي آتاه الله من لدنه علماً؛ ليكتسب نوعاً من العلم والنظر كان في أمسِّ الحاجة إليه للنجاح في دعوته، فبحث عنه حتى وصل إليه، وقَبِل أن يضع نفسه منه - وهو النبي المصطفى من الله عز وجل - موضع التلميذ من أستاذه، ويقبل جميع شروطه ليقبل الرجل الصالح تتلمُذَه على يديه، كما يؤكد ذلك قول الله - تعالى -: ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ [**الكهف**: ٦٦].

ونستطيع أن نستشف من الآيات التي سجلت لنا مواقف موسى - عليه السلام - مع هذا الرجل الصالح أنه على الداعية العناية بعلم النظر في تقدير الأعمال إلى المآلات التي تؤول إليها الأمور، وعدم الاكتفاء بالنظر إلى معطيات الحاضر.

وفي تربية رسول الله ﷺ لأصحابه، وفي إفادتهم من مهاراتهم في خدمة الدعوة والمجتمع، ما ينبِّهنا إلى مراعاته ﷺ لما تقتضيه المهام المختلفة من مؤهلات؛ فكان في كل موقف، وإزاء كل مهمة يقدِّم من أصحابه مَنْ يمتلك المؤهلات المناسبة لتلك المهمة.

وكمثال على ذلك يمكن أن نذكر تقديمه لخالد بن الوليد - وهو ممن تأخَّر إسلامهم - في قيادة جيش المسلمين، بسبب حنكته ومهاراته القتالية، ورفضَه تولية أبي ذر - وهو من السابقين الأولين - الإمارة، مع طلبه لها، وقوله له ﷺ بكل صراحة وصدق: «يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة».

وخلاصة ما نريد قوله: إن صفات الداعية ومؤهلاته لا يمكن أن تُتَناول كموضوع نظري، بعيداً عن الوظائف التي يُطلَب من الداعية القيام بها؛ فللدعوة في كلِّ وظيفة من وظائفها الثلاث مؤهلات ينبغي أن تتوفر في المتقدم للقيام بها:

فلوظيفة البلاغ حين تكون خطابة، مؤهلاتها: من حدٍّ أدنى من المعارف الشرعية والعامة، وفصاحة، وبيانٍ، وحين تكون عملاً إعلامياً أيضاً لها مواصفات فنية أخرى لازمة للنجاح في هذا الميدان.

وللتربية - كوظيفة ثانية من وظائف الدعوة - مؤهلاتها الخاصة؛ معرفية كانت أم روحية أم نفسية وأخلاقية.

كما أن وظيفة التنفيذ في ميادينها الكثيرة تتطلب مؤهلات مناسبة لهذه الوظيفة ولتلك الميادين.

وحين ننظر إلى موضوع صفات الداعية من هذه الزاوية، فإننا سنتنبَّه إلى صفات أساسية مهمة، يغفل عنها كثير ممن كتبوا في الموضوع؛ لأن تصورهم للدعوة لم يتجاوز حدود مهمة البلاغ.

محاسبة النفس بعرضها على كتاب الله (عز وجل)

د. توفيق علي زبادي(*)

(عادَةُ الْقُرْآن إِذَا ذُكِرَ الْكِتَاب المشْتَمِل عَلَى عَمَل الْعَبْد حَيْثُ يُعْرَض يَوْم الْقِيَامَة، أَرْدَفَهُ بِذِكْرِ الْكِتَاب الْمُشْتَمِل عَلَى الْأَحْكَام الدِّينِيَّة فِي الدُّنْيَا الَّتِي تَنْشَأ عَنْهَا الْمُحَاسَبَة عَمَلًا وَتَرْكاً)(١).

قال ابن منظور: (الحساب والمحاسبة: عدُّك الشيءَ، وحَسَب الشيءِ يحسُبُه، بالضَّمِّ، حَسْباً وحِساباً وحِسَابة: عدَّه. وحاسَبَه: من المحاسبة)(٢).

محاسبة النفس اصطلاحاً:

قال الإمام الماوردي: (محاسبة النفس: أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره؛ فإن كان محموداً أمضاه وأَتْبَعَه بما شاكَلَه وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل)(٣).

أدلة الجمع بين كتاب العبد، وكتاب الرب، جل وعلا:

يقول – تعالى –: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] إلى قوله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤]؛ فذكر كتاب العبد، وذكر كتاب الرب الذي يجب علينا عَرْضُ أعمالنا عليه، ويقول – سبحانه –: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [الإسراء: ٧١] إلى

(*) عضو هيئة التدريس بالمركز العلمي الأول.

(١) الإتقان: ١/ ٣٦٠، والفتح لابن حجر: ١٤/ ٦٨.

(٢) لسان العرب: مادة (حسب).

(٣) أدب الدنيا والدين: (ص٣٤٢).

قوله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، ويقول – تعالى – أيضاً: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق: ٧] إلى قوله – تعالى –: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢١].

منهج السلف في عرض أنفسهم على كتاب الله، عز وجل:

قال مالك بن دينار – رحمه الله –: (رحم الله عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم زمَّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله – عز وجل – فكان لها قائداً)[1]. وقال الحسن البصري – رحمه الله –: (رحم الله امرءاً عرض نفسه وعمله على كتاب الله؛ فإن وافق كتاب الله حَمِد اللهَ وسأله المزيد، وإن خالف أعتب نفسه ورجع من قريب)[2].

وقد كان السلف ينصحون الخلفاء بعرض أنفسهم على كتاب الله – تعالى – فقد روي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني: ليت شعري ما لنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله؛ فإنك تعلم ما لك عند الله. قال: فأين أجد في كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ – ١٤]. قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦][3].

من صور محاسبة النفس بهذه المنهجية:

أولاً: تمثيل النفس في مكان أهل الجنة أو مكان أهل النار:

قال إبراهيم التيميُّ – رحمه الله –: (مثَّلت نفسي في الجنَّة آكلُ من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها. ثم مثَّلت نفسي في النار آكل من زقُّومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أَيْ نفسي! أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدَّ إلى الدنيا فأعملَ صالحاً. قال: قلت: فأنت في الأُمنيَّة، فاعملي)[4].

ثانياً: عَرْضُ الأعمال على أعمال أهل الجنة وأهل النار:

قال الأحنف بن قيس – رحمه الله –: (عرضت عملي على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]. وعرضت عملي على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذِّبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت. فوجدنا خيرنا منزلة قوماً: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢])[5].

ثانياً: العرض باتهام النفس دون أن تصل إلى اليأس من الإصلاح:

قال بعض السلف: (والله! ما عرضت نفسي على كتاب الله إلا اتهمتها بالنفاق).

وهذه العادة تَعرِض لنا منهجاً تربوياً فريداً في محاسبة النفس؛ حيث يقوم العبد بعرض أعماله على كتاب الله – تعالى – ليرى أين هو من صفات المؤمنين؟ وأين هو من صفات المتقين؟ وأين هو صفات أهل الجنان؟ وتكون نتيجة هذا العرض على كتاب الله:

أولاً: توفيق الله للعبد بقيامه بأعمالٍ من أعمال أهل الجنة؛ فيشكر الله، ويطلب منه الثبات على ذلك والزيادة؛ لأن الوصول إلى الله ليس له منتهى، وهذه درجة عظيمة لا يبلغها إلا من اصطفاه الله واجتباه.

ثانياً: الوقوف على تقصير العبد في جنب الله؛ فيتدارك العبد التقصير بطلب المغفرة وطلب العون على استدراك ما فات. والشعور بالتقصير هو منهج الصالحين.

ثالثاً: أن يكون العبد ممن خَلَط عملاً صالحاً، وآخر سيئاً. وهذه الدرجة يدخل فيها كثير من المؤمنين، نسأل الله أن يعفو عنَّا برحمته.

وميزة هذه المنهجية: أن الميزان الذي يزن به العبد نفسه عليه ميزانٌ ثابت لا يتغير.

ضوابط في تطبيق هذه المنهجية:

١ – مصاحبة القرآن: بمعنى أن يَأْلَف قراءته، وأن يكون له مثل الصاحب الصالح الذي لا ينفك عن صاحبه؛ بحيث يكون للعبد وِرْدٌ يوميٌّ لقراءة القرآن وتدبُّره.

٢ – أن يكون للعبد دفتر لتسجيل صفات أهل الجنة، ثم يعرض نفسه على هذه الصفات واستدراك جوانب الضعف.

٣ – الصدق مع النفس حين العرض، واتهامها ومقتها في الله.

نسأل الله – تعالى – القبول الحَسَن، وأن يوفقنا ويسدِّدنا في تطبيق هذه المنهجية القرآنية.

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا، (ص ٢٦)، وإغاثة اللهفان لابن القيم، (ص٩٦).
(٢) أخلاق أهل القرآن للآجري: (ص٣٩).
(٣) البغوي: ٨/ ٣٥٧.
(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا، (ص٣٤)
(٥) تفسير القرطبي: ١٧/ ٣٨.

شبابنا والثقافة

عبد الخالق حسن الشريف(*)

لماذا الشباب؟

لأنه قوة الأمم في حاضرها ومستقبلها، وكما قيل: يا معشر الشباب اعملوا! فإني رأيت العمل في الشباب هو القوة؛ فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملؤه في أوَّله. هذه حقيقة نراها وكأنها تصف لنا الإنسان وتبيِّن أحواله وما يمر به: الشمس تبدأ أشعتها أول اليوم ضعيفة كإنسان في طفولته، فإذا انتصف اليوم اشتدت أشعتها كحال الشباب، ومع الغروب صارت كشيخ أوشك على الرحيل فضعفت أشعتها كما يضعف بنيان جسد الشيخ، ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى بقوله - تعالى -: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

ولقد بيَّن رسول الله ﷺ أهمية النشأة الصحيحة للشباب وفضلَها، فقال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «شاب نشأ في عبادة ربه»(١).

حقيقة المرحلة الشبابية:

المرحلة الشبابية هي فترة ما بين الصِّبا أو الطفولة وبين بلوغ الأشُد، وهي تتكون من المراهقة وبلوغ السعي، وهي أيضاً مرحله تحدث فيها تغيرات كثيرة، منها: البلوغ، وظهور الشخصية وتكوينها وسعي الإنسان لكي يتعامل مع المحيطين به على أنه رجل وأن يتوقفوا عن معاملته على أنه صغير، ويبدأ في هذه المرحلة

(*) مفكر وداعية إسلامي من مصر، ومدير مركز منارات للدراسات الشرعية.

(١) أخرجه البخاري.

السعي نحو تكوين الصداقة.

وفي هذه المرحلة تظهر تغيُّرات وقدرات كبيرة لدى الشباب: بدنية وجسدية وفكرية وسلوكية ونفسية وتديُّنية. وهذه القدرات الهائلة التي تنمو وتزداد سريعاً في فترة الشباب تتأثر كثيراً بالثقافة التي تسيطر عليها والعادات والتقاليد والبيئة التي ينمو فيها الشاب؛ لذا كان من الضرورة بمكان أن نهتم بعلاقة الشباب بالثقافة.

ما الثقافة؟

١ - طالما أن موضوع هذه المقالة هو الشباب والثقافة فلا بد من تعريف الثقافة حتى يمكننا تحديد المطلوب وما نهدف إليه، وفي الواقع فإن تعريف الثقافة من أعقد التعريفات، فالدكتور محمد عمارة يعرِّفها بأنها: «جماع المهارات التي تثمر عمران النفس الإنسانية وتسهم في تهذيبها وارتقائها على درب المُثُل والمقاصد والنماذج التي صاغتها وتصوغها العقائد والفلسفات التي يؤمن بها هذا الإنسان.

وبذلك نلاحظ اتساع دائرة مفهوم الثقافة حتى كأنها الهواء المعرفي والسلوكي، والمهني والبيئي، والشعوري وغير الشعوري، والخلقي والاجتماعي، والمتوارث والمكتسب والتراكمي. أقول: كأنها الهواء الذي يحوي هذا كله فيستنشقه الإنسان مع صفاته وأوصافه الشخصية فنراه على الحال التي تظهر لنا ويمكن تقسيم الثقافة من حيث الاتساعُ فنجد أن هناك:

- ثقافة بيئية محدودة تتميز بها كل مجموعة متقاربة من الناس يعيشون في مكان واحد.
- ثقافة عربية أو إسلامية، وهي التي تتصف بصفات عامة مستمَدة من البيئة العربية أو الإسلامية.
- ثقافة العولمة، وهي الآخذة في الانتشار السريع وراحت تفرض نفسها نتيجة للسماء المفتوحة لنقل المعلومات والسلوكيات من خلال القنوات الفضائية والشبكة الإلكترونية، ولم تؤثر هذه الثقافة في الجانب الأخلاقي فقط بل في النمط الاقتصادي والترفيهي كذلك، ونمط الملابس في كثير من بلدان العالم.

كيف تتكون الثقافة؟

باختصار، فإن الثقافة تتكون من كل ما يحيط بالإنسان: من بيئةٍ، وأهلٍ، وسماعٍ، ورؤى، وخبرات في الحياة مندمجةٍ مع صفاته وسلوكياته؛ ولذلك فإن قدرتنا على توجيه وتنقية مدخلات الثقافة هامة جداً؛ لإيجاد السلوك الصحيح للإنسان، خاصة في زمن هذا الصراع الذي نعيش فيه.

الإسلام دين ثقافة متكاملة:

ولعلنا لا نجد ثقافة متكاملة في مجالاتها المختلفة، وحقائقها العالية، تتعامل مع أطوار الإنسان، وتراعي بيئته، وتسمو بأخلاقه، وتعالج أمراضه، وترتقي بسلوكه، وغير ذلك من أوصافٍ أخرى عالية، إلا في الإسلام؛ وذلك لخصائصَ تميَّز بها: من الربانية والشمول والواقعية والمرونة؛ فهو يتعامل مع الإنسان باعتباره روحاً ومادةً، ويشرِّع له ما يناسبه في كل أحواله (فرداً ومجتمعاً ودولة).

الثقافة الإسلامية:

في وسط الثقافات المختلفة التي تموج في هذه الحياة الدنيا، تقف الثقافة الإسلامية شامخة الرأس في حقيقتها وواقعها؛ فهي تشتمل على الجوانب الإيمانية والتعبدية في مجال المعاملات في الحياة كلها وفي الجانب الأخلاقي؛ فمثلاً لو لم ينزل من القرآن في الجانب الأخلاقي سوى قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩٠ - ٩١]، لكان في ذلك كفاية؛ فهي جامعةٌ لأُسس الخير: (العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والوفاء بالعهد) محذرةٌ من جوانب الشر: (الفحشاء، والمنكر، والبغي، ونقض الأيمان). وكذلك الجانب التعبدي الذي يشتمل على الصلاة والزكاة والصوم والحج، وكذلك الدعاء والتفكر والذكر ومراقبة الله في كل الأمور: من الأنكحة والبيوع وطلب العلم... وغير ذلك.

ثم تأتي أهم الأسئلة:

- ما هو دور البيئة في ثقافة الشباب ومدى التزام هذه البيئة بالأمور الشرعية؟
- ما مدى تأثُّر شبابنا بالثقافات الواردة من الخارج من خلال السماء المفتوحة (قنوات فضائية، إنترنت)، وكذلك من خلال الأسفار؟
- ما مدى تأثُّر شبابنا بما يستهدفه أعداء الأمة من إشاعة المخدرات وما يلحق بها؛ لهدم قوة الأمة من خلال هدم الشباب؟

إن هذه الأسئلة تعطينا صورة عامة للحال الذي نحن فيه، ومن ثَمَّ يمكننا تحديد المستهدَف الذي نتمناه، ويترتب

على ذلك وضع صورة صحيحة لأسلوب التعامل مع الشباب؛ لتحقيق الهدف السامي المرجو لأمتنا.

نظرة عامة إلى الثقافة المنتشرة في أمتنا:

إننا إذا نظرنا إلى عموم المجتمع العربي والإسلامي سنجد ثقافات وعادات وسلوكيات تنافي الإسلام في جميع المجالات. ولسنا هنا في مقام الحصر ولكن نضرب الأمثلة:

في مجال العقيدة:

نجد في معظم الدول الإسلامية - إلا ما رحم ربي - انتشارَ ظاهرة سؤال المقبورين والطواف حول قبورهم والنذر لها واعتقاد أنهم يعينون في أمر النفع وجَلْب الخير، ومثل هذه الأمور منافية لحقيقة التوحيد.

في مجال التشريع:

ترى العداء السافر للشريعة الإسلامية؛ من حيث إنها مصدر التشريع ومن حيث ما يُسَنّ من قوانين في معظم البلدان إلا ما رحم ربي؛ فهم يجعلون من القوانين الفرنسية أو الإنجليزية المصدر الأساسي لسنِّ القوانين، كما نرى الجرأة الشديدة في بعض البلدان مثل:

- قوانين تحريم تعدد الزوجات.
- جعل ميراث المرأة كالرجل.
- قوانين تبيح (الربا)، بل تُلزِم بها.

بالإضافة إلى الحريات الضائعة والكرامة المهدرة وغير ذلك من أمور تخالف الشريعة الإسلامية.

في مجال السلوكيات والعلاقات الاجتماعية:

ظهرت سلوكيات لم تكن الأمة الإسلامية تعرفها من قبل، مثل: سفور النساء، والاختلاط الفاسد، وعقوق الوالدين، وزنا المحارم، وانتشار الفاحشة، والعلاقات المحرمة، وضعف صلة الأرحام، وأصبح الاحترام له علَّته المصلحية، وشكلاً لا تأثير له في النفوس، وإضاعة الوقت على المقاهي وغيرها، بل ظهر التعصب لأمور باطلة ولعل ما حدث بين مصر والجزائر بسبب لعبة كرة القدم يكشف عن مدى التعصب الجاهلي الذي أصاب أجزاءً من أمتنا.

في مجال العبادات:

قلَّ رواد المساجد، وأصبح بعض الناس - خاصة في المدن الكبرى - يجهر بالفطر في رمضان، وشحَّت أيدي الأغنياء عن مساعدة الفقراء.

في مجال المعاملات:

ظهر الكثير من المفاسد في العلاقات الأسرية، وكثر الطلاق، وسوء معاملة الآباء للأبناء (خاصة البنات)، بل بلغ أيضاً حدَّ منعِهن من الزواج من أجل مظاهر لا قيمة لها، وبعيداً عن مراعاة حاجة الفتاة إلى زوج تَسعَد معه.

وهبطت روح الجهاد في الأمة، وضعف الإحساس بالمجاهدين.

وأخطر ما نراه:

غلبة الحياة المادية على المجتمع كله وعلى الشباب خاصة؛ حتى أصبح (موديل) السيارة، والموبايل أمراً أساسياً في معرفة قيمة الفرد، وصار المظهر لا المخبر هو الجاذب والهدف، وسعى المجتمع لذلك ولو على حساب كثير من القيم والمبادئ.

الصورة ليست قاتمة:

ولكن وسط هذا كله نجد أملاً في بعض القنوات الفضائية ذات التوجه الإسلامي، وانتشار الجمعيات الخيرية الإسلامية، واتساع نطاق المحجبات وغير ذلك من مظاهر التمسك بالإسلام.

قضية فلسطين:

وإذا أخذنا قضية فلسطين مقياساً لمدى ثقافة الشباب فسنجد عجباً في هذا الأمر؛ فرغم الإعلام المدوي لهذه المسألة، ورغم شدتها وشدة آلامها ترى الآتي:

- انتشار عدم المبالاة بين الشباب في أخطر قضايا الأمة، وهي فلسطين.
- معرفة الكثير من الشباب للاعبي الكرة في دولته أو غيرها أكثر من معرفته بحقائق بيت المقدس وتاريخه، وأرض فلسطين وقادتها وشهدائها.
- عدم الإيجابية أو التفاعل مع هذه القضية الخطرة.

الشباب والثقافة: مشاكل وحلول:

ولعل المدرسة أو الجامعة والمنزل ووسائل الإعلام لها دور كبير في نشر الثقافة بنوعيها: الفاسدة والصالحة، ولو قامت كل مؤسسة بدورها المطلوب، وحدَّثت من وسائلها وصارت جاذبة موجِّهة مقنعة لكان لها أثر كبير، كذلك الدولة والمنظمات العربية والإسلامية.

إننا عندما نلحظ الآثار الإيجابية الناتجة عن بعض هذه المؤسسات سوف نشعر بكثير من الأمل، خاصة مع السماء المفتوحة والعالم الذي أصبح كقرية واحدة. وأملنا كبير أن يردَّ الله مجتمعنا وشبابنا إليه رداً جميلاً.

والله من وراء القصد.

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤتمر الطب النبوي الثاني بمستشفى أبها الخاص

تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن خالد بن عبدالعزيز ال سعود أمير منطقة عسير (حفظه الله) ينظم المؤتمر الثاني للطب النبوي التطبيقي والذي سوف تبدأ فعالياته بحول الله للفترة من (١٨ ـ ١٤٣١/٦/٢٠هـ الموافق ١ ـ ٣ ـ /٦/٢٠١٠م) والمنفذ من قبل مستشفى أبها الخاص بالاشتراك مع الشئون الصحية للحرس الوطني وبمشاركة جامعة الملك خالد وأوضح فضيلة الشيخ /عبدالله بن عبدالمحسن الثميري رئيس مجلس إدارة مستشفى أبها الخاص (رئيس المؤتمر) أن عقد المؤتمر الدولي الثاني للطب النبوي التطبيقي جاء وفق الأهداف والتي يتطلع منها إلى الخروج بتوصيات ترسخ ثوابت السنة النبوية والبراهين التي ثبتت لدى بعض من الباحثين في الطب الحديث ومقارنة ذلك في مجال الطب النبوي وضبط نصوص الأحاديث النبوية المستشهد بها في الأبحاث سيما وانه المؤتمر الثاني حيث عقد الأول في عام ١٤٢٩هـ وأوضح فضيلته أن ذلك يعتبر من أهم الأعمال التي تقدمها إدارة مستشفى أبها الخاص للقطاع الصحي بصفة خاصة والمجتمع بصفة عامه مؤكداً أن أي مساهمة تعمل في خدمة الوطن فهي تعتبر مكسباً وشرفاً لمن أداها في خدمة دينه ووطنه وولاة الأمر مثمناً فضيلته لسمو أمير منطقة عسير جزيل الشكر والعرفان والتقدير على موافقة سموه الكريم على رعايته وافتتاح فعاليات المؤتمر وهذه المناسبة من المناسبات والتي تسجل بحروف من ذهب في سجل مستشفى أبها الخاص ويتطلع كل منسوبي المستشفى إلى لقاء سموه الكريم في هذه المناسبة السعيدة متمنياً فضيلته طيب الإقامة في ربوع عسير للمتحدثين والمشاركين وكذلك ضيوف المؤتمر من خارج المملكة وداخلها متطلعاً إلى تحقيق الآمال والتطلعات راجياً من الله العالي القدير أن يوفق كل عامل لخدمة هذا الوطن المعطاء.

رسالتنا

نحن ملتزمون بتقديم خدمات صحية متطورة وآمنة في مختلف التخصصات الطبية لتحقيق إحتياجات ورغبات مراجعينا بكل مصداقية وإخلاص

Mission

we are committed to present developed and safe medical services in different specialities to satisfy the needs and requirement of our customers with total honesty & creditibility

* * *

رؤيتنا

نسعى لأن نكون رواداً في تقديم رعاية طبية عالية الجودة

Vision

We are striving to be pionneers in providing high quality medical care

103600100

أبها - هاتف : ٢٢٩٢٢٢٢ - ٣٠ خط - فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ - ٢٢٤١٢٦٠ - ص.ب : ١٧٩٤ موقعنا على الإنترنت www.aph.med.sa البريد الإلكتروني info@aph.med.sa
Abha – Tel : 2292222 – 30 Line – Fax : 2244801 - P.O.Box 1794 Website : www.aph.med.sa E.Mail : info@aph.med.sa

طفليَ الجميلُ

د. حبيب بن معلا المطيري

إلى وميض السعادة المشرق في دنيا الناس، إلى مستقبل الأمة واستثمارها الحقيقي... إلى الطفل في موسمه الثقافي:

طفلي... وتُشْرَعُ للسّنا الأبوابُ ... وتُمَدُّ في دَرْب المُنَى الأسبابُ
طفلي... وتَنتَفِضُ المشاعر في دمي ... وردا يَميسُ... وعِطْرُهُ ينسابُ
طفلي الجميلُ: أيَا حكايةَ بَهْجَتي! ... لي في مداك ترحُّلٌ وإيابُ
عيناك تُشْعِلُ للنهارِ شُمُوسَهُ ... وبِعِطْرِ وَجْهِك تُنثَرُ الأطيابُ
في لَثْغِ حَرْفِك روعةٌ مكنونةٌ ... وبها البَيَانُ قصيدةٌ وكتابُ
نظراتُكَ النجلاءُ أجْمَلُ لوحةٍ ... رَسَمتْ تُترْجِمُ كُنهَهَا الأهدابُ
سرُّ البراءةِ في حياتِك قصةٌ ... عَذُبَتْ فرفَّ جمالُها الخلّابُ
لكَ يا صغيري! في الفُؤَاد مَشَاعرٌ ... القلبُ فيها ظاعنٌ جوّابُ
فلئن ضحِكْتَ تبسّم الكون الذي ... في خافقي، وتجمّعَ الأحبابُ
ولئن بَكَيْتَ سَرَتْ بصدري غُصّة ... تجتاحُهُ، ودهتْنِيَ الأوصابُ
سرُّ السعادةِ أنتَ يا طفلي هنا ... ولأنت في دَرْب الهجيرِ سحابُ
ولأنت في دنياي واحةُ أُنْسِها ... وسكونُها وهديرُها الصَّخّابُ

* * *

معنى الطفولةِ في الحياة بهاؤها ... وضياؤها ونميرُها المنْسابُ
الطفلُ في هذي الحياة قصيدةٌ ... عربيةٌ تَزْهو بِهَا الآدابُ
الطفلُ في لغةِ المشاعرِ همسةٌ ... ورديةٌ فيها الأوائلُ ذابُوا
الطفل في دَرْب الحضارةِ شعلةٌ ... في الأُفْقِ يَحْمِلُها السَّنا الوثّابُ
الطفلُ شِبْلُ اليوم... ليثٌ في غدٍ ... ستظلُ تشهدُ فَتْكَتَيْه هضابُ

* * *

سارت بطفل اليوم عزمةُ مَعشرٍ ... طابَتْ بِهِمْ دنيا العلوم وطابوا
في موسمٍ للطفل يُرْسَمُ منهجٌ ... فيه تألّقَ مَحْفلٌ وخطابُ
نَسَجَتْ سُداهُ سواعِدٌ مَرْضيّةٌ ... وكَسَتْهُ من حُلَلِ الرِّضا أثوابُ
اليوم يبدأ موسم الطفل الذي ... ضُرِبَتْ لخيمة حفله الأطنابُ

مكتبة طالب العلم ①

في ثوب جديد

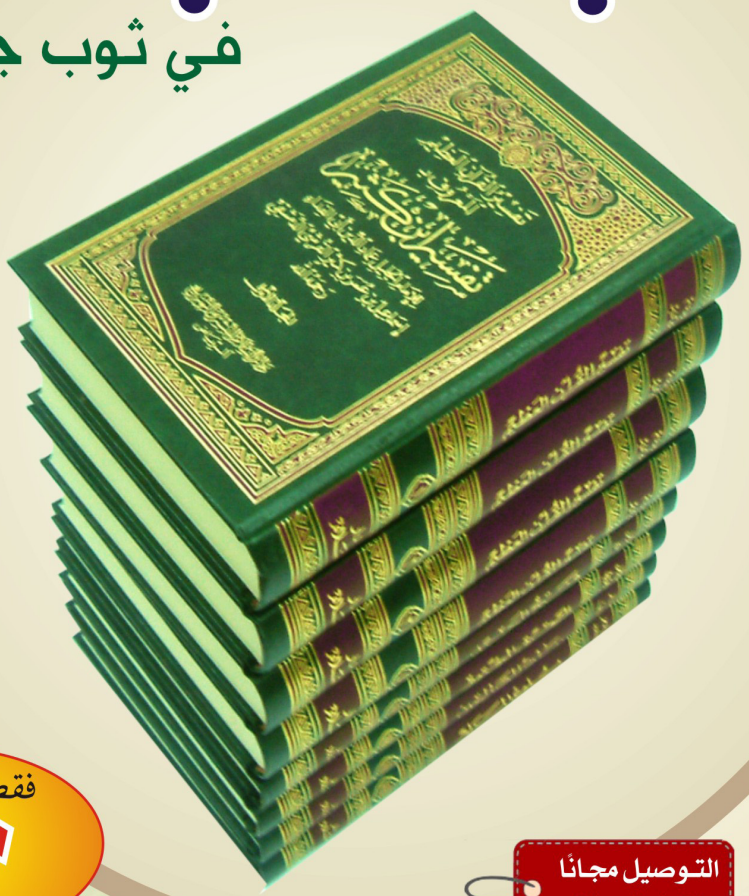

ورق شمواه فاخر
طباعة داخلي لونين
١٧x٢٤ سم

التوصيل مجانًا
داخل الرياض

فقط ١٥٠ ريالاً

- تفسير ابن كثير (٤ مجلدات)
- الرحيق المختوم
- رياض الصالحين
- فتح المجيد
- بلوغ المرام

المكتب الرئيسي الرياض: ٤٠٣٣٩٦٢ - ٤٠٤٣٤٣٢ -١- ٠٠٩٦٦ فاكس: ٤٠٢١٦٥٩ الفروع: العليا: ٤٦١٤٤٨٣ الملز: ٤٧٣٥٢٢٠
السويلم: ٢٨٦٠٤٢٢ جدة: ٦٨٧٩٢٥٤-٠٢ الخبر: ٨٦٩٢٩٠٠-٠٣ المدينة المنورة: ٨٢٣٤٤٤٦-٠٤ الشارقة: ٥٦٣٢٦٢٣ -٦-٠٠٩٧١
ينبع البحر/تبوك: ٠٥٠٠٨٨٧٣٤١ القصيم: ٠٥٠٣٤١٧١٥٦ خميس مشيط: ٠٥٠٠٧١٠٣٢٨ الكويت : ٩٦٠٠٨٤٥
Email: darussalam@awalnet.net.sa Website: www.dar-us-salam.com

دار السلام للنشر والتوزيع
DARUSSALAM

التدين الفردي والتدين الجماعي

أ. د. جعفر شيخ إدريس
jsidris@gmail.com

يتكون المجتمع المسلم كما تتكون سائر المجتمعات البشرية من أفراد: هم فلانٌ وفلانٌ وفلان. لكن الله - تعالى - يريد لهؤلاء الأفراد أن يأتلفوا؛ لتتكون منهم جماعة، وأن يكونوا «أمة من دون الأمم»؛ ولهذا فإنه - سبحانه - كما شرع لهم شرائع يعملون بها باعتبارهم أفراداً، شرع لهم شرائع تجعل منهم جماعة ويعملون بها باعتبارهم أمة متميزة.

من الشرائع الفردية ما يلتزم به الإنسان حتى لو وجد نفسه وحيداً في جزيرة نائية؛ فهو يظل يؤمن بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، ويعمل بما استطاع من أركان الإسلام؛ فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيم الصلاة، ويصوم رمضان، بَيْدَ أنه لا يستطيع أن يؤتي زكاةً ولا أن يحج.

لكنَّ المسلم إذا وجد نفسه في جماعةٍ ازدادت واجباته الفردية؛ فهو يزكِّي مالَه، ويحج البيتَ إن استطاع إليه سبيلاً، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويفعل كلَّ ما شرع الله له بقدر استطاعته؛ فالله - تعالى - شرع للمسلمين شرائع جماعية يعملون بها كما يعملون بتلك الشرائع الفردية بقدر استطاعتهم.

وإن كثيراً من المتدينين في عصرنا - ولا سيما من تأثَّر منهم بالثقافة الغربية - صاروا يحصرون الدين في الشرائع الفردية ولا يهتمون كثيراً بالشرائع الجماعية؛ فترى الواحد منهم حريصاً على أداء الصلاة وحج بيت الله، بل تراه يسأل - مثلاً - عن تفاصيل نوافل الحج والعمرة ومكروهاتها، ثم تراه بعد ذلك غافلاً كل الغفلة عن كثير من الشرائع التي لا يكون المسلمون جماعة مسلمة إلا بها؛ فتراه غير مهتم بمدى إسلامية الحكم الذي تُحكَم به بلاده، ولا بمدى إسلامية الجماعة أو الحزب الذي ينتمي إليه، وترى كثيراً ممن يسكن منهم في ديار الغرب الديمقراطية فرحاً بجعلها له مواطناً كسائر المواطنين؛ يمكن أن ينافس فيها حتى على رئاسة الدولة، غافلاً عن أنه لا يكون رئيساً إلا باعتباره مسلماً يحصر دينه في حياته الخاصة. وأما الشرائع الجماعية فإنه لا يستطيع الالتزام بها؛ لأنها تتعارض مع دساتير الدولة العَلمانية وقوانينها وأعرافها وقيمها.

إن الواجب على المسلمين أن يكونوا جماعة وهم لا يكونون جماعة مسلمة إلا إذا عملوا بتلك الشرائع الجماعية.

وأول ما يجب على المسلمين ليكونوا جماعة مسلمة أن يكون لهم رأس يبايعونه على كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ. وقد عرف الصحابة الكرام خطورة هذا الأمر فاجتمعوا لاختيار خليفة يكون لهم رأساً ينتظم به أمرُهم حتى قبل أن يدفنوا رسولهم ﷺ؛ لقد عرفوا خطورة هذا الأمر بما علموا من أحاديث رسول الله ﷺ التي منها حديث ابن عمر - رضي الله

عنه – عن رسول الله ﷺ قوله: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية»[1]، والمقصود بالميتة الجاهلية أنها كميتة الجاهليين؛ (فإنهم لم يكن لهم إمام يجمعهم ولا جماعة تعصمهم؛ والله – تعالى – بعث محمداً ﷺ وهداهم به إلى الطاعة والجماعة)[2].

إذن فمن البدهي أنَّ رأس المسلمين يجب أن يكون واحداً منهم، وإذا حدث أن تأمَّر عليهم ثم طرأ عليه الكفر وكانوا قادرين على إزالته بالقوة وجب عليهم أن يزيلوه؛ فعن عبادة ابن الصامت – رضي الله عنه – قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشَط والمكرَه، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله – تعالى – فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[3]. فإذا لم يجز للمسلمين أن يستمروا تحت إمرة حاكم كان في بداية أمره مسلماً ثم طرأ عليه الكفر بعد مبايعته؛ فمن باب أَوْلَى أن لا يجوز لهم أن يُحكِّموا فيهم من كان في أصله كافراً.

لكننا نسمع في أيامنا هذه من يقول (باسم الإسلام): إن رأس الدولة المسلمة يمكن أن يكون شخصاً غير مسلم؛ ولذلك فلا بأس من أن يترشح للحصول على هذا المنصب.

إن من أغرب الحجج التي سمعتها لتسويغ هذه الدعوى أن هذا في الحقيقة لن يكون. لقد سمعت مثل هذا الكلام من سنين طويلة. وكنت أقول لإخواننا في الرد على مثل هذا التحايل: أإذا ظننت بإنسان ظناً حسناً وأنه لن يشرب الخمر مهما أُغرِي بشربها؛ فهل يجوز لك أن تقول: إنه يجوز له أن يشربها؟ إنك تكون بهذا القول كافراً؛ لأنك أبحت شيئاً حرَّمه الله، سواء علمت أنه سيقع أو لم تعلم. وكنت أقول لهم: لِمَ تظنون أن المسلمين لن ينتخبوا شخصاً غير مسلم؟ إنهم لا يفعلون ذلك لأنهم يعتقدون أنه أمر غير جائز، بل ربما عرف بعضهم أنه كفر؛ فإذا ما قلنا لهم باسم الإسلام: إن هذا الأمر جائز فما الذي يمنعهم من أن ينتخبوه، ولا سيما إذا زين لهم أنه ستكون في انتخابه مصالحُ دنيوية كرضا الدول الغربية عن بلدهم واستعدادها لمساعدتهم؟

إذا قلتَ للذين يدَّعون مثل هذه الدعاوى: إن رئيس جماعة سلفية يمكن أن يكون صوفياً مبتدعاً أو العكس، أو أن داعية إلى الشيوعية يمكن أن يكون رئيس حزب ديمقراطي سخروا من كلامك هذا وأنكروه، لكنهم لا ينكرون أن يكون رأس المسلمين غيرَ مسلم. أتدرون لماذا؟ لأنهم لا ينظرون إلى المسلمين باعتبارهم جماعة، بل يرونهم كوماً من الأفراد الذين لا رابطة تجمعهم إلا رابطة الوطن التي تجمع بينهم وبين سائر المواطنين من أصحاب العقائد الأخرى. لكنَّ هذا هو عين العَلمانية؛ فالذي ينكر العَلمانية ثم يقول: إن رأس المسلمين يمكن أن يكون غير مسلم يناقض نفسه.

إن الذي ينساه كثير من الناس هو أن العَلمانية لا تمنع مجالسها التشريعية من الأخذ ببعض التشريعات الدينية، إنما تمنع أن تُسَنَّ باعتبارها ديناً؛ فحتى لو سنَّت الدولة قوانين، مثل منع الربا أو شرائع الأحوال الشخصية فإن هذا وحده لا يخرجها عن عَلمانيتها؛ كما أنه لا يجعلها دولة مسلمة ما دام هذا الأخذ ليس مبنياً على مبدأ يُلْزِم الدولة بالإسلام وأن لا تخالف شيئاً من أحكامه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ثم إذا جاز أن يكون رأس الدولة غير مسلم، فمن باب أَوْلَى أن يجوز انتخاب غير المسلمين للمجالس التشريعية. لكن هذا سيؤكد كونَ الدولة دولة عَلمانية. إنه لا يمكن أن تكون الدولة إسلامية ويكون المشاركون في إصدار قوانينها غير مسلمين.

كيف يكون الأمر إذا كان في البلد مواطنون من غير المسلمين؟

إذا كان هؤلاء المواطنون أقليات ضئيلة موزعة في الوطن كله، فإنهم يعامَلون معامَلة الأقليات الإسلامية في البلاد الغربية العَلمانية؛ أعني: أنهم لا يُكرَهون على اعتناق الإسلام، لكنهم يخضعون للقانون العام لا بصفته ديناً، بل بصفته قانون البلاد.

وأما إذا كان عددهم كبيراً وكانت لهم أرض خاصة بهم، وكانوا ينتمون إلى معتقدات مختلفة كما هو الحال في السودان، فلا مانع من أن يخيَّروا بين أن يكون لهم حكمٌ ذاتيٌّ في نطاق الدولة الواحدة وبين أن ينفصلوا ويكوِّنوا دولتهم الخاصة بهم[4]؛ فإن الأمر معهم يكون بالتشاور والتخيير. فإذا أرادو الانفصال والعيش في بلدهم المستقل فلهم ذلك، وإن أرادوا أن يعيشوا مع المسلمين في وطن واحد ويكون لهم نوع من الحكم الذاتي فلهم ذلك إذا رأى المسلمون أنه لا يتضارب مع مصالحهم الدينية والدنيوية.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنة النبوية.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) من الأخطاء التي شاعت في وسائل الإعلام (الإسلامي منها وغير الإسلامي): أن غالبية المواطنين في جنوب السودان هم من النصارى، لكن الحقيقة أن غالبيتهم تنتمي إلى أديان محلية، وأن نسبة النصارى فيهم لا تزيد على نسبة المسلمين.

ويبقى الداء... ما بقي (الوهن)!

فهد بن صالح العجلان
fsalehajlan@hotmail.com

يميل بعض الإسلاميين الفضلاء إلى تصوير (تطبيق الشريعة) في النظام الإسلامي بما يتوافق مع كيفية تطبيق القوانين في النُّظُم السياسية المعاصرة؛ وذلك من خلال أن يتفق الناس باختيارهم على دستورٍ للحكم قد وافقت (أغلبيةُ) الناس على إدراج (الشريعة الإسلامية) ضمن موادِّ هذا الدستور؛ وهو ما يكفل عدم مخالفة أي قانون داخلي لنظام هذا الدستور.

ولو وقف الأمر عند هذا الحدِّ لأمكن إيجاد مخرجٍ لهذا التخريج يهوِّن فيه من أمر هذا الخلاف؛ غير أنَّ محاولة تكييف تطبيق الشريعة بما يتلاءم مع النظام الديمقراطي المعاصر جعل تطبيقَ الشريعة ليس إلا مادَّة من موادِّ الدستور يجري عليها ما يجري على أي مادَّة أخرى: من إمكانية الحذف والتعديل والتقييد، ومن كون المشروعية والقوَّة فيها تعتمد على كونها رغبة الناس وإرادتهم، لا على كونها شريعة من ربِّ العالمين.

ومن الصراحة المهمة التي لا بد أن يحتملها منَّا (إخوتنا الكرام) أن نقول: إنَّ مثل هذا التخريج هو من قبيل (لَيِّ) الشريعة، و(تطويع) أحكامها بما يجعلها متلائمة مع الثقافة الغربية المعاصرة. ولئن كان التطويع في زمنٍ مضى حاضراً بقوة في قضايا (المعجزات) و (الأمور الغيبية)؛ لتعارُضِها مع المنهج المادي الغربي فإن أعراض هذا الوهن قد انتقلت إلى جهة أخرى من خلال تطويع الأحكام الشرعية، بل الشريعة كلِّها بما يتوافق مع سطوة الثقافة الغربية المعاصرة في قضايا الحقوق والحريات المدنية.

إنَّ هذا التفسير - وإن صدر عن فضلاء - إلا أنه مناقض للشريعة ومعارض لأصولها؛ فليس لنا خِيار في تطبيق الإسلام حتى ننتظر رأي أقليَّة أو أكثرية فيه؛ فَمَن يرفض الإسلام خارجٌ عن دائرته، ولن تكون أحكام ديننا متوقفة على إرادته؛ وقد بذل الصحابة مهجَهم ودماءهم في سبيل فتح البلاد لنشر الإسلام، ولم تتوقف الفتوحات في يوم من الدهر لمعرفة رأي الناس، وهل يقبلون بدخول جيوش الإسلام أم لا؟ بل إن علماء الإسلام متفقون على أن الطائفة التي تمتنع عن حكم شرعي واحد فإنها تقاتَل حتى تلتزم بالإسلام[1]؛ فلم يكن لأي طائفة خِيار في تَرْك حُكْم شرعي واحد؛ ولو اتفقت عليه كلُّها، وسياق الدلائل الشرعية في بطلان هذا التصوُّر يطول.

إنَّ مثل هذا التخريج - وإن بدا متلائماً بعض الوقت، ومقنعاً لبعض المخالفين - إلا أنَّ له أثراً سلبياً بالِغَ السوء في إثخانه بالأحكام الشرعيَّة وتهوين قدرها في قلوب المسلمين، وذلك من جهات عديدة، من أبرزها:

أولاً: أن الشريعة حين تحكم الناس على هذا التفسير، فليس لكونها شريعة من ربِّ العالمين وإرادة من الحيِّ القيوم، وإنما مستَنَدُ ذلك كونُها رغبة الناس وإرادتهم؛ فالواجبات الشرعية: من إقامة الشعائر، ورفض الخمور، والفواحش، والربا، لا تَستمِدُّ سلطتها من كونها أمراً شرعيّاً بل من خلال رضا الناس ورغبتهم؛ وهذا هو تفسير آلية عمل الدستور في النظم السياسية المعاصرة، وفي هذا من تهوين الأحكام ما يهزُّ ضمير أي معظِّم لنصوص الشريعة.

ثانياً: إذا كانت الشريعة إنما تحكم لإرادة الأكثرية في الدستور، فبإمكانهم أن يرفضوها من خلال الطريقة نفسها؛ فالدستور ليس شأناً جامداً لا يتغيَّر، بل هو قابل للتغيير والتعديل، وحينئذٍ سيكون بقاء الشريعة في النظام الإسلامي مرتبطاً برضا الأكثرية من الناس وإرادتهم وليست أمراً ثابتاً وضروريّاً، وهذه هوَّة مهولة في أساس هذا التفسير قد دافع عنها أصحابها بأنَّ إجراءات تعديل الدستور تبدو معقَّدة وطويلة بعض الشيء ولا يمكن للناس أن يتفقوا على تغيير مادة تطبيق الشريعة.

---

(١) قد حكى الإجماع في هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع متفرِّقة من الفتاوى، انظر: ٢٨/ ٣٥٦ - ٤٦٨ - ٥١٠ - ٥٤٥ - ٥٥٧.

والجـــواب عنـــه أن يقـــال: إن مجرد القـــول بأن حكم الشريعة مما يمكن أن يعاد النظر فيه هو جريمة لا تُحتَمَل؛ فليس لمســـلم في الشـــريعة أن يختار في أي حكم شرعي. يقـــول الله – تعالى –: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَـلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحـزاب: ٣٦]؛ فكيف يكون له الخيار في ترك الشريعة بأكملها؟ فليس لأي مؤمن أحقية اختيار الحكم الشـــرعي حتى ولو كان سيختار الإســـلام؛ لأن إيمانه بالله يجعله منقاداً ومختاراً لأوامر الله.

فالميثاق بهذه الطريقة قائم علـــى (إقرار) بجواز تغيير الشـــريعة إن أراد الناس ذلك، وهذا شـــرط باطل وشنيع. وحتـــى لو كان مثل هذا بعيداً، فالدخول في العقود الدنيوية المحرَّمة باطل لتضمُّنه رضاً بمحرَّم؛ فكيف حين يكون العقد مُجيزاً لتعطيل الشريعة بأكملها؟

ثالثاً: حين ترفض الأكثرية تطبيق حكم الإســـلام فإن هـذا التفســـير يحترم لهـذه الأكثرية إرادتها ويســـلِّم لها ما تريد، وهذا لازم شـــنيع يتحاشى كثيرون الحديث عنه؛ وإن كان قـــد التـــزم به آخرون؛ فجعلوا النظـام السياســـي الإســـلامي بهذا يقوم على اعتبار أقـــوام قد حكم الله على من فعل دون فعلهم بالكفر؛ فمن يســـتنكف عن التحاكم إلى الشريعة كافر بنصِّ القـرآن؛ فكيـف بمـن يرفض الشـريعة كلهـــا؟ يقول – تعالى –: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنـزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقـــد يقال هنا: إن الأكثرية إذا رفضت الحكم بالشـــريعة فـــلا يكون بإمكانك أن تحكم بالشـــريعة؟ وجوابه: أن الواجب متعلِّق بالقدرة والاستطاعة، فإذا لم يتمكن المسلمون من الحكم بالشريعة فهم معذورون، وهو شيء خارج عن موضوعنا؛ غير أن أصحاب هذا التفسير يرفضون الحكم بالشريعة على خلاف رغبة الأكثرية؛ لأنَّ هـــذا ينافي حرية الاعتقاد وحقَّ الاختيار، ويؤســـس للنزاع والخلاف، وهو ما يعني أن حديثهم متجه إلى تطبيق الشريعة في وضع الاســـتطاعة والقدرة، فلما اعتُرِض عليهم بخطورة مثل هذا الرأي استدلوا بوضع الضرورة!

رابعـــاً: أن أحكام الشـــريعة وأصولها تكـــون محترمة لمجيئها في الدستور؛ فاحترامها وتقديرها من احترام وتقدير الدستور؛ فهي من جنس الموادِّ والقوانين المنصوص عليها في الدساتير مما هو من شؤون الإدارة والمعيشة الحياتية؛ فليس لها من القوَّة والخصوصية شيء يذكر، والحديث عن مكانتها وقَدْرِهـــا إنما يكون بنـــاءً على تعظيمنا للدســـتور؛ فعظمة

الشريعة تابعة لعظمة الدستور لا العكس.

خامســـاً: إن نصَّ الدستور على الحكم بالشريعة يحتاج إلى تفسير وإيضاح، وقد يتطلَّب تقييداً وبياناً، وواقع كثير من النظم السياسية المعاصرة أن تفسير ذلك يرجع إلى المجالس البرلمانيـــة المنتخَبَة، وحينها ســـيكون مرجعنا في تفســـير الأحكام الشرعية وتحديد ما يوافق الدليل مما يعارضه إلى الأشخاص الذين يختارهم الناس لإدارة شؤون حياتهم ولو لم يكونوا من المتخصصين والفقهاء، وحينئذٍ فمن الممكن أن يُمَدَّ الشراع لكثير من المحرَّمات من خلال هذه البوَّابة.

سادســـاً: إذا كان تطبيق الشـــريعة راجعاً لإرادة الناس، فبالإمكان تفســـير الشـــريعة والتخفُّف من بعـــض أحكامها مراعاة لإرادة الناس التي كانت الســـبب في الحكم بالشريعة؛ فَتَـــرْك بعض أحكام الشـــريعة والتخفُّف مـــن قوانينها التي تصادم شـــهوات الناس هو مِنْ استلهام روح الدستور، وحينها لن يُتَعَرَّض لأصل الشريعة بالتغيير؛ وإنما سينال التغيير جزءاً كبيراً من أحكامهـــا؛ لتتلاءم مع الذائقة المعاصرة في حريات الاعتقاد، والدعوة، وإقامة الشعائر، والمساواة المطلقة والتخفُّف من أحكام الإلزام والمنع، وأما حَدُّ الردَّة المجمَع عليه، فلهم معه أمور سأعود إليها في مقالة قادمة بإذن الله.

لقد كان حريّاً بأولئك الفضلاء أن يكون تعظيمهم للشريعة وتطبيق أحكامها أعظم في نفوسهم من ضمان مجيء الحكم بالإسلام على وَفْقِ النظريات السياسية الغربية، وبإمكانهم أن يقرروا التحاكم إلى الدساتير مع جعل الشريعة سلطةً عُليَا فوق الدساتير؛ فيكون لإرادة الناس وَضْعُ ما يريدون في الدساتير، وتكون الشريعة وأحكامها فوق هذه الدساتير وحاكمة عليها، وهي سياسة موجودة حتى في النظم السياسية المعاصرة التي تقرِّر حقَّ الأغلبية في اختيار النظام السياسي الذي يريدون، لكنْ ثَمَّ أصول وقيم في حقوق الإنســـان وحرياته وفي تطبيق الديمقراطية، ترفض أن يقوم أي دستور على معارضته؛ فمن المرفوض تماماً في الثقافـــة الديمقراطية المعاصرة أن يقوم دستور على انتهاك أي حقٍّ من حقوق الإنسان أو حرياته على وَفْقِ المعيار الغربي.

فهل يكون قَدْرُ الإسلام في قلوب أتباعه دون قَدْرِ حقوق الإنسان لدى أولئك الغربيين؟

رفض التدخل الأجنبي

والتأكيد على سيادة الدول وخصوصياتها

أول مؤتمر إسلامي يناقش اتفاقيات ومؤتمرات المرأة الدولية وأثرَها على العالم الإسلامي.

المنامة - عمرو توفيق

عُقِدَ في العاصمة البحرينية (المنامة) أول مؤتمرٍ إسلاميٍّ ناقش الاتفاقيات الدولية والمؤتمرات المتعلقة بالمرأة وتأثيرها على العالم الإسلامي في الفترة ما بين ٢٨ ربيع الآخر إلى ١ جمادى الأُولَى ١٤٣١هـ الموافق لـ: ١٣ إلى ١٥ أبريل ٢٠١٠م.

وقد نظَّم مؤتمرَ «اتفاقياتُ ومؤتمراتُ المرأة الدولية وأثرُها على العالم الإسلامي» مركزُ باحثات لدراسات المرأة بالتعاون مع جمعية مودَّة للعلاقات الأسرية، تحت رعاية سموِّ الشيخ (عبد الله بن خالد آل خليفة) رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في البحرين.

وقد حاول المؤتمر البحثَ في إمكانية توظيف المؤتمرات الدولية بما يعود على الدول الإسلامية بالخير، والعمل على صيانة المجتمعات المسلمة من آثارها السلبية، بمشاركة عدد كبير من العلماء والباحثين والمهتمين من ١٢ دولة عربية؛ حيث ناقش مجموعة محاور تدور حول نشأة مثل هذه الاتفاقيات ومستقبلها، وأثرِها على الدول الإسلامية، ودورِ وسائل الإعلام والمؤسسات الدينية والقانونية في التصدي لمثل هذه الاتفاقيات.

وقد قُدِّمت في المؤتمر ١٤ ورقةَ عملٍ، وشهد ثلاث وُرَشِ عمل، وثلاث محاضراتٍ، مقدَّمَة من مفكرين ومتخصصين، ناقشت آثار تطبيقات الاتفاقيات الدولية على خمس دول عربية، هي: (مصر، والسودان، واليمن، والمغرب، والأردن)، وكيفية التصدي لآثارها السلبية.

وقد أكد الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة (رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالبحرين) خلال افتتاحه للمؤتمر، على أن المرأة المسلمة ما زالت متمسِّكة بأخلاقها ودينها في مواجهة الواقع الجديد الذي طرأ على الأمة خلال الآونة الأخيرة، وأكد كذلك على أن المرأة المسلمة لن تتأثر بالاتفاقيات أو المؤتمرات التي تخالف في مطالباتها الشريعة

أوصى البيان الختامي للمؤتمر بالتأكيد على الالتزام بالمرجعية الإسلامية في التعامل مع قضايا المرأة ومطالبها ومشكلاتها

الإسلامية، مضيفاً: «كنا ننتظر إقامة مثل هذا المؤتمر الخاص بالمرأة للعمل على الارتقاء بحقوقها وَفْقَ ما دعت إليه الشريعة الإسلامية الغراء، بحضور نخبة من العلماء والمفكرين، ونتمنى خروج المؤتمر بتوصيات لها تأثير يَصُبُّ في صالح المرأة والمجتمعات العربية والإسلامية».

وأوصى البيان الختامي للمؤتمر بالتأكيد على الالتزام بالمرجعية الإسلامية في التعامل مع قضايا المرأة ومطالبها ومشكلاتها، ودعوة حكومات الدول الإسلامية والمفكرين إلى الاعتزاز بهوية الأمة، وصياغة مدوَّناتٍ للأسرة والمرأة وَفْقَ الشريعة الإسلامية وتعديل ما يناقضها.

وشدَّد أيضاً على رفض التدخل الأجنبي في قضايا المرأة والأسرة في الدول الإسلامية، وأكد على سيادة الدول وخصوصيات الشعوب في الحفاظ على هويتها، كما رفض كافة الاتفاقيات والمواثيق التي تخالف الشريعة الإسلامية، ولا تتفق مع فطرة المرأة، أو تهدف إلى إلغاء الفوارق الفطرية بين الرجل والمرأة، أو تهدِّد كِيان الأسرة.

ودعا الحكومات الإسلامية ومؤسسات المجتمع المدني إلى تفعيل المادة ٢٦ من اتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة «السيداو»، التي تمنح الأطراف الموقِّعة عليها حق إعادة النظر في الاتفاقية.

وشدد البيان على ضرورة إصدار وثيقة إسلامية لحقوق المرأة وواجباتها في الإسلام، ويُستفاد فيها من الوثيقة المعدَّة من قِبَل مركز باحثات لدراسات المرأة، داعياً إلى تشكيل تجمُّعٍ للمنظمات والجمعيات الأهلية، والشخصيات الاعتبارية؛ بهدف توحيد الرؤى، وتنسيق جهود المتخصصين في قضايا الأسرة والمرأة.

ودعا إلى توجيه بيانٍ إلى هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية؛ لاحترام خصوصية الشعوب والتحذير من خطورة إكراه الشعوب على تطبيق ما يخالف معتقداتها وهويَّاتها.

ونبَّه إلى ضرورة الإسهام الفاعل الإيجابيِّ في تبنِّي قضايا المرأة المسلمة وحقوقها الشرعية، ورَفْعِ الظلم عنها، وتصحيح المفاهيم المغلوطة في العادات والتقاليد الاجتماعية، ودعوة المؤسسات المتخصصة في العالم الإسلامي إلى إبراز قيم الإسلام الاجتماعية والأسرية وتقديمها للعالم، كما أكد على دور المؤسسات الشرعية، كمؤسسات الفتوى والمجامع الفقهية في العالم الإسلامي في بيان حكم الشرع في مضامين الاتفاقيات والمواثيق الدولية.

ودعا إلى إنشاء مؤسسات أهلية للحفاظ على هوية الأمة وتعزيزها ورَفْعِ مستوى الوعي لدى فئات المجتمع ، كما تُعْنَى (هذه المؤسسات) بتشخيص المشكلات التي تواجه المرأة وتعمل على حَلِّها، وإنشاءِ المراكز العلمية والبحثية التي تُعْنَى بدراسة واقع ا لمرأة والمؤتمرات الدولية التي تُعْقَد من أجلها، وَرَصْدِ كل التغيرات (الثقافية والاجتماعية والقانونية) المتعلقة بالمرأة والعمل على وضع الخطط المستقبلية التي تنهض بها وتدفعها للمشاركة الفاعلة.

كما دعا إلى مخاطبة الجامعات في العالم الإسلامي للتصدي للدعوات الأممية التي تستهدف وجود الأمة حاضراً ومستقبلاً؛ وذلك بدراسة قضايا المرأة في أبحاثهم العلمية، وتوجيه الباحثين لنقد الاتفاقيات والمؤتمرات الدولية، وتنمية الوعي بين الدعاة، والتربويين، والإعلاميين، وأهل الرأي بواقع الاتفاقيات والمؤتمرات الدولية المتعلقة بالمرأة، وحثِّهم على أن تكون ضمن أطروحاتهم بشكل دائم، والتأكيد على دور الإعلام في ترسيخ هوية المرأة المسلمة والدفاع عن قيمها.

وشكر المؤتمر جهودَ المنظمات الإسلامية، ومنها جهود اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل في إصدار ميثاق الأسرة في الإسلام، موضحاً أهمية التواصل مع المؤسسات والمنظمات المناهضة لمؤتمرات واتفاقيات المرأة الدولية على الصعيدين (المحلي والعالمي).

وأوصى بضرورة عَقْد المؤتمر وما ينبثق عنه من ندوات وورَش عمل بشكل دوري في عدد من دول العالم الإسلامي، وتشكيل لجنة لمتابعة التوصيات وتفعيلها.

وخلال الجلسة الافتتاحية للمؤتمر، قال الدكتور عادل الحسن الحمد (رئيس المؤتمر ومدير جمعية مودَّة بالبحرين): «إن المؤتمر يستهدف التعامل مع مقررات المؤتمرات الأممية والدولية من خلال توضيح الرؤية الشرعية في هذه المقررات؛ بهدف الاستفادة منها ومواجهة ما لا يتوافق معنا».

من جهة أخرى قال الدكتور فؤاد عبد الكريم مدير مركز باحثات لدراسات المرأة والأمين العام للمؤتمر: إن المؤتمر يهدف إلى إطلاع العلماء والمفكرين والمهتمين بشأن الأسرة المسلمة على خطورة هذه الاتفاقيات والمؤتمرات، والتوصل إلى بعض الوسائل العملية المناسبة لدراسة هذه المؤتمرات، والتواصل مع الباحثين والمهتمين بشأن المرأة في

العالم الإســـلامي، والكشف عن الأضرار الكبيرة التي تمثلها التوصيات التي صـــدرت عن العديد من مؤتمرات المرأة التي نُظِّمَت تحت مظلة الأمم المتحدة على الأسرة المسلمة.

وتحدث أيضاً عن الجهود التي تبذلها المؤسسات الدولية في نشـــر ثقافة أصحابها وواضعيها مســـتهدِفة اســـتبدال بعض أحكام الأســـرة في بعض البلدان الإسلامية والعربية، مشـــيراً إلى انتشار عدد من الأمراض التي تفشت في العالم الإســـلامي، والتي كانت محصورة فـــي دول الغرب، ولكنها زحفت مؤخراً إلى ديار المســـلمين، مثل: الشذوذ والاغتصاب والتفكك الأسري... وغيرها من الأمراض.

وأكد الدكتور فؤاد كذلك على أن هذه المســـتجدات دعت إلـــى ضرورة وجوب التعامل معها بكل جدية، وخاصة أن تلك التغيـــرات بدت مصحوبـــةً بضغوط على بعـــض الحكومات الإســـلامية ومدعومةً من فريقٍ من المتأثرين بهذه الأفكار في الدول العربية والإسلامية.

وقد ابتدئت أعمال المؤتمر بمحاضرة ثلاثية، بدأها الشيخ الدكتور ناصر بن سليمان العمر بالحديث عن: (ماذا يريدون من المرأة؟)، ثم الدكتور عادل الحمد في: (ماذا نريد من المرأة؟)، ثم الدكتورة أميمة الجلاهمة في: (ماذا تريد المرأة؟).

ثم عُقِدَت جلسة عن (اتفاقيات ومؤتمرات المرأة: النشأة والإلـــزام) تحدثت فيه الدكتورة نورة الســـعد، والدكتور فؤاد العبد الكريم، والدكتورة نهى قاطرجي.

وفي اليوم الثاني من المؤتمر عُقِدَت جلسة تناولت آثار هذه المؤتمرات على عددٍ من بلدان العالم الإسلامي، وهي: (الأردن، والمغرب، واليمن، والسودان، ومصر)، وعَرَضَت للتجارب التي قامت في هذه الدول لمواجهة مثل هذه المؤتمرات.

كما عُقِد بعد ذلك عدَّة جلسات نقاش وحوار بين أعضاء المؤتمر حول كيفية مواجهة الشبهات التي يثيرها أعداء المرأة المسلمة في مؤتمراتهم، والوسائل الفاعلة لصيانة المجتمعات المسلمة من تأثير تلك الشبهات، أو التأثُّر السلبي بقرارات واتفاقيات هذه المؤتمرات بشـــكل عام، وجرى عَرْضٌ لبعض التجارب الناجحة لمواجهة هذه المؤتمرات. وأعدت المهندسة كاميليا حلمي ورشة عملٍ مفصَّلة عن مشاريع بناءٍ وتصدٍّ قابلةٍ للتنفيذ

كما بحث المؤتمر في جلســـة أخـــرى موضوع (التوظيف ووســـائل المواجهة)؛ حيث تناولت فيـــه أوراقُ العمل إمكانيةَ التوظيـــف الإيجابي لهذه القـــرارات والمؤتمرات الدولية؛ بما يحقق الخير لمجتمعاتنا المســـلمة، ودورَ المؤسسات الشرعية والحقوقية والقانونية في هذا التوظيف والمعالجة.

وفي اليوم الثالث: قُدِّمت أوراق عمل حول واجب المؤسسات الاجتماعية والتربوية والتعليمية ومؤسسات الثقافة والإعلام في مواجهة هذه المؤتمرات. وخُصِّصت جلسة خاصة لمناقشة وثيقة عن المرأة المسلمة (حقوقها وواجباتها).

من أفكار المؤتمر:

لقـــد طُرِح فـــي محاضـــرات المؤتمـــرات وأوراق عمله وفي مداخلات المشـــاركين عددٌ كبير من المشـــاريع والأفكار والتوصيـــات المهمة في ســـبيل المعالجة الواعيـــة لآثار هذه المؤتمرات، ومن هذه الأفكار:

١ - أهميـــة العناية بالجانب الإيجابي في هذه المؤتمرات وتوظيفه بما يفيد مجتمعاتنا الإســـلامية، مع مراعاة أن هذه الجوانب الإيجابيـــة مع كثرتها في هذه المؤتمرات إلا أنَّ هذه الاتفاقيـــات لا تحرص عليها كثيراً، وإنما تحاسِـــب وتلاحِق وتتابِـــع القضايا الســـلبية المنافية للشـــرع والفطرة والعقل: كالشذوذ والفواحش والإجهاض.

٢ - أن المؤتمـــرات الدولية ترفع من ســـقف مطالبها في العالم الإســـلامي حتى يتحفَّظ على بعضها ويستسلم للبقية، مع أن هذه المؤتمرات لـــم تكن تريد تطبيق كل هذه المطالب؛ وإنمـا كـان رَفْعُ ســـقف المطـالب؛ ليضمنوا تحقيق مطالبهم ولا تكون خاضعة لضغط الاعتراض.

٣ - التركيز على أهمية عناية أعضاء الهيئات التشريعية في العالم الإسلامي بموضوع الاتفاقيات الدولية ضد المرأة؛ ليكونوا خط دفاعٍ أوَّلٍ عن حقوق المرأة الشـــرعية والفطرية ضد الاعتداء عليهـــا من خلال تغيير القوانين بما يتوافق مع هذه المؤتمرات.

٤ - أن الولايـــات المتحدة الأمريكية لم توقِّع على اتفاقية الســـيداو التي هي حاضنة هذه الاتفاقيات والمؤتمرات بسبب أن الكونجـــرس الأمريكي يرفض تعديل الأحوال الشـــخصية بناءً على أمر خارج عن الدستور الأمريكي، ويعتبر هذا تدخُّلاً وانتهاكاً لسيادته.

٥ - أهمية المشاركة والحضور في هذه المؤتمرات من قِبَل المنظمات والهيئات الإســـلامية؛ ليكون صوتها عالياً في هذه المؤتمرات، وأن غياب هذه المنظمات ورفضَها المشاركة سيُملأ

فراغُه بمنظمات نسوية متطرفة تزيد من مطالبها وضراوة إفسادها للمرأة، مع أهمية أن تكون المشاركة إيجابية واثقة، وليست دفاعية تبريرية.

٦ - أن الحديث عن ضمان حقوق المرأة في الإسلام لا يكفي ما دامت المرأة تعاني من ظلم واقعيٍّ وعدم التزام بأحكام الإسلام في التعامل مع المرأة، وأن التقصير في رعاية حقوق المرأة الشرعية مما يمهد الطريق لمرور مخططات أعداء المرأة.

٧ - أن شناعة قرارات هذه المؤتمرات لا يصحُّ أن يكون مسوِّغاً للتهاون بها؛ فقد كان طرح ما تريده هذه المؤتمرات يُعدُّ أمراً غريباً قبل سنوات ثم أصبح كثير من مفاهيم هذه المؤتمرات يناقَش في الصحف والإعلام بشكل مستمر.

٨ - أن هذه المؤتمرات ركَّزت على حقوق المرأة، وأغفلت جانب واجباتها؛ فالحقوق تقابَل بالواجبات، ولا تكتمل إلا بها.

٩ - أن هيئة الأمم تضغط على الدول بكل ما يمكن لتطبيق هذه القرارات، حتى وصل الحال إلى ممارسة الضغط الاقتصادي؛ بحيث تكون القروض والمساعدات الحياتية مرهونةً بشرط الالتزام بتطبيق هذه الاتفاقيات.

١٠ - خطورة الخلاف الفقهي المتهاون، وسيل الفتاوى غير المنضبط، كلُّ ذلك يهيئ البيئة المناسبة لتطبيق قرارات هذه الاتفاقيات.

من مميزات المؤتمر:

تميز المؤتمر بجوانب قوة كثيرة، من أهمها:

أولاً: جميع الأوراق المقدَّمة كتبها متخصصون في موضوع المؤتمر؛ ولهذا كان التميز العلمي سِمَة بارزة، مؤثرة في المؤتمر.

ثانياً: شارك في المؤتمر كثيرٌ من المتخصصين والمتخصصات الذين حضروا كثيراً من المؤتمرات الدولية التي تعقدها الأمم المتحدة؛ فهم يتكلمون بعلم وإدراك.

ثالثاً: شارك في المؤتمر شخصيات علمية وفكرية - رجالاً ونساءً - من ١٢ دولة عربية؛ وهو ما أثرى المؤتمر بتجارب خِصبَة، وحوارات جادَّة عميقة، ورؤى واسعة الأفق.

رابعاً: كان للمشاركات النسائية نصيب كبير في أوراق المؤتمر، وفي المداخلات والحوارات، وقد كان لهذه المشاركات صدىً إيجابيٌّ محمودٌ؛ فوعي المرأة بالتحديات التي تواجهها من أهم الخطوات العملية للتدافع الحضاري.

خامساً: سمحت وُرَش العمل بمزيد من الحوار الفكري الجاد، وركزت على الجوانب العملية والميدانية؛ وهو ما حقق التوازن بين الأطروحات النظرية والعملية.

سادساً: جاء هذا المؤتمر في توقيت غاية في الأهمية؛ فالعالم الإسلامي يتعرض لهجمة دولية شرسة تستهدف هويته، وثقافته، وأخلاقه الاجتماعية؛ ولهذا ساد شعور كبير بين أعضاء المؤتمر بالفراغ الكبير لمواجهة مشاريع الأمم المتحدة، وأكدوا على أهمية التعاون لإنجاح رسالته وطموحاته.

سابعاً: تميز المؤتمر بوجود قاعتين منفصلتين: الأولى للرجال والأخرى للنساء، وهو ما أوجد ارتياحاً واطمئناناً عند جميع المشاركين والمشاركات.

ثامناً: كانت توصيات المؤتمر متوازنة، وتضمنت جوانبَ إيجابيةً وطموحةً تُحمَد كثيراً للمؤسسات المنظِّمة للمؤتمر.

شدَّد المؤتمر على رفض التدخل الأجنبي في قضايا المرأة والأسرة في الدول الإسلامية، وأكد على سيادة الدول وخصوصيات الشعوب في الحفاظ على هويتها، كما رفض كافة الاتفاقيات والمواثيق التي تخالف الشريعة الإسلامية، ولا تتفق مع فطرة المرأة، أو تهدف إلى إلغاء الفوارق الفطرية بين الرجل والمرأة، أو تهدد كيان الأسرة.

[المسلمون.. والعالم]

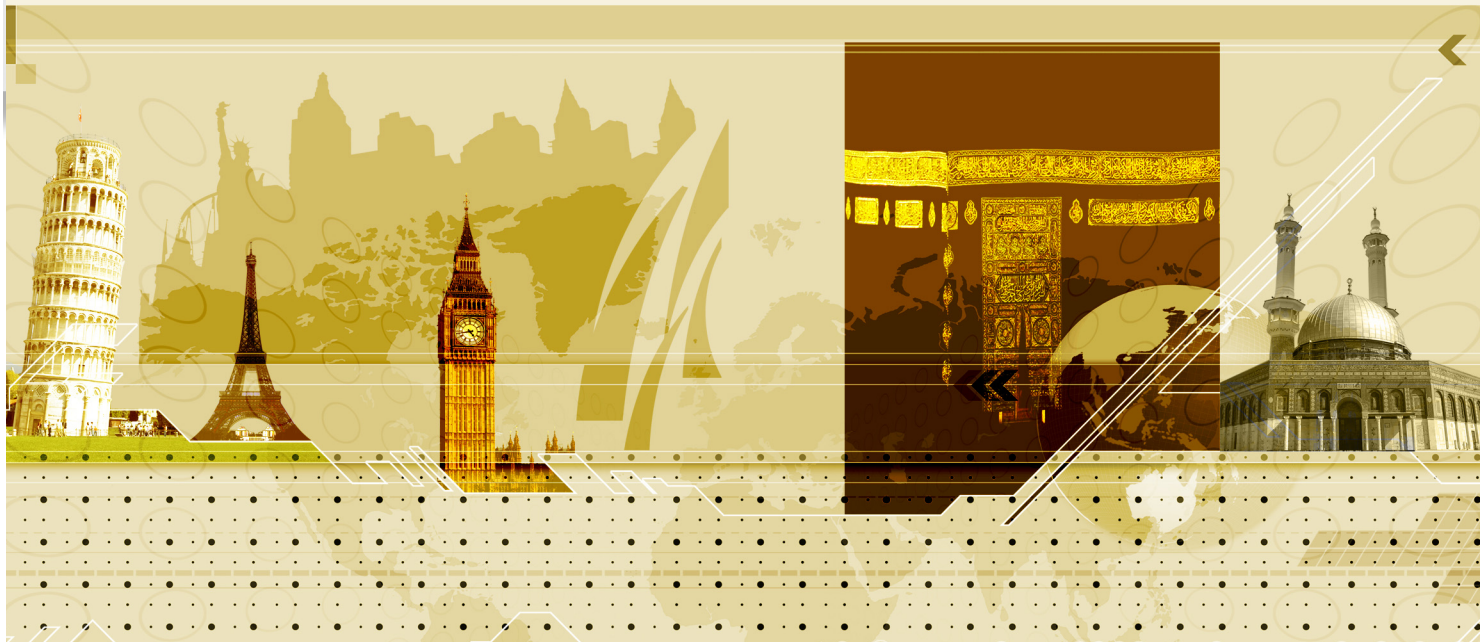

العرب في مهب التحولات الإستراتيجية
محمد سليمان الزواوي

إيران وأمريكا... لماذا تحتاجان إلى القاعدة؟
أحمد فهمي

مسلمو كولومبيا... مواجهة خطر الذوبان!
أحمد الطنيخي

بيع الأراضي الفلسطينية: حقيقة أم باطل؟
أنور محمود زناتي

لبنان الكبير
د. يوسف بن صالح الصغير

مرصد الأحداث
جلال الشايب

جديد

مجلة البيان

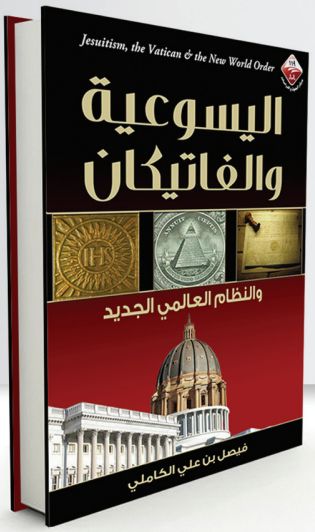

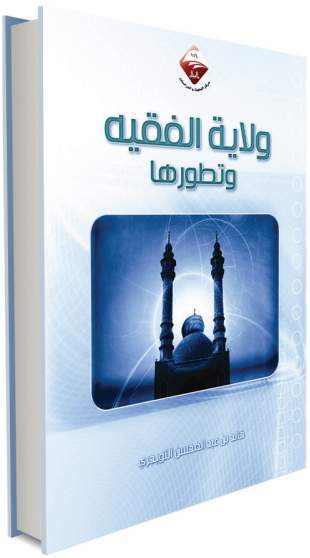

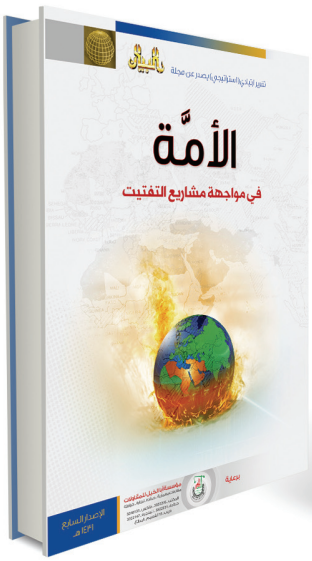

تحت إشراف / د. محمد بن عبد الله الدويش

العرب

في مهب التحولات الإستراتيجية

محمد سليمان الزواوي
zawawy@yahoo.com

يثار في وسائل الإعلام هذه الأيام كلام كثير عمَّا يوصف بأنه «صدع» في العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، وذلك بسبب الاختلافات في وُجهات النظر بين إدارتَي (أوباما ونتنياهو) حول بعض النقاط الخاصة بالقضية الفلسطينية، وتتمثل تلك الخلافات في البناء الإسرائيلي في القدس الشرقية وعمليات التهويد المستمرة، وهو ما تَعُدُّه الولايات المتحدة في غير مصلحتها على الأمد القريب؛ فقد أرسل أوباما نائبه جو بايدن إلى «إسرائيل» من أجل إعادة استئناف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، ولكنَّ نتنياهو استقبل بايدن بالإعلان عن بناء ألف وستمائة وحدةٍ سكنية استيطانية جديدة في القدس الشرقية المحتلة، وأعلن نتنياهو من قلب الولايات المتحدة بعد ذلك (من لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية «إيباك») أن القدس ليست مستوطَنَة ولكنها عاصمة، في تحدٍّ لجهود أمريكا لإعادة استئناف المفاوضات من أجل تهدئة الأوضاع في المنطقة وتحسين صورتها.

وعلى الرغم من تلك الإيماءة الإسرائيلية بتحدي أمريكا، إلا أن وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون صرحت بأن ما بين أمريكا وإسرائيل هو «رباط لا ينفصم» Unbreakable Bond، وأعقبت ذلك بتصدير صفقة أسلحة إلى الكيان الصهيوني تتمثل في ثلاث طائرات من طراز (هيركيوليز سي -١٣٠ جيه) بتصميم من شركة «لوكهيد مارتين» الأمريكية لتلبية احتياجات تل أبيب خاصة، ويصل إجمالي قيمة الصفقة إلى ربع مليار دولار، وتحتوي الطائرات على عدد من الأنظمة التي أنتجتها صناعات الدفاع الإسرائيلية، وسيتم تغطية قيمة الصفقة من صناديق المساعدات الخارجية الأمريكية، ومن المتوقع أن تُبرِم أمريكا صفقة طائرات (إف ٣٥) بقيمة ٣ مليارات دولار ، يتسلم الكيان الصهيوني أُولَى دفعاتها في عام ٢٠١٤م.

وبالرغم من تلك المؤشرات السلبية القادمة من تل أبيب إلا أن أمريكا بادلتها بمؤشرات إيجابية من واشنطن، ولكن السياق العام - بالرغم من ذلك - يشهد تعارضاً وقتياً في المصالح بين الجانبين؛ وذلك بسبب اختلاف الرؤى بين تل أبيب وواشنطن، وكذلك بسبب اختلاف الطموحات في ظل سياق إستراتيجي متغير؛ فالعلاقات الدولية قائمة على المصالح، ولا توجد كلمة «صداقة» في تلك العلاقات، وبالرغم من أن «إسرائيل» تحقق للولايات المتحدة مصلحة كبرى في المنطقة العربية، إلا أن واشنطن يمكن أن تعيد النظر في محددات تلك العلاقة إذا رأت في يوم من الأيام أن إسرائيل لا تحقق المصلحة الأمريكية؛ أو أن طموحاتها بدأت في الاصطدام مع الطموحات الأمريكية؛ لذا يمكن أن تعيد تقييمها في إطار المصلحة الأمريكية العُليا.

وفي السياق الراهن فإن الأمر يتخطى مجرد البناء في القدس وعمليات التهويد بالنسبة لواشنطن؛ لأن الأمر في ظل حكومة نتنياهو وليبرمان بدأ يتعلق بالصورة الأكبر وهو توازن القوى فيما يسمى بالشرق الأوسط في الإستراتيجية الأمريكية، وهي تلك المنطقة الممتدة من مصر وحتى باكستان؛ حيث إن الولايات المتحدة تعاني حالياً في تلك المنطقة بسبب عجزها عن التحكم في مجريات الأمور فيها بسبب الحربين: على العراق وأفغانستان.

وهناك نقطتان أساسيتان في العلاقة (الأمريكية – الإسرائيلية) يجب وضعهما في الحسبان فيما يتعلق بالشرق الأوسط:

أولاً: أن من أسباب معاداة شعوب المنطقة لأمريكا هو الدعم الأمريكي لإسرائيل واستخدُامها الدائم للفيتو، (هذا إلى جانب عدة أسباب أخرى، مثل: احتلالها للعراق وأفغانستان وقمعها للكثير من المسلمين حول العالم).

ثانياً: أن الولايات المتحدة لديها علاقة إستراتيجية خاصة بإسرائيل واعتمادية متبادلة بين بعضهما البعض.

وقد ورثت الإمبراطوريةُ الأمريكيةُ نظيرتَها البريطانية في العالم، ودائماً ما تعتمد أمريكا في إستراتيجيتها الكبرى للمنطقة على الإستراتيجية البريطانية الكبرى السابقة، وذلك بهدف المحافظة على التوازن الإقليمي للقوة من أجل تجنب ظهور قوى أكبر يمكن أن تهدد المصالح الأمريكية. ومَنْ زرع «إسرائيل» في المنطقة هو بريطانيا؛ من أجل أن تكون بمثابة الحاجز الذي يمنع من توحد العرب بين الشطرين الآسيوي والإفريقي، وكذلك من أجل أن تكون نقطة قوة رادعة ومتفوقة تقوم بعمل ضربات إجهاضية لأي قوة ناشئة ومن ثَمَّ السيطرة على توازن القوى لصالح إسرائيل وكذلك التحالف الغربي، هذا إلى جانب الأبعاد العقدية والدينية في الصراع بين الإسلام والغرب بصورة عامة.

وكانت الحرب الباردة بمثابة تدريب أمريكي ضخم على عملية توازن القوى تلك؛ وذلك لتنافُس نظام التحالف الأمريكي الموسَّع حول العالم ضد ذلك الذي شكله الاتحاد السوفييتي (سابقاً)، ومنذ نهاية الحرب الباردة تحركت الولايات المتحدة ضد كثيرٍ من القوى المهيمنة حول العالم؛ سواء لعقد تحالفات معها أو لكسر طموحاتها، كما حدث في الحروب الكورية والفيتنامية، وفي احتوائها لكوبا في أمريكا الجنوبية وللكتلة الشرقية في أوروبا بمشروع (مارشال) ثم حلف شمال الأطلسي، وفي المنطقة العربية كانت إسرائيل هي حامي القيم الغربية أمام المد السوفييتي (سابقاً). وظل الدعم الغربي لها مستمراً في حروبها مع العرب، ثم جاءت الضربة الإجهاضية للعراق بعد غزوه للكويت بفرض العقوبات عليه ثم احتلاله في ٢٠٠٣م؛ حيث كان العراق يُعَدُّ من أقوى الدول في العالم العربي.

وفي المنطقة التي يطلَق عليها بصورة عامة الشرق الأوسط، التي تمتد من البحر المتوسط إلى جبال الهندكوش. يقول جورج فريدمان (أحد أهم المحللين الإستراتيجيين ورئيس مؤسسة ستراتفور البحثية): إن هناك ثلاث توازنات إقليمية جوهرية للقوى:

أحدها: توازن القوى بين العرب وإسرائيل.

وثانيها: التوازن العراقي الإيراني.

وثالثها: هو التوازن الهندي الباكستاني.

والهدف الأمريكي في كل توازن ليس الاستقرار بقدر ما هو تحييدٌ متبادَلٌ للقوة الإقليمية عن طريق القوى الإقليمية الأخرى، حتى لو كان ذلك على حساب الاستقرار، طالما أن عملية التحييد مستمرة.

وقد انهار اثنان من التوازنات الإقليمية الثلاثة أو أصبحا في حالة مزرية على أفضل تقدير؛ ففي عام ٢٠٠٣م أدى الغزو الأمريكي للعراق والفشل في تنصيب حكومة قوية معادية لإيران في بغداد إلى انهيار التوازن المركزي للقوة في تلك المنطقة، والأمل ضعيف في أن ينمو ذلك التوازن مرة ثانية بسبب صعود النفوذ الشيعي داخل العراق. أما التوازن الشرقي للقوة بين باكستان والهند فيواجه أيضاً خطر الانهيار؛ فالحرب الأفغانية أدَّت إلى وضع ضغوط هائلة على باكستان، وهناك سيناريوهات يمكن أن تضعف فيها قوة باكستان بصورة كبيرة أو حتى تنهار تماماً كدولة، ولم يتضح بَعْدُ كيف سيتطور ذلك الامر، إلا أن المؤكد أن ذلك ليس في مصلحة الولايات المتحدة؛ لأن ذلك يمكن أن يدمر توازن القوة الإقليمي مع الهند؛ فالولايات المتحدة لا تريد أن تصبح الهند قوة منفردة بدون تحدٍ في شبه القارة الهندية، بسبب تداعيات ذلك على المدى البعيد بالرغم من الصداقة الأمريكية الهندية؛ لذا فإن الولايات المتحدة تريد باكستانَ قوية من أجل موازنة الهند وتحييدها، ومشكلتها الآن هي كيفية إدارة الحرب الأفغانية – وهي قضية فرعية من الناحية الإستراتيجية – بدون أن

يؤدي ذلك إلى تقويض المصالح الإستراتيجية للولايات المتحدة، ولتوازن القوة الباكستاني الهندي.

ويبقى التوازن الثالث في المنطقة الغربية، وهو التوازن ما بين إسرائيل وجيرانها؛ حيث يُعَدُّ ذلك التوازن مستقراً إلى حدٍّ مَّا، وبذلك تُعَدُّ إسرائيل أصلاً إستراتيجياً هامّاً للولايات المتحدة، ولكن في ظل انهيار التوازن الأوسط بين إيران والعراق فإن واشنطن لا يمكن أن تتحمل انهيار التوازن الغربي بين إسرائيل والعرب؛ حيث وصل التمدد المفرط للجيش الأمريكي إلى ذروته حالياً، ولا تستطيع واشنطن أن تتحمل مشكلة جديدة، ولن تقبل بزعزعة استقرار تلك المنطقة لكي لا تتأزم الأمور بالنسبة لها.

فالمصالح الأمريكية تكمن في توازن القوى في إطار مجموعة من العلاقات المستقرة المتبادَلة بدون أن تنفرد قوة بالسيطرة والهيمنة بصورة مفرطة تخرج بها عن نطاق سيطرة الولايات المتحدة، وواشنطن لن تسمح في الفترة الحالية بأن تنتقل إسرائيل من كونها حليف أمريكي يحافظ على توازن القوة في المنطقة إلى قوة مهيمنة إقليمية منفردة تعمل خارج إطار المصالح الأمريكية؛ فأمريكا – وقبل كل شيء – تريد أن تضمن استمرار استقرار الأوضاع في المنطقة في ظل التحولات التي قد تجري في مصر أو في الأردن أو في سوريا؛ لذا لا تريد أن تقوم «إسرائيل» بأي شيء يؤدي إلى انهيار ذلك التوازن، بقيامها – مثلاً – بهدم الأقصى أو فعل استفزازات ضد العرب مثل التمادي في التهويد وبناء المستوطنات، وهو ما يمكن أن يعقِّد الأوضاع الداخلية في تلك البلدان ومن ثَمَّ يؤدي إلى تعقيد الصورة الأكبر لتوازن القوة في المنطقة، وهو ما لا تستطيع أمريكا أن تتحمله في الظرف الراهن بسبب التمدد المفرط لجيشها.

فالولايات المتحدة ربما تجد نفسها قد استُدرِجَت إلى صراع جديد في المنطقة؛ سواء بقصف إسرائيل لإيران أو بانهيار الأقصى – مثلاً – أو حتى على المستوى المحدود باندلاع انتفاضة جديدة، ولكن إسرائيل يمكن أن تزيد الأمور تفاقماً إذا شنَّت هجوماً على إيران خارج منظومة التخطيط الأمريكي، وبذلك فإن الولايات المتحدة تريد شيئاً واحداً من إسرائيل الآن، وهو: ألاَّ تفعل شيئاً يمكن أن يؤدي إلى زعزعة استقرار التوازن الغربي للمنطقة أو جعل مهمة أمريكا أكثر صعوبة في المناطق الأخرى.

وإسرائيل تدرك جلياً تورُّطَ أمريكا في تلك المناطق الأخرى، بالإضافة إلى إدراكها لمدى تفوُّقها الحالي في منطقتها، وترى ذلك على أنه فرصة ذهبية لتدعيم وتوسيع نفوذها ومن أجل خَلْق حقائق جديدة على الأرض، فتقوم بالبناء في القدس الشرقية، وتستغل الظرف لإعادة تشكيل التركيبة السكانية والجغرافية في منطقتها الحالية، بزعم أن لها حقاً في القدس الشرقية لا يمكن لأمريكا أن تنكره عليها، ولكن أمريكا ترى أن عمليات البناء في القدس يمكن أن تُضعِف موقفها الحالي في المنطقة.

ورغبة إسرائيل في فعل ذلك مفهومة، ولكنها تعارض المصالح الأمريكية؛ فالولايات المتحدة – مع الأخذ بالحسبان التحديات الجسيمة التي تواجهها – ليست مهتمة برغبة إسرائيل في إعادة تشكيل منطقتها، أو تستطيع أن تتسامح مع أي مخاطر تنتج عن التحركات الإسرائيلية، حتى إذا كانت تلك المخاطر صغيرة؛ فالولايات المتحدة وصلت إلى الحد الأقصى من تحمُّل المخاطر؛ ولذلك فإن المصالح الإسرائيلية الأمريكية تتعارض في تلك الحالة؛ حيث تراها إسرائيل فرصة، وتراها الولايات المتحدة تمثل مزيداً من المخاطر.

وإسرائيل تدرك أن علاقاتها مع أمريكا هي ضمان لوجودها، ولكن يبدو أن نتنياهو يرى أن أمريكا بحاجة ماسة إلى إسرائيل في الوضع الراهن للحفاظ على التوازن الغربي للقوة بصرف النظر عما تقوم به الآن وسوف يكون مسموحاً به؛ لذا فإنه يتصرف بحرية من أجل ترسيخ أقدامه أيضاً محلياً أمام ناخبيه.

وإذا نظرنا إلى طبيعة اتخاذ القرار في الولايات المتحدة نجد أن إسرائيل تسيطر بصورة كبيرة على أهم المؤسسات البحثية في الولايات المتحدة وعلى عدد من نواب الكونجرس، وكذلك تقبض على مفاصل الاقتصاد الأمريكي بوجود أغنى العائلات الأمريكية من اليهود هناك، هذا بالإضافة إلى تحكُّمها في العديد من المنابر الإعلامية المرئية والمقروءة؛ لذا فإن إسرائيل تستطيع أن تمارس ضغوطاً على الولايات المتحدة من الداخل وليس من الخارج بعكس أي دولة أخرى في العالم، ويستطيع نتنياهو أن يمثل مشكلات لأوباما فيما يتعلق بسياساته الداخلية أو بشعبيته (بتحريك وسائل الإعلام

ذات الخلفية اليهودية ضده أو بإفشال برنامجه الانتخابي في أي جزء منه) فإسرائيل تستفيد من ضعف أمريكا بالخارج، وتستطيع أن تمارس مزيداً من الضغوط على الرئيس الأمريكي في الداخل أيضاً (أي رئيسٍ كان)، وهو ما يمثل معضلة حالية أمام إدارة أوباما التي تهدف إلى عقد مصالحة مع العالم الإسلامي؛ ليس من أجل المسلمين ولكن من أجل تحقيق المصالح الأمريكية، التي رأى أوباما أن بوش أضر بها بسياساته الأحادية وأدى إلى تشويه صورة أمريكا بالعالم.

وتكمن خطورة اللحظة الراهنة في وجود حكومة يمينية متطرفة في إسرائيل بقيادة نتنياهو وليبرمان، وبوجود تمدُّدٍ مفرط للقوة الأمريكية في الخارج، وهو ما يشل الولايات المتحدة عن تحمل أي مخاطر جديدة خاصة في المنطقة العربية، (التي يراها بعض الإستراتيجيين على أنها مجرد «محطة وقود عملاقة» للعالم)، هذا بالإضافة إلى الأطماع الإيرانية في المنطقة، والتي تستغل اللحظة الراهنة أيضاً لزيادة نفوذها في العراق إلى الحد الأقصى الذي يمكن أن يتحمله «بديل البنزين» الإيراني؛ فاللحظة الراهنة تمثل فرصة غير مسبوقة لإيران أيضاً للتوغل في أعقاب الانتخابات العراقية لتشكيل حكومة موالية لها، وفي أعقاب ترسيخ أقدام حكومة خامنئي ونجاد والقضاء على المعارضة. وفي ظل ذلك الموقف المتأزم فإن إسرائيل ربما تستغل الأوضاع لتهديد الأقصى ذاته.

وإذا نظرنا إلى العرب وإلى أوراقهم فسنجد أن جعبتهم خاوية؛ فحتى القمة العربية الأخيرة فشلت في أن تصل إلى أية قرارات من شأنها ردع إسرائيل عن عمليات تهويد القدس وتهديد الأقصى، وبين ذلك المثلث الأمريكي الإسرائيلي الإيراني، يبقى العرب في حيرة من أمرهم، ولا يتبقى لهم إلا أحد خِيارين:

الخِيار الأول: إما أن يمارسوا أقصى ضغوطٍ لديهم - إن وُجِدَت - على الإدارة الأمريكية من أجل التصعيد ضد إسرائيل ومحاولات التهويد بأن يلعبوا بورقة التحالف مع الولايات المتحدة وبالمصالح النفطية المشتركة وبما يمكن أن يمثله تهديد المقدسات من خطوط حمراء على استقرار الأوضاع في المنطقة، ومن ثَمَّ على تدفق النفط، وبذلك تزيد الضغوط على إدارة أوباما لكبح جماح نتنياهو، ويؤدي ذلك إلى تضخيم إحساس الإدارة بخطر زوال التوازن الإقليمي الثالث الغربي.

الخِيار الثاني: وإما أن يختار العرب أن يغيروا قِبلَتهم وأن يجمِّدوا دائرة النفوذ الأمريكية المشلولة حالياً ويهربوا من دائرة النفوذ الإيرانية، بأن يعظِّموا دائرة النفوذ التركية، ويضخوا فيها مزيداً من الأرصدة، ليس الأرصدة المالية والاقتصادية فقط، ولكن الثقافية والسياسية أيضاً، ويعقدوا مزيداً من الشراكات على مختلف المستويات، وهو ما يوافق الرغبة التركية التي جاءت للمنطقة في ظل سياسة العمق الإستراتيجي لأحمد داود أوغلو مهندس الخارجية التركية وصاحب سياسة (انعدام المشكلات)، وذلك ربما يوافق أيضاً الرغبة الأمريكية بخَلْقِ توازن قوة جديد بين إسرائيل وتركيا، من أجل ضمان عدم تفرُّد إسرائيل بالهيمنة على المنطقة وما يحمله ذلك من تهديد للصورة الأمريكية وللمصالح الأمريكية.

فتركيا تمثل بديلاً مقبولاً لدى دوائر صنع القرار الأمريكي، باعتبارها دولة إسلامية ديموقراطية عَلمانية، تمثِّل جسراً ما بين الشرق والغرب، وباعتبارها دولة في حلف شمال الأطلنطي (الناتو) وباعتبارها دولة مرشحة أيضاً لعضوية الاتحاد الأوروبي وتساعدها الولايات المتحدة بقوة في ذلك المجال، كما أنها يمكن أن توازن أيضاً النفوذ الإيراني الشيعي المتنامي في المنطقة؛ فتركيا تمثل في النهاية خياراً مقبولاً لدى الإدارة الأمريكية بقيادة أوباما الذي قرر أن يكون خطابه الأول للعالم الإسلامي من تركيا، وهي إشارة واضحة لمدى إدراكه لقيمة تركيا في المستقبل فيما يتعلق بتعامل أمريكا مع تلك المنطقة الهامةِ الممتدةِ من العالم.

ولأن التهديدات العربية ضد إدارة أوباما ربما لا تؤتي أُكُلَها مثلما أفادتنا دروس الماضي والحاضر، فيبقى الخِيار التركي هو الخِيار الوحيد الباقي الآن، ويجب على العرب أن يدركوا أهمية اللحظة والتوقيت، وأن من مصلحتهم زيادة النفوذ التركي في المنطقة؛ فحتى الآن لا يبدو أن النفوذ التركي له جوانب سلبية تفوق جوانبه الإيجابية، ولكن على الجانب الآخر فإن قطع اليد التركية الممدودة بالشراكة والصداقة العميقة سوف يمثل خطأً تاريخياً.. هذه المرة ربما لا نجد وقتاً أو فرصة لإصلاحه، إذا ما تنامى النفوذان (الإيراني والإسرائيلي) وسيستحيل حينها عكس عقارب الساعة إلى الوراء.

بيع الأراضي الفلسطينية: حقيقة أم باطل؟

أنـــور محـــمـــود زنـــاتي
anwer1122@yahoo.com

رحلة تمكين الغرباء:

مارست الحركة الصهيونية من أجل تحقيق كيانٍ يهودي مزوَّر إرهابها ضد الشـــعب المسلم في فلسطين لإكراهه على تركِ بلاده وهجر أراضيه؛ حتى تبقى لهم الأرض خاليةً من السكان.

و في هذه الدراســـة ســـوف نناقش مدى صحة أو زيف ما يقال حول بيع الفلســـطينيين أرضهم لليهود، مستندين إلى الوثائق والأرقام الموثوق فيها، وإلى الموضوعية قَدْر المستطاع.

ولمناقشة هذه القضية لا بد من العودة إلى جذور المشكلة من بداية القرن التاسع عشـــر أثناء الحكم العثماني[١]؛ حيث كانت الأراضي الفلسطينية من حيث ملكيتُها تتبع جهات عدَّة، هي: ملكيات إقطاعية كبيرة يتقاسمها ملاَّكٌ كبارٌ فلسطينيون وعـــرب غير فلســـطينيين، ثـــم أراضي الوقف الإســـلامي، وأراضي الكنائس المسيحية، والأراضي الخاصة لصغار الملاَّك الفلســـطينيين. أما الملكيات الكبيرة، فقد تقاسمها ملاَّكٌ كبارٌ من الفلســـطينيين أو من العرب الســـوريين واللبنانيين الذين تجمعـــت في أيديهم الأراضي غالباً في ظل وحدة الأرض أيام الخلافة العثمانية.

وكانت البدايات الأولى لشـــراء اليهود أراضٍ في فلسطين عام ١٨٥٥م على يد موشي مونتفيوري Montefiore[٢] زمن السلطان عبد المجيد[٣]؛ نتيجة تدخُّل بريطانيا لدى السلطات العثمانية، فأصدر الســـلطان فرماناً سنة ١٨٤٩م يجيز لليهود شـــراء الأراضي في الديار المقدســـة في منطقة موزا (غرب القـــدس)؛ وقد أقيم عليها في ما بعد الحي اليهودي المعروف بحي مونتفيوري[٤].

وبذلك كانت بداية مواطئ أقدام الصهاينة في فلســـطين وفي القدس قلب العقيدة بالذات، ليمتدُّوا بعدها كالأخطبوط في أرجاء فلســـطين[٥]، وقد استمرت عملية تسريب الأراضي في فلســـطين إلى الأجانب بعد إقـــرار إصلاحات وتنظيمات عُرِفَت باســـم: «التنظيمات الخيريـــة» عام ١٨٥٦م. وبموجب هذه التنظيمات أصدرت الدولة العثمانية قانون الأراضي عام ١٨٥٨م [٦]، ثـــم تبع ذلك إصدار العديد من القوانين اللاحقة، فأصدرت لائحة تعليمات بحق ســـندات التمليك عام ١٨٥٩م، ثم إعلان قانون التمليك عام ١٨٦١م، وملحقاته عام ١٨٦٧م[٧]، ونظام تملُّـــك الأجانب عام ١٨٦٩م[٨]، ســـواء كانوا أفراداً أو مؤسســـات أو شـــركات في جميـــع أراضي الدولة، وســـواء داخل المـــدن أو خارجها[٩]؛ ونتيجة لذلك قامت الدول الأوربية: كبريطانيا وفرنسا وروسيا بإرسال رعاياها للإقامة في فلسطين والعمل على شراء الأراضي وإقامة المستعمرات[١٠].

---

(١) (١٥١٦م – ١٩١٧م / ٩٢٢هـ – ١٣٣٦هـ).

(٢) موشي مونتفيوري (١٧٨٤م – ١٨٨٥م): ثري يهودي بريطاني، زعيم الجماعة اليهودية في بريطانيا، ومن كبار المدافعين عن الحقوق المدنية لليهود في إنجلترا والعالم. موسوعة عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية: ٦/ ١٧٧.

(٣) (١٨٣٩م – ١٨٦١م).

(٤) للمزيد راجع: روث كارك، الأراضي واستصلاحها أثناء زيارة مونتفيوري الثانية إلى فلسطين ١٨٣٩م، مجلة كاثدرا (القدس، العدد ٣٣، ١٩٨٦م)، ص ٤.

(5) Ben Halpern. The Idea of the Jewish State. Cambridge.Mass.1961.p105

(٦) قانون الأراضي لسنة ١٨٥٨م، المنشور في مجموعة عارف رمضان (الحكم العثماني)، بتاريخ: (١/ ٦/ ١٩٢٥م)، ص ٧.

(٧) إبراهيم رضوان الجندي: الأرض والفلاح الفلسطيني في ظل الانتداب البريطاني، مجلة آفاق عربية، ع ٨، ص ٢٨، ١٩٧٩م.

(٨) وكان قبله لا يحق للأجنبي استملاك الأراضي في الدولة العثمانية لأي سببٍ من الأسباب.

(٩) محمد عيسى صالحية، مدينة القدس، (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات، ٢٠٠٩م)، ص ١٥.

(١٠) المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات
http://www.malaf.info/?page=show_details&Id=12&table=table_141&CatId=162 .

وفي ما يلي جـــدول يبيِّن حيازة الأراضي في فلســـطين ومراحل انتهابها أثناء العهد العثماني وحتى عام ١٩٤٧م[١].

المساحة بالدونم	تاريخ الانتقال	الكيفية التي حصل بواسطتها الانتقال	الجهة التي آلت إليها
٢٤٥,٥٨١	حتى عام ١٩١٤م	جرى الحصول عليها بطرق غير مشروعة أثناء العهد العثماني	مستوطنات وأفراد
١٧٥,٠١٩	مابين ١٩١٤م – ١٩٢٠م	فترة إغلاق دوائر التسجيل أثناء الحكم العسكري البريطاني	مستوطنات وأفراد
٤٠,٠٠٠	١٩٢٠م	من خلال وضع اليد على أراضي جنوب يافا	إلى مستوطني عيون قارة «ريشون ليزيون»
٣٨١,٠٠٠	١٩٢١م	أراضي بيسان من خلال اتفاقية غور المدورة	شركة إنماء الأراضي الصهيونية
٣٩,٠٠٠	١٩٢١م	أراضي عتليت والكبارة وقيسارية انتزعتها الحكومة	لجمعية البيكا الصهيونية
١٨,٠٠٠	١٩٢١م	امتياز روتنبرج لتوليد الكهرباء	منحته الحكومة كامتياز
١٢٠,٠٠٠	١٩٢١م	من أوقاف الكنائس والشكات بدعوى تسديد ديون البطريركية وتعيين لجان خاصة	ادعت الحكومة ملكيتها وسلّمتها للبيكا
١٠,٠٠٠	١٩٢٥م	أراضي الباجور انتزعتها الحكومة من صاحبها يوسف الخوري	لجمعية البيكا
١٠٠,٠٠٠	١٩٢٩م	قريتي: جبلين وكوكب وتوابعها وقف الجزامي انتزعتها الحكومة	لشركة كهرباء فلسطين اليهودية
٨,٠٠٠	١٩٣٣م	أراضي سيرين	نقلته الحكومة للبيكا
١٦٥,٠٠٠	١٩٣٤م	امتياز الحولة دفع اليهود ثمناً رمزياً لنحو ٥٧ ألف دونم من إجمالي المساحة	لشركة إنماء الأراضي الصهيونية
١٣٩,٠٠٠	١٩٣٤م	امتياز البحر الميت	لشركة البوتاس اليهودية
٤,٠٠٥	١٩٤٥م	بركة رمضان (وَقْف خليل الرحمن) قضاء القدس انتزعتها الحكومة	شركة إنماء الأراضي
٢٥,٣٥١	١٩٤٥م	في منطقة بئر السبع بوضع اليد	شركة البوتاس
٢٢,٩٤٨	١٩٤٦م – ١٩٤٧م	باعته الحكومة خلال الفترة	شركة البوتاس
١٥,٠٠٠	١٩٤٠م – ١٩٤٧م	أراض انتزعت الحكومة ملكيتها من العرب	تم تحويل أجزاء منها لليهود
٨,٠٠٠	١٩٤٠م – ١٩٤٧م	أراض جرى تحويلها من صنف لآخر لتصبح باسم المندوب السامي	حُوّل معظمها لليهود
١١٧,١١٩	حتى عام ١٩٤٧م	أراض صودرت قبل صدور أحكامٍ قضائية نهائية بشأنها	حُوّل معظمها لليهود
١,٦٣٤,٢١٨	حتى عام ١٩٤٧م	المجموع	
٩٠٪		النسبة لمجموع ما انتقل لليهود من أراضٍ	تعتبر بريطانيا مسؤولة عنها: سواء مسؤولية مباشرة أو غير مباشرة

(١) هند أمين البديري، أراضي فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ: دراسة وثائقية (القاهرة: جامعة الدول العربية ١٩٩٨)، ص ٢٣٧.

يشـــير الجدول السابق إلى أن مساحة ملكية اليهود بلغت (١,٦٣٤,٢١٨) دونماً. منها (٢٤٥,٥٨١) دونماً، (١٥ ٪) حتى

عام ١٩١٤م، أي خلال العصر العثماني.

يـــدل ما تقدم ذكره على أن ما حققتـــه الصهيونية خلال الانتداب البريطاني لا يقارن مع ما تم خلال الحكم العثماني.

والجديـــر بالذكـــر أنـــه لـــم يكـــن لليهـــود أي حيـــازات للأراضـــي الزراعيـــة في فلســـطين حتـــى عام ١٨٦٨م[٢]، كمـــا لـــم يـــزد عددهـــم حتى عـــام ١٨٧٧م عن ١,٣ ٪ بالنسبة لإجمـــالي عـــدد سكان فلسطـــين. ولكـــن مع فتح إمكانية تملُّك الأجانب وتســـجيل أراضٍ كأملاكٍ خاصة، والسماح للأجانب بشراء الأراضي وما تبع ذلك من عملية بناء المســـتعمرات الصهيونية في أنحاءَ مختلفة من فلسطين، كل ذلك كان المحرك الأساسي للمرحلة الأولى من تسرُّب وانتقال الأراضي من العرب الفلســـطينيين إلـــى غيرهم بما في ذلك مندوبي الحركة الصهيونية[٣].

وقد لجـــأ اليهود إلى طريق التحايل على القوانين العثمانية، بأســـاليب ملتوية، وهو ما أدى إلى اقتنـــاص (١١٨,٠٠٠) دونم، وكذا مضاعفة عدد اليهود في فلســـطين الذي وصل عام ١٩١٥م إلى ٣٨ ألف يهودي بنســـبة ٥.٣ ٪ من ســـكان عرب فلسطين، وارتفع عام ١٩١٨م إلى ٨.٥ ٪ من عدد السكان[٤].

(٢) هند أمين البديري: فلسطين وأكذوبة بيع الأراضي، جريدة الأهرام، ع – ٤١٤٣٧، ١٩ – ٥ – ٢٠٠٠م

(٣) راسم خمايسي: هكذا سُرِّبت ونُزِعَت الأرض في فلسطين، مركز بديل لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين
http://www.badil.org/en/haq-alawda/item/361-article13

(٤) هند أمين البديري: فلسطين وأكذوبة بيع الأراضي، مرجع سابق.

وكان عهد الاتحاد والترقي İttihad ve Terakki Cemiyeti [1] (١٩٠٩م – ١٩١٨م) هو العهد الذهبي بالنسبة لشراء اليهود للأراضي في فلسطين؛ فهناك وثيقة تشير إلى نوعٍ واضحٍ من التساهل مع تملُّك أجانب للأراضي الفلسطينية مع السماح لهم بتشجيرها وزراعتها مع العلم أنها ستُسكن من قِبَل اليهود. كما نجد تقريراً أعدته دائرة المخابرات العمومية في وزارة الداخلية العثمانية ورفعته إلى مقام الصدارة السامي بتاريخ ٢١ يناير عام ١٩١٢م حول طلبٍ تلقَّته الخارجية العثمانية من السفارة الألمانية في إسطنبول، يتعلق بإجراء المعاملة الفراغية للأرض المعدَّة للبناء، الكائنة في مدينة حيفا، والتي يرغب بشرائها الدكتور أورباخ (وهو من التابعية الألمانية من مواطنة كريك كيلر)، يبين التقرير أن السفارة الألمانية أوضحت في طلبها إلى الخارجية العثمانية أن الحكومة المحلية تمانع إجراء هذه المعاملة، وأن هذه الممانعة مغايرة لأحكام بروتوكول استملاك الأملاك، وهكذا توصي الخارجية بجواز إجراء المعاملة على اعتبار أن اليهودي الألماني من قدامى الساكنين رغم أنه قَدِم إلى فلسطين منذ عامين ونصف وحسب[2].

وارتفعت نسبة اليهود إلى العرب في فلسطين إلى ٩,٧ ٪ في سنة ١٩١٤م، واستمرت في الارتفاع لتصل مقارنة بعرب فلسطين إلى ٣٥,١ ٪ قبيل سنة ١٩٤٨م. وكان مجموع ما يحوزه اليهود من أراضي فلسطين قبل سنة ١٩١٤م لا يتجاوز ١,٥ ٪، ثم ارتفعت هذه النسبة لتصبح ٥,٦٧ ٪ قبيل سنة ١٩٤٨م، وبينما كان مجموع عدد المستوطنات على عهد السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٧م لا يتجاوز ٢٧ مستوطنة في فلسطين كلها، ارتفع هذا العدد ليبلغ ٤٧ مستوطنة عام ١٩١٤م، ثم ٧١ مستوطنة عام ١٩٢٢م، وفي عام ١٩٤٤م قفز العدد إلى ٢٥٩ مستوطنة، ثم وصل إلى ٢٧٧ مستوطنة قبيل إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م[3].

ردُّ الفعل:

قام علماء فلسطين وممثلوها لدى السلطات العثمانية بالتنبيه إلى خطر الاستيطان اليهودي والمطالبة بإجراءات صارمة لمواجهته. وترأس الشيخ محمد طاهر الحسيني مفتي القدس سنة ١٨٩٧م هيئةً محلية ذات صلاحيات حكومية للتدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية بيت المقدس، فحال دون انتقال أراضٍ كثيرةٍ لليهود. وكان للشيخ سليمان التاجي الفاروقي الذي أسس الحزب الوطني العثماني في سنة ١٩١١م دوره في التحذير من الخطر الصهيوني، وكذلك فعل يوسف الخالدي، وروحي الخالدي، وسعيد الحسيني ونجيب نصار[4].

وقد شاركت الصحف أيضاً في فضح المؤامرة، مثل: الكرمل، والدفاع، والجامعة العربية، وفلسطين... فعندما أقدمت السلطة العثمانية على بيع الأراضي للمنظمات اليهودية مثل الصندوق القومي اليهودي «الكيرن كايمت» (Keren Kayemeth) والصندوق التأسيسي «كيرن هايسود» (Hayesod Keren)، أبرزت «الكرمل» بشكل لا يقبل الجدل سياسة السلطة العثمانية ثم الانتداب البريطاني لتمليك اليهود أراضٍ فلسطينية؛ فكتب نجيب نصار[5] يقول[6]: «في نابلس قامت في تموز ١٩١٣م مظاهرة ضد اعتزام السلطات بيع أراضي بيسان التابعة للدولة للمنظّمة الصهيونية، كما أرسل المزارعون في سهل بيسان برقيات احتجاج على بيع أراضيهم»، وبيَّنت الكرمل أن «حتمية تنظيم العمل والجهود كانت ذات أثر فعال في التمهيد لظهور جمعية مكافحة الصهيونية التي اتخذت من نابلس مقرها الرئيسي مع إقامة فروع لها في بعض المدن الفلسطينية الأخرى».

وبمجرد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها بدأت

(١) حركة سياسية كانت توجّه مقدرات الدولة العثمانية وتدير شؤونها منذ الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨م حتى هزيمة الدولة في الحرب العالمية الأولى وتوقيع معاهدة مودروس Modrus عام ١٩١٨م، وتأسست عام ١٨٩٤، راجع الموسوعة العربية http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=1479.

(٢) قناة الجزيرة، برنامج أرشيفهم وتاريخنا، الحلقة الثالثة بتاريخ: ١٣/٢/٢٠٠٩م. http://www.aljazeera.net/NR/exeres/CE5F44EC-9718499-E-A071-EE039B48C40A.

(٣) غازي فلاح: إسرائيل والأرض الفلسطينية. مجلة الدراسات الفلسطينية، ع ٤٢ (ربيع ٢٠٠٠)، ص ٦٧.

(٤) المرجع السابق، ص٤٣ – ٦٧.

(٥) نجيب نصار: شيخ الصحافة الفلسطينية ومؤسس صحيفة «الكرمل»، ولد في لبنان عام ١٨٧٣م، درس في الجامعة الأمريكية في بيروت، فرع الصيدلية والعلوم السياسية. أتاحت الفرصةُ لنجيب نصار أثناء عمله في مدينة طبريا والقدس الاختلاطَ المباشر بالمهاجرين اليهود؛ حيث تعرَّف نصار إلى المخطط اليهودي، وإلى فكرة إقامة الدولة اليهودية على أرضي فلسطين بحسب جدول زمني منظم، فكان هذا الأمر دافعاً أساسياً إلى تأسيسه جريدة «الكرمل» الحيفاوية. راجع: عبد الوهاب الكيالي تاريخ فلسطين الحديث، ص ٥٤.

(٦) «الكرمل»، عدد ١٢/٨/١٩١٣، وعدد ١٩/٩/١٩١٣م.

الخطط في التحـــرك على الأرض وأوَّل هـــذه الخطط كان مؤتمر الصلح في باريس[١] في أوائل عام ١٩١٩م، وقد أعدت الحركة الصهيونيـــة بياناً لتقديمه أمام هـــذا المؤتمر؛ حيث يبدأ هذا التصريح أو الخطة بإشارات إلى العلاقة التاريخية لليهود في فلسطين كوطن قومي، ودعوات للمؤتمر في صيغة قـــرارات مقترحة للقبول بانتـــداب بريطاني من عصبة الأمم يضع فلسطين تحت ظروف اقتصادية وسياسية تمهد لإنشاء الوطن القومي لليهود تنفيذاً لوعد بلفور[٢].

وتنفيذاً لسياسة الوطن القومي في البلاد، اشترك الصهاينة من اليهود وغيـــر اليهود في الحكومة المدنيـــة التي أقيمت عام ١٩٢٠م في فلسطين، وكان على رأسها هربرت صموئيل (١٩٢٠م – ١٩٢٥م) Herbert Samuel [٣] أول مندوب ســـامي بريطاني في فلســـطين بعد صدور قرار الانتـــداب، وكان معروفاً بتعصبه للحركة الصهيونية، وهو من الساســـة البريطانيين الذين ناصروا حاييم وايزمـــان وفكرة الوطن القومي[٤]، وقـــام بمنح ١٧٥ ألف دونم من أخصب أراضي الدولة على الساحل بين حيفا وقيسارية لليهود، وتكررت هِبَاته الضخمة من الأراضي الساحلية الأخرى، وفي النقب وعلى ساحل البحر الميت[٥].

وبدت تلك علامةً مبشِّـــرةً للصهاينة، ونذيرَ ســـوء للعرب وكان صموئيـــل ملتزمـــاً بوعد بلفور[٦]؛ فشـــرع صموئيل في إصدار القوانين لتسهيل تحقيق تحالفٍ (صهيوني – بريطاني) من أجل إنشاء دولة صهيونية في فلسطين.

وبين ســـنتي ١٩٣٧م و ١٩٤٨م، صيغت عـــدة خطط ترحيل صهيونية، منها: خطة سوسكين للترحيل القسري (سنة ١٩٣٧م)، وخطة فايتس للترحيل (ديســـمبر١٩٣٧م)، وخطـــة يونيه (يوليو ١٩٣٨)، وخطـــة روبين (يونيـــو ١٩٣٨م)، وخطة الجزيرة (١٩٣٨م – ١٩٤٢م)، وخطـــة إدوارد نورمان للترحيـــل إلى العراق (١٩٣٤م – ١٩٤٨م)، وخطة بن غوريون (١٩٤٣م – ١٩٤٨م)، وخطة يوســـف شختمان للترحيل القسري (عام ١٩٤٨م)، وفي الفترة نفسها أُلِّفت ثلاث لجـــان ترحيل: اللجنتان الأوليان أَلَّفتهمـــا الوكالة اليهودية (١٩٣٧م – ١٩٤٢م). أمـــا اللجنـــة الثالثة فقـــد أَلَّفتها الحكومة الإسرائيلية سنة ١٩٤٨م[٧]. وقبيل الحرب العالمية الثانية مارست بريطانيـــا وقواتها العســـكرية (من جيش وبوليس) أبشـــع أنواع العقوبات ضد العرب واســـتخدمت كل ما لديها لإخماد الحركات الثورية العربية: من اضطهاد وقتل وتعذيب ونفي[٨].

ووقف زعماء الحركة الصهيونية يســـاعدهم الاســـتعمار البريطاني في وجه الشـــعب الفلسطيني، وحاولوا قهره بتهجير اليهود إلى البلاد لإيجاد أكثرية يهودية ساحقة بواسطة الهجرة الواسعة؛ لكي تسود ســـيطرتهم في البلاد؛ فيتمكنوا من صبغ فلســـطين بالصبغة اليهودية، ومن ثَمَّ إجلاء الفلسطينيين إلى خارج فلسطين، وسلب حقوقهم والإقامة مكانهم[٩].

وهكذا فإن عملية انتقال حيازة الأراضي وملكيتها من اليد العربية الفلســـطينية إلى اليـــد الصهيونية خلال حوالي ١٠٠ عام لم تتجاوز ٥,٦٧ من مســـاحة فلسطين؛ رغم التسهيلات القانونية والإدارية والســـلطوية، خاصة فـــي فترة الانتداب، ورغم الإغراءات التي مارستها الحركة الصهيونية والضغوطات والأعبـــاء الضريبية التي فُرِضت علـــى المالكين خلال الفترة العثمانية والانتدابية، التي دفعت جزءاً منهم إلى إرجاء تسجيل الأرض، ولكن لا يمكن الادعاء أنهم تنازلوا عنها[١٠]، وهذه هي النســـبة التي روجت الصهيونية لها عبـــر آلة إعلامها؛ أي أن الفلسطينيين باعوا أراضيهم وقد سرت هذه الافتراءات سريان النار بالهشـــيم[١١]؛ ولذا تقول (روزماري) الباحثة البريطانية:

(١) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوربا والعالم في العصر الحديث، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٩٧).

(٢) قناة الجزيرة، برنامج أرشيفهم وتاريخنا، الحلقة الرابعة بتاريخ: ٢٠٠٩/٢/١٩م.
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/DE6EF1E56-FDA-40F7-A9E3-CE74D818D7C4.

(٣) هربرت صموئيل: سياسي بريطاني يهودي، وأول مندوب سامي بريطاني في فلسطين. ولد لعائلة يهودية أرثوذكسية تعمل بتجارة الذهب والأعمال المالية (كان أبوه شريكاً في شركة صموئيل ومونتاجو). وقد تلقى تعليمه في جامعة أكسفورد، وانضم إلى الحزب الليبرالي، ورشح نفسه للانتخابات ونجح سنة ١٩٠٢م. وتدرَّج صموئيل في عدد من الوظائف إلى أن أصبح وزيراً في الوزارة البريطانية، وكان بذلك أول إنجليزي يهودي يشغل هذا المنصب.
Britannica, vol. 10, p. 382

(٤) وولتر لين، أوري وديفز: الصندوق القومي اليهودي، ترجمة محمود زيدان، رضوان مولوي، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، عام ١٩٩٠)، ص٥٩.

(٥) الموسوعة الفلسطينية: ١/ ١٨٠.

(٦) كارين أرمسترونج: القدس مدينة واحدة... عقائد ثلاث، ترجمة، فاطمة نصر، محمد عناني (سلسلة مكتبة الأسرة) (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠٠٩)، ص ٦٠٤.

(٧) نور الدين مصالحة: التصوُّر الصهيوني للترحيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد ٧، صيف ١٩٩١، ص ٢٨ – ٢٩.

(٨) محمد عيسى صالحية: مدينة القدس، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٩) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ترجمة فؤاد جديد، (دمشق: مكتب الخدمات الطباعية)، ص ١٩.

(١٠) راسم خمايسي: هكذا سُرِّبت ونُزِعَت الأرض في فلسطين، مركز بديل لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين.
http://www.badil.org/en/haq-alawda/item/361-article13

(١١) هند أمين البديري: فلسطين وأكذوبة بيع الأراضي، مرجع سابق.

«لقد آذى التشـــهيرُ الفلسطينيينَ أكثر مما آذاهم الفقر. وأكثر الاتهامـــات إيلاماً، كان الاتهام بأنهم باعـــوا أرضهم؛ أو أنهم هربوا بجبن، وقد أدَّى الافتقار إلى تاريخ عربيٍّ صحيح لعمليَّة الاقتلاع (التي لم تُروَ إلا مجزَّأة حتى الآن) بالجمهور العربي، إلى البقاء على جهله، بما حدث فعلاً[1].

وقعت الواقعة (قرار التقسيم):

لقد حاول قرار الأمم المتحدة المجحف بتقســـيم فلسطين أن يضفي شـــرعية على إنشـــاء الكيان الصهيوني على أرض فلســـطين، وكان مـــن أبرز أوجه الظلم التـــي نتجت عن هذا القرار تمزيق شـــعب فلسطين وتشـــريده؛ ففي المنطقة التي قضى التقسيم إعطاءها لليهود (٥٤ ٪ من الأرض) كان يعيش ٤٩٨ ألـــف يهودي و ٤٩٧ ألف عربي، وفي المنطقة التي قضى بإعطائها للعرب (٤٥ ٪ من الأرض) كان يعيش ٧٢٥ ألف عربي و ١٠ آلاف يهـــودي فقط، بينما تَقَرر وضع منطقة القدس (١ ٪ من الأرض) تحت إشـــراف دولي؛ حيث يسكنها ١٠٥ آلاف عربي، و ١٠٠ ألف يهودي[2]؛ بينما قَبْلَ التقســـيم كان اليهود يملكون نحو ٦,٥ ٪ منها فقط.

ثار شعب فلسطين ثورة عارمة احتجاجاً على هذا القرار الفاجع، وراحـــت الهاغانا تنفذ خطة هجومية شـــاملة ليس فقط للســـيطرة على ما حدده قرار التقسيم للدولة اليهودية وهو ٥٦,٤٧ ٪ من مســـاحة أراضي فلسطين بل لتوسيع هذه الحدود أيضاً، متَّبِعة الخطة (د) أو حدوة الحصان التي تعتمد على توصيل المناطق اليهودية وربطها ببعضها عن طريق تدمير القرى العربية واحتلالها وطرد ســـكانها من خلال محاصرة هذه القرى من ثلاثة جوانـــب، وإطلاق النيران الكثيفة عليها ليلاً والناس نيام دون ســـابق إنذار؛ وهو ما كان يلقي الرعب والهلع في قلوب الأهالي الذين كانوا يتركون كل عزيز ونفيس بعـــد أن تحصد النيران أعداداً كثيـــرة منهم لينطلقوا تائهين مشـــردين بين جريح ومريض وعاجز. وحـــين كانوا يحاولون العودة بعد هـــدوء القصف كانت القوات الصهيونية تنتظرهم بالمرصاد؛ ليحصدوهم تحت نيران بنادقهم وأســـلحتهم التي كانت تحصد كل من تســـوِّل له نفســـه العودة إلى أرضه، كما كان قانون (مصادرة الأرض ســـاعة الطوارئ) الذي اســـتنته العصابـــات الصهيونية أثناء حرب عـــام ١٩٤٨م يمنعهم من العودة[3].

هـل تـرك أصحـاب الأرض بلادهـم بإرادتهـم الحرة؟

لقد تحدثت القصـــة الإســـرائيلية التاريخية التي جرى تلفيقهـــا عن «انتقالٍ طوعي» جماعي أقدم عليه مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين قرروا أن يهجروا بيوتهم وقراهم مؤقتاً من أجل أن يفســـحوا الطريق أمام الجيـــوش العربية الآتية لتدمير الدولة اليهودية الوليدة[4].

ويكرر شـــمعون بيريز أن: «الفلسطينيين هربوا من قراهم ومدنهم في سنة ١٩٤٨م بأوامر من قادتهم»[5]. وتدعي السلطات الإســـرائيلية والحركة الصهيونية في الدعاية الرسمية وفي المحافـــل الدولية أن العرب هم الذين هربوا من البلاد، وكانت البلاد فارغة. وادَّعى الإسرائيليون والصهيونيون أن ما حدث ســـنة ١٩٤٨م، هو أن الزعماء العرب طلبوا من الفلسطينيين مغـــادرة قراهم ومدنَهم مؤقتاً؛ ريثما تقـــوم الجيوش العربية بالقضاء على الدولة اليهودية الوليدة؛ فاستجاب عدد كبير من الفلســـطينيين لهذا الطلب، وخرجوا بمحض إراداتهم، ظانين أنهم ســـيعودون إلى بيوتهم بعد فتـــرة وجيزة، ولكن الجيوش العربية فشـــلت في مهمتها، فطالت فترة الانتظار حتى أصبح الفلسطينيون لاجئين.

كشف الكذب ولو بعد حين:

لقد ظهر عدد من الدراسات، مثل دراسات وليد الخالدي (١٩٥٩م - ١٩٦١م)، وأيرسكين تشايلدرز (١٩٦١م) وغيرهما، وتمكنت هذه الدراســـات من دحض تلك الافتراءات؛ وسوف نتناول بعضاً من تلك الدراسات الموضوعية في ما يلي:

يؤكد الصحفي الإيرلندي أيرسكين تشايلدرز بعد قضائه عدة أشهر يتقصَّى أسباب خروج الفلسطينيين، واطلاعه على محطات الإذاعة البريطانية والأمريكية لتفحُّص تســـجيلات البث الإذاعي التي سُـــجِّلت خلال ســـنة ١٩٤٨م، ثم قرر في نهايـــة مطافه أنه: «ليس هناك أمـــر أو نداء أو اقتراح واحد

(١) عيسى القدومي: فلسطين وأكذوبة بيع الأرض، مرجع سابق، ص ١٣.
(٢) الموسوعة الفلسطينية: ١/ ٥٥٩ - ٥٦٠.

(٣) هند أمين البديري: فلسطين وأكذوبة بيع الأراضي، مرجع سابق.
(٤) إيلان بابه: التطهير العرقي في فلسطين، ترجمه أحمد خليفة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٢٠٠٧)، ص ٤.
(5) Shimon Peres, The New Middle East, With Arye Naor (London: Shaftesbury) Element Books, 1993), p. 198.

يمكـــن أن تكون قد بثته أي إذاعـــة عربية داخل أو خارج فلســـطين خلال عام ١٩٤٨م يتعلق بتشـــجيع الفلسطينيين على الرحيل، بل على العكس من ذلك؛ فقد تم التقاط تســـجيلات متكررة لنداءات وأوامر موجهة من إذاعات عربية إلى الفلســـطينيين تطلب منهم البقاء في فلسطين».

ووجد تشـــايلدرز أدلة واضحة على أن الإذاعة الإســـرائيلية كانـــت تبـــث برامـــج بالعربية لحث الفلسطينيين على الرحيل[١]. ووجد أيضاً أن الإذاعة الإســـرائيلية التي تبث باللغة العربية، هي التي كانت تنشر الخوف في قلوب السكان[٢]، وأكد هذا الكشفَ بني موريس[٣].

ولـــم تُصدِر اللجنة العربية العليا أوامرها للفلســـطينيين بالنـــزوح (لإفساح المجال للجيوش العربية)، كما تروج الدعاية الصهيونية، بل على العكس من ذلك؛ فهناك أكثر من رســـالة رســـمية صادرة عـــن اللجنة، وإحداها مؤرَّخـــة في ٨ مارس عام ١٩٤٨م تطلب من الحكومـــات العربية التعاون لمنع نزوح الفلسطينيين[٤].

كما أكد الكاتب والأكاديمي اليهودي إيلان بابه[٥] من خلال أبحاثه أن اللاجئين الفلسطينيين Palestinian Refugee لم يهربوا بناءً على طلب القادة العرب لهم، بل أُخرِجوا بالقوة، موضحاً الأوامر بشـــأن التدمير والإخلاء في مضمون الخطة (داليـــت Dalet)[٦] التابعة للهاغانا، لكنـــه ألقى لوماً جزئياً على تنازل القيادة الفلســـطينية، والدور الذي لعبته السلطات البريطانيـــة قبيل أيار عام ١٩٤٩م[٧]. وهـــو الأمر الذي أكده

مناحم بيغن عندما قال: «كان لمذبحة دير ياســـين نتائج كبيرة غير متوقعة؛ فقد أصيب العرب بعد أخبار دير ياســـين بهلع قوي فأخذوا يفرون مذعورين»[٨].

كما أيد مايكل بالومبو (Michael Palumbo)، صحة الرواية الفلســـطينية لأحداث عام ١٩٤٨م، استناداً إلى وثائق الأمم المتحـــدة ومقابلات مع لاجئين ومعنيين فلســـطينيين. في كتابـــه القيم: النكبة الفلســـطينية (The Palestinian Catastrophe) الذي نشر في سنة ١٩٨٧م[٩].

مما ســـبق يتضح لنا أن الفرية التي روجت لها الصهيونية بشكل غير مسبوق في ما يتعلق ببيع الفلسطينيين لأراضيهم، قد كانت بهـــدف تغطية جرائمها ومجازرها الوحشـــية التي ارتكبتها أثناء الحرب التي شـــنتها قوات الاحتلال الإسرائيلي لطرد الفلسطينيين من أراضيهم، وليس هذا ما أعطاهم إياه حق التقســـيم، ولكن لتوســـيع حدود المحتل، والسيطرة على المناطق الإســـتراتيجية في فلســـطين، ومن ناحية أخرى نجد أن قوات الاحتلال قامت بتشـــويه صورة الفلســـطينيين أمام إخوانهـــم العرب حتـــى لا يتعاطفوا معهم أو يســـاندوهم في معاركهم لاسترداد أراضيهم[١٠].

من ذا يعيرك عينَه تبكي بها؟
أرايـــتَ عينـــاً للـــبكاءِ تُـــعَـــارُ؟

(١) كليفورد رايت: حقائق وأباطيل في الصراع العربي الإسرائيلي، ترجمة عبد الله عريقات وعبد الله عيَّاد، (عمان: دار الناصر، ١٩٩٢)، ص٢٣ – ٢٤.

(٢) شريف كناعنة: الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟ (القدس: مركز القدس العالمي للدراسات الفلسطينية، عام ١٩٩٢)، ص٢٠٠.

(٣) بني موريس: ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين «وثيقة إسرائيلية»، (الأردن: دار الجليل للدراسات والأبحاث الفلسطينية، عام ١٩٩٣)، ص٨٠.

(٤) كليفورد رايت، حقائق وأباطيل، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٥) إيلان بابه: مؤرخ إسرائيلي، ينتمي إلى تيار المؤرخين الجدد، ومحاضر في العلوم السياسية في جامعة حيفا. وهو أيضاً المدير الأكاديمي لمعهد غفعات حبيبا لدراسات السلام، ورئيس معهد إميل توما للدراسات الفلسطينية في حيفا. وقد ألَّف عدة كتب، منها: تاريخ فلسطين الحديثة، والشرق الأوسط الجديد، والتطهير العرقي في فلسطين.

(٦) وُضِعَت الخطة داليت في ١٠ آذار/ مارس ١٩٤٨، كارين أرمسترونج: القدس مدينة واحدة... عقائد ثلاث، مرجع سابق، ص ٦٢١.

(7) Ilan Pappe «Post-Zionist Critique on Israel and the Palestinian, Popular Culture». J.P.S Issue 104, No. 4, Summer 1997

(8) Manachem Begin, THE REVOLT, LONDON, IST EDITION, 1972, P 165.

(9) Michael Palumbo, The Palestinian Catastrophe: The 1948 Expulsion of a People from Their Homeland. London: Faber and Faber, 1987..

(١٠) هند أمين البديري: فلسطين وأكذوبة بيع الأراضي، مرجع سابق.

إيران وأمريكا...
لماذا تحتاجان إلى القاعدة؟

أحمد فهمي
afahmee@albayan-magazine.com

إيران:

نجحت إيران في اختراق المقاومة العراقية والتشويش عليها عن طريق القاعدة. والاختراق لا يعني بالضرورة صرف الجماعة المُخترَقة عن تنفيذ أهدافها الخاصة وَفْقَ رؤيتها، ولكنه قد يتضمن تحقيق قَدْر من التوجيه في ما يتعلق بـ (التوقيت أو اختيار الأهداف)

إن أدوات الاختراق معروفة وتشمل: التمويل، والإيواء، وسائر أنواع الدعم اللوجستي؛ وليس بالضرورة أن يكون الاختراق شاملاً لكل المستويات القيادية، أو أن يصل إلى مستوى إصدار تكليفات مباشرة.

وتحتاج إيران إلى أطرافٍ يمكنها أن تؤثِّرَ في الأوضاع وتستهدفَ القوى العراقية دون أن يكون هناك ما يربطهم بها تاريخياً أو دينياً أو سياسياً، بل يمكنها أن تنفي بقوة أي ارتباط بها بسبب التنافر العقدي في حالة القاعدة.

ويمكن – ضمن الإستراتيجية الإيرانية – ملاحظة أن الإيرانيين يتقنون استخدام أطرافٍ يجري حرقها لاحقاً؛ بمعنى أنه يمكن التضحية بهم في أي وقت، أو رفع الدعم عنهم، أو كشفهم.

وقد نفذت طهران هذه السياسة على المستوى الشيعي مع التيار الصدري وجيشه (جيش المهدي) الذي اخترقته طولاً وعرضاً وضحَّت به على مذبح المجلس الأعلى تارة، ثم على مذبح المالكي تارة أخرى، ثم قدَّمت لزعيم التيار بكلِّ بساطة الملجأ والمأوى وطلب العلم.

والأمر نفسه مارسته إيران – إجمالاً – مع القاعدة؛ حيث كان ثمة تَواصُل مقنَّن يعقبه توجيه مبرمَج ثم تضحية مؤكَّدة؛ ولعل قَتْل زعيمَي القاعدة مؤخراً قد تم بناءً على دعم استخباراتيٍّ إيراني.

إن خطورة الاختراق الإيراني للقاعدة يمكن إدراكها مِنْ توقُّع ما سيحدث إذا انسحبت قوات الاحتلال من العراق؛ حيث أغلب جماعات المقاومة سوف تلقي سلاحها وتنصرف إلى شؤونها، لكن القاعدة لن تفعل ذلك، وسيبقى سلاحها مرفوعاً لخوض معارك وهمية جديدة ضد العراقيين بتوقيع إيراني.

أمريكا:

تعتمد بعض تطبيقات السياسة الأمريكية على وجود طرف غير خاضع للسيطرة قادر على الإيذاء، يمكن نصبه عدواً قومياً، ويجري استخدام هذا العدو في أغراض متعددة، منها: إعادة ترتيب الأوراق في بعض الدول المستهدَفة مثل (العراق)، ومنها تجييش الرأي العام (المحلي والعالمي)، ومنها أيضاً تمرير ميزانيات عسكرية واستخباراتية هائلة، وكذلك تنفيذ أهداف سياسية إستراتيجية تتعلق بالأجندة الأمريكية في العالم.

وفي العراق قدَّمت القاعدة بسبب إستراتيجيتها العنيفة، مسوغاً لبقاء القوات الأمريكية، كما أنها أتاحت للاحتلال أن يعيد ترتيب البيت السُّني من الداخل، أو بتعبير أدق: (أن يعيد تفكيكه)؛ فدخلت قِطاعاتٌ عريضة من العرب السُّنة في دائرة غير متناهية من العنف؛ فالقاعدة تتعاون مع العشائر أولاً، ثم تختلف معها ويجري تكوين مجالس الصحوة التي تدخل في صراع دموي مع القاعدة، ثم تنشأ مشكلة أتباع الصحوات وإدماجهم في الجيش والشرطة، ثم تحين مرحلة انتقام القاعدة من قيادات الصحوة وعناصرها الذين تُركوا بدون حماية، وهكذا دوامة لا تنقطع من الدماء المهدرة بدون فائدة.

ويُخطئ من يعتقد أن أمريكا تحتاج إلى مكاسب مطلقة أو إلى نصرٍ نهائيٍّ في جميع الحالات؛ ذلك أن الثقافة السياسية الأمريكية مبنيَّة في جانب كبير منها على مفهوم: «استمراريةُ الصراعات قد يكون أكثر نفعاً من إنهائها»؛ لذلك لا يتم إنهاء الصراع العربي الفلسطيني، بل إدارته، وهي عندما دخلت في صراع مع القاعدة لم تستهدف إنهاء الصراع، بل إدارته... وتفريعاً على ذلك: قد لا يكون خطأً القول بأن أمريكا إذا لم تخسر بدرجة كافية، لأوقعت بنفسها الخسارة.

وهذا ينقلنا إلى القول بأن إدارة الصراع بين دولة، مثل (إيران، أو أمريكا)، وتنظيمٍ معادٍ لها مثل (القاعدة) عملية معقدة؛ فهناك ثلاثة مستويات لتعامُل الدولة (إيران، أو أمريكا) مع ذلك التنظيم:

المستوى الأول: معادلة قوة التنظيم وتهميشها ثم التفوق عليها وتدميرها... وهذه طريقة مباشرة لا تناسب الأجندتين (الأمريكية والإيرانية) في العراق.

المستوى الثاني: احتواء قوة التنظيم وتحويلُها إلى قوة مضافة، كيف ذلك؟

انطلاقاً من مفهوم «السعي الأمريكي للخسارة المقننة» فإنه لا بد من وجود عدوٍّ قادر على إيقاع هذه الخسارة، وعندما لا يتوفر مثل هذا العدو، يجري التخطيط لإيقاعها ذاتياً عن طريق عمليات سريَّة، كما حدث في الحرب الأمريكية الإسبانية، وفي معركة بيرل هاربور. أما في حالة العراق، فإن القاعدة (أو دولة العراق الإسلامية) تلعب هذا الدور في الإستراتيجية الأمريكية، وكما تذكر تقارير إخبارية فإن بعض أجهزة الاستخبارات الأجنبية في العراق تقوم بتفخيخ سيارات مدنية دون علم أصحابها وتجعلهم يقودونها إلى أماكن معيَّنة؛ حيث يجري تفجيرها؛ ليبدو الأمر وكأن القاعدة هي من فعلت ذلك، دون أن يملك الرأي العام المقدرة على التفريق بين عمليات القاعدة أو عمليات الاستخبارات.

إذن عندما تتباطئ عمليات القاعدة مؤقتاً، تتدخل الاستخبارات لتسدَّ النقص؛ وهذا هو مكمن الاحتواء؛ أي: أن يصبح جزء كبير من عمل القاعدة في العراق على نسق واحد مع تطبيقات الإستراتيجية الأمريكية.

المستوى الثالث لإدارة الصراع: اختراق التنظيم وإنشاء حالةِ تَمَاثُلٍ (جزئية) بين أهدافه وأهداف الدولة؛ ليتحول التنظيم بذلك إلى أداة غير مباشرة لتنفيذ أهداف تلك الدولة، وهذا ما نجحت فيه طهران مع تنظيم القاعدة.

وفي المحصلة: تُراوِحُ القاعدة في العراق بين (احتوائها إستراتيجياً) من أمريكا، وبين (اختراقها تكتيكياً) من إيران. والضحية في جميع الأحوال هم العرب السُّنة الذين باتوا هدفاً للجميع: (الاحتلال - إيران - القاعدة).

إن من الشواهد المحيِّرة، أنه على الرغم من تواتر المعلومات عن تقديم طهران دعماً لمجموعات القاعدة، إلا أنه يجري التغاضي عنها في حملات الدعاية الغربية ضد النظام الإيراني، رغم أن التعاون مع القاعدة كان أحد أسباب غزو العراق.

فهل يمكن القول: إن الولايات المتحدة تعلم أنه لن يمكن للقاعدة الاستمرار في العراق - وربما في مناطق أخرى - دون تلقِّي دعمٍ من إيران؟

لبنان الكبير

د. يوسف بن صالح الصغير(*)

لقد جرت العملية الانتخابية في العراق، وما زالت فصولها تُكتَب؛ فنحن أمام وضع يجمع كثيراً من التناقضات، ويمكن تلخيصه بأنه: احتلال أمريكي، وسيطرة إيرانية، وديمقراطية شكلية هدفها الأساس إضفاء الصبغة القانونية على كل ما أفرزته العملية (الأمريكية – الإيرانية) المشتركة لإسقاط النظام في العراق، وعلى رأسها استعباد أهل السُّنة؛ فقد كان إشراكهم في السلطة والعملية السياسية من البداية مرحلةً مؤقتة؛ فمُمثِّل السُّنة في مجلس الحكم الانتقالي هو الوحيد الذي وضع الجنود الأمريكان أحذيتهم على رقبته، وممثلو السُّنة في الرئاسة – سواء كانوا عرباً أو أكراداً – لم يُستَشَاروا، ولم يُلتَفَت إلى رأيهم في قَتْل الرئيس السابق، بل وقَّع المالكي أمر إعدامه، وسلَّمه الأمريكان إلى أتباع الصدر الذين قتلوه في يوم عيد الأضحى في موقع كان يُستخدَم لمواجهة النفوذ الإيراني.

إنها رموزٌ ودلالاتٌ على أن تنحية السُّنة عن الواجهة في العراق الحالي أصبحت مسألة وقت فقط؛ ففي هذه الدورة الانتخابية تحالف السُّنة مع علاوي في ما يسمى: القائمة العراقية وتعرَّض السياسيون السُّنة إلى عملية تسمى: القتل السياسي؛ فقد مُنِع أكثر من خمسمائة شخصية من المشاركة في الانتخابات بدعوى علاقتهم بالبعث، ومع ذلك استمرت العملية.

ومِنْ أبرز الذين تجري محاولة إزاحتهم عن الساحة السياسية (إبراهيم المطلق)، وهو مرشح سُني من قائمة العراقية، ومن بين المشمولين بالقرار الذي اتخذته الهيئة الانتخابية القضائية لصالح هيئة المساءلة والعدالة التي تُعنَى بتصفية الدوائر الحكومية ممن تقول: إنهم مرتبطون بحزب البعث المحظور؛ وذلك على الرغم من أنه كان عضواً في البرلمان السابق، وبقي السُّنة يمثِّلهم علاوي (الشيعي) الذي جاء مع الاحتلال المشترك. أما عضو مجلس الرئاسة المحسوب على السُّنة الذي دخل الانتخابات مع علاوي؛ فقد يعود إلى معسكر المالكي من جديد؛ إذ قد دعا السفير الإيراني في العراق (حسن كاظمي قمي) إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية في العراق تضمُّ السُّنة. وبعده قال المالكي في تصريحات صحفية: «إن القائمة العراقية جمعت في داخلها أغلب ممثلي المكون العربي السُّني؛ إذن لا بد أن يكون لهم من شراكة في تشكيل الحكومة على اعتبار أن هذا المكوِّن لا بد أن يمثَّل». وأضاف: «إن المطلوب هو تشكيل (حكومة شراكة وطنية) لضمان الاستقرار بعد سنوات من الحرب»، معتبراً أنه من المبكر للغاية بالنسبة للعراق أن يدار بحكومة أغلبية.

نعم! لم يحن الوقت لأن تنفرد الأغلبية (الشيعة) بالحكم، وحتى مجيء ذلك الوقت يجب أن يعيش العراق بعيداً عن تأثيرات وتدخُّلات قوى خارجية يرى المالكي أنها تمثل خطراً على مستقبل العراق، وذلك في هجومه على محاولة علاوي تدويل الانتخابات، ودعوته إلى تشكيل حكومة مؤقتة تحت إشراف دوليٍّ، ودعا علاوي أيضاً الجامعة العربية إلى التدخُّل لدى الأمم المتحدة، وهي محاولات بائسة اضطر بعدها إلى الدخول في القفص، وأرسل وُفدَه متأخراً إلى طهران؛ إذ تتابعت الوفود الشيعية والكردية إلى طهران بُعَيد الانتخابات للاجتماع بالمسؤولين الإيرانيين في خطوة انتقدها المالكي الذي ينتقد التدخلات الإقليمية والدولية في شؤون العراق؛ إذن الملف السياسي العراقي كلُّه في اليد الإيرانية؛ وحتى أمريكا لم تستطع أن توقف قرار إبعاد السياسيين؛ فقد زار نائبُ الرئيس الأمريكي المالكي ولم يتمكن من إقناعه بالعدول عن القرار؛ فأمريكا تحتل العراق، ولكنها سلَّمت الشأن السياسي لطهران.

إن السُّنة حالياً بين مطرقة المالكي (الإيراني – الأمريكي)، وسندان علاوي (الأمريكي – الإيراني)، وإن ما يجري حالياً في العراق يُذَكِّرنا بسابقة تاريخية عندما أُطلِقت يد سوريا في لبنان مقابل مشاركتها الفعالة في تصفية المنظمات الفلسطينية لحساب إسرائيل؛ وكما كان لبنان الصغير يقدِّم فروضَ الطاعة في دمشق فإن لبنان الكبير (العراق) يقدِّم حالياً فروض الطاعة في طهران؛ وذلك مقابل قيام إيران بدفع الحساب.

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة – جامعة الملك سعود – الرياض.

مجلة البيان

الآن ..

جديدنا في الأسواق

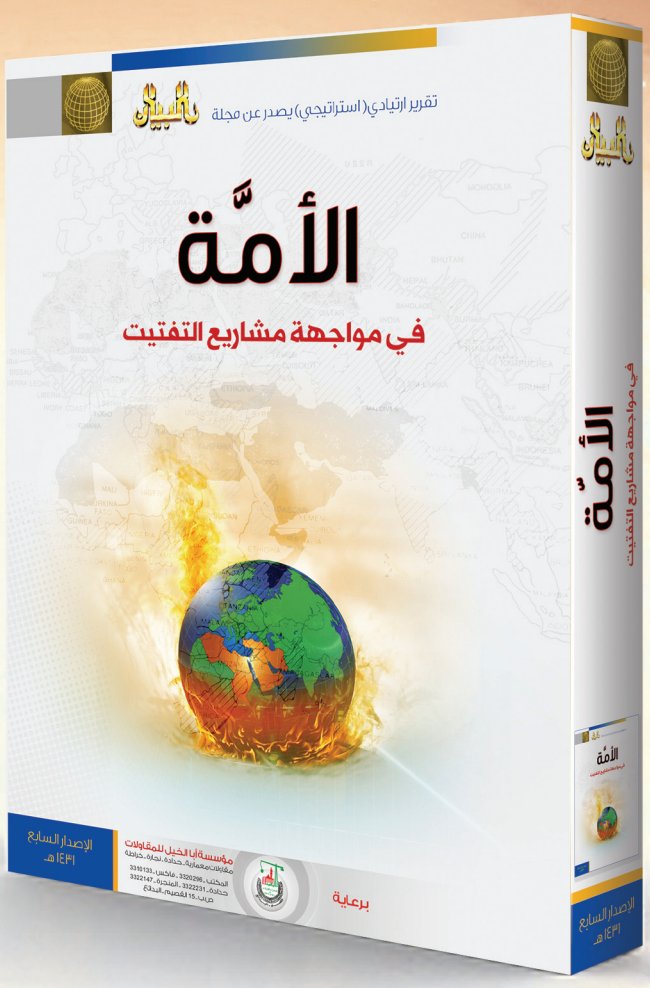

الراعي الرسمي ..

مؤسسة أبا الخيل للمقاولات

مقاولات معمارية .. حدادة .. نجارة .. خراطة

المكتب ـ 3320296 .. فاكس .. 3310133

حدادة .. 3322231 .. المنجرة .. 3322147

ص.ب .. 15 القصيم .. البدائع

بدر 0508948947

www.albayan-magazine.com

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١

التـوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جـدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـة والمدينـة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـة الجنوبيـة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقـة الشرقيـة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـة القصيـم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مسلمو كولومبيا... مواجهة خطر الذوبان!

أحمد الطنيخي
egyptnews@hotmail.com

«إن هناك غياباً للتعليم الإسلامي وندرةً في المساجد والدعاة والكتب الإسلامية». بهذه العبارة جسَّد أحد الدعاة الإسلاميين وَضْع الجالية الإسلامية في كولومبيا التي تواجه خطر الذوبان والانقراض بسبب الإقبال على الزواج من نصرانيات، والظروف الصعبة التي يواجهونها، والعداء من بعض الطوائف الدينية المتعصبة الموجودة في البلاد.

وأضاف الداعية الإسلامي: إن هذا الغياب للتعليم الإسلامي والندرة في المساجد، يعرِّض أبناء الجالية الإسلامية للجهل بدينهم وعقيدتهم، وخاصة أن عدداً كبيراً من الأبناء يتَّبعون عادات أمهاتهم المسيحيات من زيارة الكنائس والمشاركة الاحتفالات الدينية، مشيراً إلى خطرٍ آخر يهدِّدهم يتمثل في انتشار تجارة المخدرات والكوكائين وتناوُلها بين أبناء الجالية الإسلامية، بعد أن انغمسوا في هذه التجارة التي ترعاها عصاباتٌ واسعةُ القوة والنفوذ، ولها تنظيمات سياسية وعسكرية، ويتعاون معها مسؤولون كبار.

لكن على الرغم من هذه الأوضاع المتردية لمسلمي كولومبيا إلا أن عاطفتهم الإسلامية ما زالت موجودةً، واستشهد على ذلك الداعية مصطفى عبد الغني أحمد بقوله: «في أثناء زيارتي لإحدى المدن بكولومبيا التقيت بأعضاء الجالية البالغ عددهم ثلاثين شخصاً، وبعد الحديث عن الدين وأهميته في حياتنا استجابوا لأداء صلاة الظهر جماعة، وبعد الصلاة قام أحدهم يخطب قائلاً: الحمد لله أن سمعنا كلمة (الله أكبر) قبل أن نموت، ولم نكن نسمعها في هذه البلاد منذ ثلاثين سنة»، مشيراً إلى أن الجالية المسلمة الكولومبية تحتاج بشدة لتضامن إخوانهم من العالم الإسلامي، لا سيما المنظمات الإسلامية العالمية التي تهتم بشؤون الأقليات المسلمة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

التنصير بالإكراه:

ولكي نتعرف على الأسباب التي أدت إلى هذه حالة خطر الذوبان والانقراض التي وصلت إليها الجالية الإسلامية في كولومبيا، لا بد أن نتعرف على الخلفية التي واكبت دخول الإسلام إلى هذه البلاد؛ فقد دخل الإسلام إلى أمريكا اللاتينية ومنها إلى كولومبيا منذ اكتشاف الأمريكيتين في القرن الخامس عشر على يد كريستوفر كولومبوس، عن طريق العبيد الذين جُلِبُوا من شمال إفريقيا وشرقها، وقد استقر أغلبهم في البرازيل ثم انتشروا في باقي أنحاء أمريكا الشمالية والجنوبية. وقد كانت الأغلبية الساحقة لهؤلاء العبيد من المسلمين الذين أُرغِموا على ترك دينهم تحت التهديد والتعذيب، وذاب كثير منهم في هذه القارة، وتنصَّر منهم مَنْ تنصَّر تحت الإكراه البدني والنفسي والمعنوي، وبناءً على ذلك تقهقر الإسلام في هذه القارة.

وبعد تحرير العبيد وعودة كثيرٍ منهم إلى هذه الديار، بالإضافة إلى الهجرات المكثفة من الهند وباكستان ولبنان وسوريا، عاد الإسلام مرةً أخرى. وقد تمركز أغلبهم في البرازيل والأرجنتين وفنزويلا وكولومبيا.

وتعيش أغلب الجاليات المسلمة في كولومبيا بالعاصمة بوجوتا وفي مدينة ميكاو، وبرانكليا، وكالي، ومايكو، إلا أنَّ أكبر تجمُّع للمسلمين في كولومبيا يوجد في مدينة ميكاو.

وبدأ المسلمون هجرة ثانية إلى كولومبيا في خمسينيات القرن الماضي، وأغلب المهاجرين كانوا من الشام، ولم يكونوا على معرفة باللغة الإسبانية (لغة كولومبيا الأساسية)، وهو الأمر الذي عانوا منه كثيراً أثناء الحوار والتعامل مع الشعب الكولومبي، وبمجرد وصولهم إلى هذا البلد بدأ كل شخص يفكر في طريقة الحصول على الإقامة الرسمية، وكان معروفاً في ذلك الوقت أن الشخص لا يمكنه دخول الولايات المتحدة إلا إذا تزوج امرأة كولومبية زواجاً معترَفاً به في الكنيسة، ومن ثَمَّ تسابق المسلمون على الزواج من كولومبيات نصرانيات، ولم يكن لهم أي هدف سوى الحصول على الإقامة والدخول إلى أمريكا وتحسين مستوى عيشهم.

المخدرات خطر آخر يهدد مسلمي كولومبيا:

حين يتردد اسم كولومبيا يقفز إلى ذهنك مباشرةً زراعة المخدرات والكوكائين وتجارتهما؛ حيث يعود تاريخ المخدرات في كولومبيا إلى القرن السادس عشر قبل دخول الإسبان إليها؛ فقد كانت هناك قبائل من الهنود الحمر تعتمد في حياتها على الزراعة والفلاحة، ومن أهمها زراعة الكوكائين بطريقة عشوائية كنباتات عادية لا قيمة لها ولا مفعول، ومع ممارسة

هـــذه الزراعة اكتشـــف الهنود أن مضـــغ ورق (الكوكا) يعطي للجسم نشاطاً كبيراً وحيويةً تســـاعدهم على أعمال الفلاحة الشـــاقة، ومن هنا بدأت عناية الهنود بهذه الشجرة، وانتشرت لدى قبائل كولومبيا.

والآن أصبحت زراعة الكوكائين من أهم الزراعات المربحة فـــي العالم؛ بحيث انخرط في تجارة هـــذه المادة في كولومبيا والعالم كبار المسؤولين في الجيش والشرطة والوزارة والبرلمان، حتى الأحزاب السياسية.

وفي سنة ١٩٨٥م بدأت حكومة كولومبيا تعي الخطر الذي يهددها بسبب زراعة هذه الشجرة وخطورتها على العالم أجمع، واتخـــذت بعضَ الإجراءات القانونيـــة الصارمة للحد من نفوذ عصابات المخدرات التي أصبحت تنافس الدولة من حيث قوَّتها (الإعلامية والاقتصادية والعسكرية)؛ ولهذا تحصل بين الفينة والأخرى مواجهات قوية بين الجيش النظامي وهذه العصابات ينتج عنها عشـــرات من القتلى، بل مئات، وهو ما جعل النظام الكولومبي في مأزق يصعب الخروج منه.

وقـــد أغرت تجارة المخدرات هذه كثيراً من المســـلمين في كولومبيا؛ فانغمســـوا فيها وجلبت لهم ولأبنائهم الويل والدمار، وانعكست ســـلباً على معظم الجاليات الإسلامية، نظراً للفقر والحاجة وضعف المـــوارد المالية، بالإضافة إلـــى تخلِّي الدول الإسلامية والعربية عنهم، وفقدان المساعدات.

وأمـــام هذا الخطر الـــذي يهدد الجالية الإســـلامية في كولومبيا، قامت بعض الجمعيات الإسلامية في كولومبيا بجهود دعوية وتعليمية بُغيَة الحفاظ علـــى أبناء الجالية من الضياع؛ إلا أن الجهود المبذولة من قِبَل بعض الجمعيات والدعاة لنشـــر الإســـلام في كولومبيا بســـيطة جداً ولا تكاد تذكر، ومع ذلك استطاعت بعض الجمعيات والمراكز الإسلامية في كولومبيا أن تؤدي خدماتٍ شتى ســـاعدت في الحفاظ على هوية الكثيرين تحت خيمة الإســـلام، كما استطاع بعض الشيوخ والدعاة خلق صحوة داخل أوســـاط الشباب المسلم، رغم قلة الإمكانات: من مدارس ومساجد ودعاة.

كيفية مواجهة الذوبان:

هكذا تضافرت الأســـباب الخارجية والداخلية، وساعدت على ذوبان الإســـلام في كولومبيا وانخراط الجالية الإسلامية – فـــي ظل غياب دور المنظمات الإســـلامية – في المجتمع ذي الأغلبيـــة النصرانية؛ وهذا ما حثَّ بعـــضَ الباحثين والمتهمين بالإســـلام في كولومبيا، أن يضعوا خطة إســـتراتيجية علمية

للحفاظ على الأقلية المسلمة في كولومبيا، تتضمن القيام ببعض الخطوات التي تمكِّن من استقرار أوضاع الجالية الإسلامية في كولومبيا ومواجهة الأخطار، ومن أهم هذه المقترحات:

أولاً: إنشـــاء وَقْف خيري لدعم مشـــروعات الدعوة وبرامجها وتغطيـــة احتياجـــات الجالية، ويمكـــن من خلاله إيجاد مشـــاريع استثمارية تفتح فرص العمل لأبناء الجالية والمسلمين الجدد، وتشارك السلطات المحلية والدولة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ثانياً: تأسيس مدارسَ ومعاهدَ علميةً إسلاميةً مهمتها تعليم اللغـــة العربية وتحفيظ القرآن الكريم والتعريف بالإســـلام لغير المسلمين، مع ترجمة الكتب الإسلامية ونشرها باللغة الإسبانية، وربط العلاقات بالأوساط الجامعية (طلاباً وأساتذةً)، والدخول في علاقة تعاونٍ مع كبار الشخصيات الثقافية والجامعية، وتوجيه الدعوات إلى كبار أســـاتذة الجامعات الكولومبية لزيارة البلدان الإسلامية؛ لتوثيق العلاقة الثقافية والاجتماعية والدبلوماسية.

ثالثاً: إنشـــاء شـــبكة اتصالات معلوماتية لنشـــر الثقافة الإســـلامية عبر الإنترنت، مع السعي لإنشـــاء قناة تلفزيونية إســـلامية في أمريكا اللاتينيـــة تكون ناطقة باللغـــة العربية والإســـبانية، أو فتح نافذة إعلامية عـــن طريق إحدى القنوات في كولومبيا لساعات محدَّدة يجري خلالها تقديم الإسلام في صورة صحيحة وبأساليب عصرية مشوِّقة.

رابعاً: إنشاء مؤسسات اقتصادية مربحة، توفر العمل لأبناء المســـلمين، مع دفع نسبة من الربح للدعوة الإسلامية، تُنْفَق في بناء المســـاجد والمدارس، وتنظيم المخيمات الشبابية، والدورات الشرعية، وطبع الكتب وترجمتها.

خامساً: ضرورة الاهتمام بشؤون المرأة المسلمة في كولومبيا فـــي البرامج التعليمية والدروس الدينيـــة، تأكيداً على ضرورة صيانة كرامتها وعزتها، وتفعيل المؤسسات واللجان الاجتماعية المتعلقة بشأن الأسرة.

مرصد الأخبار

أطماع اليهود بأرض سيناء

صرَّح مسؤول بمحافظة جنوب سيناء (إحدى محافظات مصر) بأن جميع الأجانب الراغبين في شراء عقارات بالمناطق السياحية بجنوب سيناء هم يهود أبناء يهود؛ رغم تنوُّع جنسياتهم (على حد قوله)، مشيراً إلى أن جنوب سيناء كادت أن تتحول لفلسطين أخرى قبل إصدار قرار حق الانتفاع لمنع تملُّك الأجانب لأراضيها.

وأضاف: «إن الجهات الأمنية لفت نظرها رغبة كثير من الأجانب في شراء عقارات بدهب وشرم الشيخ ونويبع، وبعضهم ديانتهم يهودية طبقاً للتحريات الأمنية».

كما أكد النائب بمجلس الشعب المصري حميد حسين أبو غصين على ضرورة إصدار تشريع يحمي أراضي سيناء ضد الأطماع الإسرائيلية، ويمنع تملُّك الأجانب لها.

[جريدة المصري اليوم، ٢٠١٠/٣/٣١]

أنفلونزا الخنازير تصيب «الصحة العالمية»

تعرضت منظمة الصحة العالمية إلى انتقادات واسعة بسبب التقييمات الأولية التي قدمتها عن انتشار مرض أنفلونزا الخنازير، الذي صُنف على أنه وباء القرن الحادي والعشرين، وكذا التحذير من احتمال تحوُّله إلى وباءٍ عالمي يفتك بالملايين، وهو ما لم يحدث.

ويُذكَر أن تحقيقاً برلمانياً تابعاً لمجلس أوروبا قد انتقد مسألة الشفافية في صنع القرار بالمنظمة، وخصوصاً التأثير المحتمل لشركات الصناعة الدوائية على اتخاذ القرارات فيما يتعلق بالضغط من أجل إجراء اللقاح ضد المرض خلال السنة الأخيرة.

[الجزيرة، ٢٠١٠/٤/١٢]

جلال الشايب
ielshayeb@hotmail.com

إسرائيل والعالم الأفضل

امتدح ديفيد بتريوس (قائد القيادة الأمريكية الوسطى) اليهود قائلاً: «إن الناجين من محرقة اليهود في الحرب العالمية الثانية «هولوكست» جعلوا العالم «مكاناً أفضل» بتأسيسهم لإسرائيل»، مضيفاً: «إن الرجال والنساء الذين نَجَو من معسكرات الاعتقال، ومن ينحدر منهم أغنوا العالم بالعلوم والثقافة والفن والأدب. كما قدموا مساهمات عظيمة في المجالات التعليمية والاقتصادية والحكومية».

وتابع بتريوس باختصار: «لقد قام الناجون من المحرقة بجعل الولايات المتحدة والعالم مكاناً أفضل، وتركوا بصمات إنجازاتهم الخالدة أينما حَلُّوا».

[موقع الـ (سي إن إن)، ٢٠١٠/٤/١٧]

إضعاف التيار الإسلامي المعتدل!

أصدر مركز سابان لدراسات الشرق الأوسط التابع لمعهد بروكينجز في الأول من شهر مارس الماضي تقريراً بعنوان: (وَهْمُ استبعاد الإسلاميين المعتدلين في العالم العربي) للباحث المصري خليل العناني؛ وتنطلق الدراسة من فرضية مفادها: أن استبعاد الأنظمة الحاكمة للتيار الإسلامي المعتدل يؤدي إلى مرجعيات التحديث والاعتدال، ويفضي لمزيد من التطرف والعنف وظهور التيارات المتشددة، ومنها التيار السلفي.

[تقرير واشنطن العدد (٢٥٢) أبريل ٢٠١٠م]

«جورج واشنطن» تقدم مساعدات مالية إلى الأشخاص الذين يعتنقون المسيحية

كشفت شهادة صوتية منسوبة إلى «جوزيف كانر» مسؤول تكنولوجيا المعلومات النقابَ عن أسباب تأسيس مدرسة جورج واشنطن وأشكال أعمالها في المحيط من أجل أهداف تنصيرية، وأوضح جوزيف في شهادة صوتية له على موقع «أطفال المغرب» أن هذه المدرسة أُنشِئت من قِبَل منصرين إنجيليين حتى تكون ملتقىً لهؤلاء المنصرين ومقراً لهم في المغرب، مشيراً إلى أن المدرسة جرى إنشاؤها من قِبَل زوجين هما: جاك وكاثي روسنكو لتحقيق هدفين رئيسين:

أولهما: تعزيز وجود المنصرين الإنجيليين.

والثاني: هو توفير فرص عمل للمسلمين الذين جرى تنصيرهم.

وقال جوزيف: إن المدرسة تعمل على استقبال هؤلاء المنصرين في المغرب وتوفير وظائفَ لهم كتغطية للحصول على تأشيرات العمل.

وكشف (كانر) عن أن مدرسة جورج واشنطن تقدِّم مساعدات مالية إلى الأشخاص الذين يعتنقون المسيحية، مشيراً إلى أن زوجته (سيندي) كانت تستغل حصة الرياضيات لتشرح للطلاب الكتاب المقدس، وأنه شخصياً أصبح بفضل مساعده المغربي (الذي تنصَّر) قادراً على كسب ثقة الآخرين؛ لأن مساعده يتحدث لغتهم ويفهم ثقافتهم. وأضاف في شهادته أن هؤلاء المنصرين يعيشون في الأحياء المغربية حتى يتمكنوا من التحدث مع المسلمين عن المسيح والكتاب المقدس، كما أنهم يستخدمون أطفالهم لنشر الإنجيل بين أصدقائهم المسلمين؛ لأنهم - على عكس الكبار - غير مقيدين أو مراقَبين. وتابع القول: (لقد خدعنا أيضاً (مجلس الاعتماد الأمريكي)؛ لأنه يعتقد أننا مدرسة عادية؛ في حين أننا أخفينا مهمتنا الحقيقية. والأسوأ من ذلك أنه جرى استعمالنا نحن في هذه العملية). وأشار جوزيف كانر إلى أن الأطفال المغاربة يشكلون تربة خصبة، ومن السهل تحويلهم إلى المسيحية؛ لأنهم لا يمتلكون معارف حول دينهم، وخاصة أن آباءهم مسلمون، ولكن لا يمارسون الإسلام. وكشف عن أنهم يستخدمون أساليب منفصلة تقوم على أساس توظيف العلاقات الشخصية في التنصير، مشيراً إلى وجود عدد من المغاربة المسلمين، والذين تحولوا إلى المسيحية يعملون في المدرسة.

[التجديد ٢٠١٠/٤/٨م]

النقاب خطر على السلامة الشخصية!

فرضت الشرطة الفرنسية غرامة مالية على امرأة مسلمة بسبب ارتدائها النقاب وهي تقود سيارتها، وقالت الشرطة في مدينة نانت الواقعة غربي فرنسا: إن النقاب الذي كانت ترتديه المرأة أثناء قيادة السيارة، والذي لا يُظهر سوى العينين يحد من مجال الرؤية، وبناءً على ذلك كان يمكن أن يتسبب في حادث سير، وتأتي هذه الحادثة بعد أشهُر من النقاش المحتدم في فرنسا بشأن سنِّ قانون يحظر ارتداء المسلمات للنقاب.

ويُذكَر أن «بريس أورتوفو» وزير الداخلية الفرنسي، أرسل إلى إريك بيسون وزير الهجرة، برسالة يسأله فيها إن كان من الممكن سحب الجنسية الفرنسية من زوجها، معتبراً أن المخالفة «مبررة»، ومشيراً إلى أن طلبه لسحب الجنسية من زوجها يستند إلى أن الرجل المولود في الجزائر، الحاصل على الجنسية الفرنسية عبر الزواج في عام ١٩٩٩م، ينتمي إلى جماعة الدعوة والتبليغ.

[موقع الـ (بي بي سي)، ومواقع أخرى ٢٠١٠/٤/٢٣]

حذر الدكتور بركات الفرا (السفير الفلسطيني بالقاهرة) من مخطط تهويد القدس قائلاً: «إن كل يوم يمر يمثل خطورة على المدينة المقدسة والمسجد الأقصى؛ فإسرائيل وضعت مخططًا لتهويد المدينة بالكامل، وأنفقت نحو ١٧ مليار دولار لتنفيذ هذا المخطط الذي يستهدف بحلول عام ٢٠٢٠م أن يصبح عدد سكان القدس ٢٥ ٪ من الفلسطينيين مقابل ٧٥ ٪ من الإسرائيليين».

[جريدة الجزيرة السعودية، ٢٠١٠/٤/١٣]

أورد د. فهد بن عبد العزيز السنيدي (أستاذ المذاهب المعاصرة بجامعة الملك سعود) في محاضرة له، بعض الإحصاءات عن عدد الفضائيات الموجَّهة للمشاهد العربي، مستنداً إلى تقرير من الاستخبارات الأمريكية (CIA)؛ حيث أشارت فيه إلى وجود ١٣ ألف قناة في العالم، منها ٧٥٠٠ قناة مشفرة، و٥٥٠٠ قناة مجانية، وفي العالم العربي ٦٩٦ قناة تبث من ١٧ قمراً صناعياً، يشاهدها أكثر من ١٥٠ مليون مشاهد للقنوات المفتوحة، بينما ٤٢ مليون للمشفرة، وأشار إلى أنه من ضمن القنوات الموجهة لنا ١١٢ قناة إباحية باللهجات العربية.

[موقع العربية ٢٠١٠/٤/٢]

قدرت دراسة حديثة لمجموعة (المرشدين العرب) المتخصصة في أسواق الاتصالات والإعلام العربية حجم إنفاق مستخدمي الإنترنت في مصر على أنشطة التجارة الإلكترونية خلال العام الماضي بنحو ٢,١ مليار دولار أمريكي، وأن ٣٤,٦ ٪ من مستخدمي الإنترنت في مصر قاموا بمعاملات تجارية عبر الإنترنت خلال العام الماضي؛ حيث تشمل هذه التجارة خدمات دفع الفواتير عبر الإنترنت.

كما أوضحت الدراسة أن أعداد مستخدمي الإنترنت الذين يتعاملون بأنشطة التجارة الإلكترونية يقدَّر بأكثر من ٢,٦ مليون مستخدم، أي أن ما يعادل ٣ ٪ من إجمالي عدد السكان في مصر قاموا بإنفاق ٢,١ مليار دولار خلال عام ٢٠٠٩م.

[جريدة الشروق المصرية ٢٠١٠/٤/٢٠]

كشفت استطلاعاتٌ للرأي خاصة بشبكة البي بي سي الإخبارية، عن أن حجم الإنفاق الذي يتكبده المصريون الذين لديهم أبناء في مراحل التعليم قبل الجامعي يتراوح ما بين ١٠ و ١٥ مليار جنيه سنوياً، وهو ما جعلهم يشعرون دون مبالغة بأن الدروس الخصوصية تحولت بالنسبة لهم إلى غُولٍ يعانون الأمرَّيْن في ترويضه.

[عن موقع بي بي سي، ٢٠١٠/٤/٢٢]

نبَّهت منظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) قبل اليوم العالمي للملاريا إلى أنه «من غير المقبول» وفاة نحو ٨٥٠ ألف شخص سنوياً بسبب لدغة بعوضة تحمل مرض الملاريا.

ويقع ما يقارب ٩٠ ٪ من حوادث الوفاة بهذا المرض في منطقة جنوب الصحراء الإفريقية، ومعظم الوفيات لأطفال دون سِنِّ الخامسة.

[الجزيرة عن الألمانية ٢٠١٠/٣/٢٤]

يُقَدَّر عدد الذين يصابون بالتهابات تنفسية في بريطانيا من الأطفال لأسباب تعود إلى استنشاقهم دخان الآخرين، أو التدخين السلبي، بنحو عشرين ألف حالة سنوياً، ويعاني أكثر من ١٢٠ ألف طفل من التهابات في الأذن الوسطى، و ٢٠٠ ألف حالة من التهاباتٍ سحائية. كما يؤدي التدخين السلبي إلى وفاة أكثر من ٤٠ ألف طفل بشكل مفاجئ سنويّاً.

[عن صحيفة تايمز البريطانية، ٢٠١٠/٤/٢٤]

س: مما لا شكَّ فيه أنَّ تحولاً كبيراً وسريعاً شهدته تركيا مؤخراً، أعطى لها دوراً محورياً، ومركزياً في خريطة الشرق الأوسط، في الوقت الذي يتصارع عليها عدد من اللاعبين في المنطقة كـ (مصر وإيران)، ولكن ألا يتخلل ذلك بعضٌ من الثغرات التي قد تهدد ذلك الدور في أي لحظة؛ بل قد تطيح به بالكامل؟

على الرغم من التحول الذي أعطى لتركيا هذا الدور المحوري، إلا أنه لا بد أن نأخذ في اعتبارنا أن المشروع التركي دونه العديد من التحديات، ويتخلله العديد من الثغرات، أهمها:

أولاً: على المستوى الداخلي:

١ - يمكننا أن نلاحظ أن التحول في السياسة الخارجية التركية يجري بوتيرة أسرع من قدرة الداخل على استيعاب مضامينها وهضمها؛ وإن استمر هذا التسارع بهذه الطريقة، فإن الفجوة ستكون عميقة بينهما، ولن تكون السياسة الخارجية في هذا الإطار مستندة إلى معطيات واقعية تدعمها مصالح راسخة، وإنما مجرد طفرة حملتها تصورات أكاديمية وطبَّقتها نخبة واقعية من دون أن تعمل على جعلها جزءاً من تحوُّلٍ يحمل مضامينَ وأبعاداً إستراتيجية بعيدة المدى تتجاوز النخبة الحاكمة اليوم.

٢ - أنَّ مستقبل «حزب العدالة والتنمية» تشوبه الضبابية، وهو وإن كان يسير على خطى ثابتة نحو الأمام؛ إلا أن أي تطوُّر مفاجئ من قبيل انقلاب النخبة العسكرية عليه أو انتهاء دوره، قد يطيح بالمشروع برمَّته إذا لم يَصِر إلى جعله حاجة يؤمن بها أكبر قدر ممكن من أفراد المجتمع ونخبته.

ثانياً: على المستوى الخارجي:

١ - لا يعتمد المشروع التركي الإقليمي على مقومات داخلية فقط، وإنما على مقومات خارجية. ومَكْمَن الخطورة في هذا المجال أنَّ الجانب التركي لا يملك السيطرة على جميع مفاتيح المقومات الخارجية، وهو الأمر الذي يمكن أن يجعله رهينة لنيات الآخرين ومشاريعهم؛ فسياسة «إخماد النزاعات» وتحقيق «الاستقرار الإقليمي» التي هي جزء من سياسة تركيا الخارجية الحالية، لا تعتمد فقط على تحركات أنقرة ومبادراتها، وإنما على مدى استجابة «الآخر» لها وتفاعله معها؛ إذ تستطيع إسرائيل - على سبيل المثال - من خلال إشعالها فتيل الحرب في المنطقة، أو من خلال مقاطعتها الدور التركي في الوساطة مع سورية، ضرب السياسة الخارجية في الصميم.

٢ - يحتاج المشروع التركي إلى موازنة دقيقة جداً بين المسارين: الرسمي والشعبي في الإطار العربي. وهو إلى الآن قادر على الموازنة ويجيد اللعبة جيداً؛ فقد دخل المنطقة من أبوابها مستأذناً؛ ليحظى بالشرعية السياسية لدوره، كما تبنَّى عبر دبلوماسيته العامة مطالب الشعوب في دول المنطقة، وعبَّر عنها بمواقف مبدئية؛ ليحظى بقاعدة صالحة لتقبُّل دوره على أرض الواقع.

لكنَّ المغالاة باعتماد الدبلوماسية الشعبية قد تدفع تركيا إلى الخروج عن سكَّة العقلانية باتجاه الديماغوجية، ويتحول دورها بناءً على ذلك إلى نسخة إيرانية محسَّنة.

[بتصرف من مقال: «الاستثمار العربي في المشروع الإقليمي التركي»، علي باكير، الحياة ٢٠١٠/٤/٠٦]

كان يلعب الورق..!

منى محمد العمد

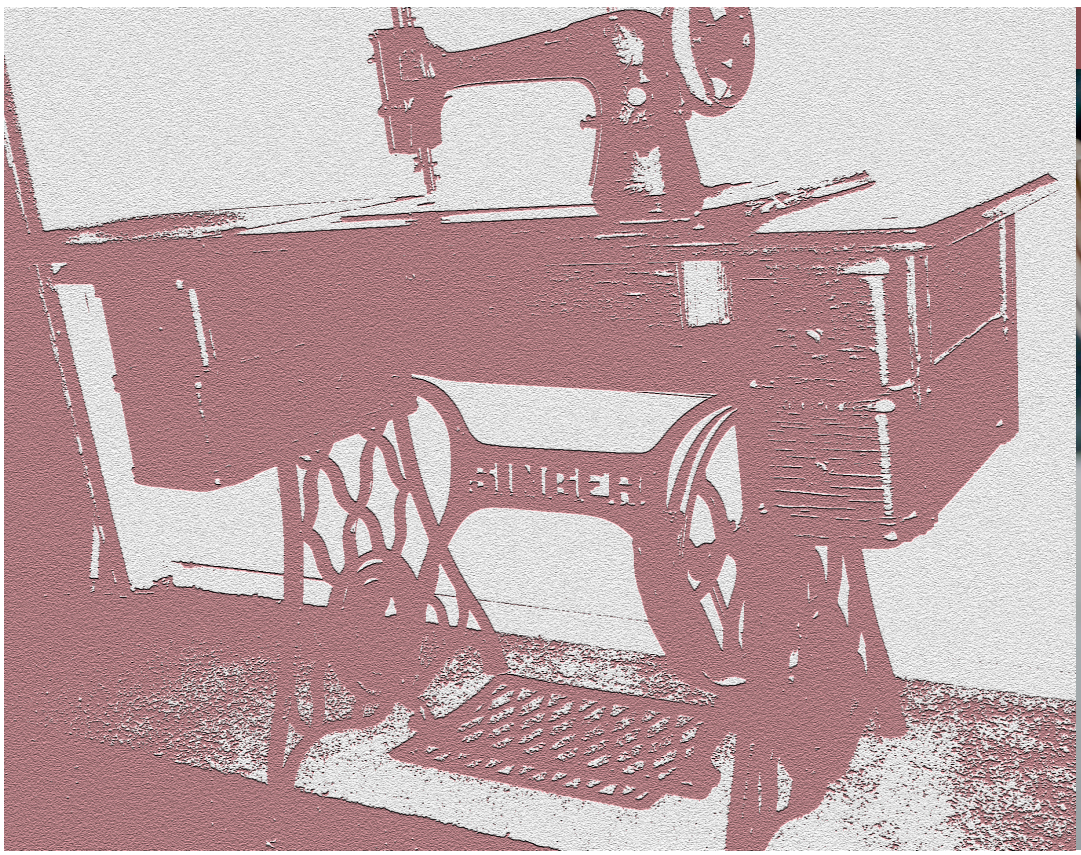

جلســـتْ إلى آلة الخياطة كعادتها كلما فرغت من أعمال المنزل؛ إذ لا وقت لديها للراحة؛ فلديها أربعة أولاد عليها أن تعولهم بعـــد استشـــهاد والدهم وهو يقاوم العدو في إحدى عمليـــات التوغل التي كانوا يقومون بها داخل مدينتهم؛ فيقتلون ويأســـرون ويزرعون الذعر في قلوب الأطفال ويسرقون الأمن من قلوبهم ومن دروبهم.

دخل حســـام ابنها البكر، وقال متذمراً: كلما دخلت وجدتك تجلسين إلى هذه الآلة، ألا تكفِّين عن الخياطة؟ ألا تملِّين؟ قالت وهي تحاول إخفاء ما بيدها عنه: وكيف أملُّ منها وقد جعلها الله مصدر رزقنا بعد وفاة أبيك.

– دعيني أرى ماذا تخيطين اليوم؟ قالت: ملابس لبعض الجيران لا يهمك أمرها.

قال: غداً سأعمل وأكفيك المؤونة يا أمي!

قالت في حزم: لن تترك الدراســـة. ثم أضافت مستعطفة: إن كنت تريد بِرّاً بوالدتك فاترك هذه الصحبة التي تعرفت عليها مؤخراً، إنهم لا خير يرتجى منهم؛ فمنذ أن تعرفتَ عليهم وأنت تُكثِر الخروج والسهر، وأطلت شعرك مثلهم، و...

قاطعها قائلاً: من تريدينني أن أصادق يا أمي؟

– أريدك أن تصاحب الصالحين، فتكون شاباً مستقيماً كما كان والدك.

قال وهو ينظر إليها نظرة تكاد تخترق الحجاب إلى قلبها: هذا طريق يؤدي إلى الموت يأمي!

– بل إلى الحياة الأبدية يابني! ثم تساءلت في صمت: تُرى ما هذه النظرة المريبة في عينيه؟

– إنهم يتصيدون الشباب واحداً بعد واحدٍ؛ أفلا يكفُّون عن المقاومة؟

– أيها الأبله! أترى أنهم يتركونهم يعيشون حياتهم باطمئنان إن هم استكانوا؟ ألا ترى ضحايا الذل والاستكانة أكثر من ضحايا الشموخ والإباء؟

– فماذا ينفعني الشموخ والعزة والإباء إن قُتِلت؟

– هذه دماء الشهداء رويت منها السفوح والتلال؛ ولذلك اهتزت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج وأحيت موات القلوب.

– لكنني أريد أن أعمل وأكسب وأُريحَك من آلة الخياطة هذه، وأعيل إخوتي.

– مـــا خُلقْنَا لنأكل ونشـــرب، دَعْ حياة الأنعام للأنعام. أما نحن فبشـــر لنا قضية؛ نعيش حياتنـــا الدنيا وعيننا على الحياة الأبدية.

سكت برهة ثم نظر في ساعته، وقال: أماه! دعيني أخرج الآن، إن أصحابي ينتظرونني.

تنهدت في ألم ومَضَت إلى غرفتها وأخذت تتابع عملها، وهي تتمتم بدعوات.

خرجت تســـلِّم ما أنجزت خياطته... قالت لها المرأة وهي تســـلِّم البدلة التي صنعتها: ما شاء الله! خياطة متقنة وجميلة... تفضلي هذا أجرك.

قالت: أجري هذه المرة سيكون مختلفاً.

قالت لها: اطلبي ما شئت من زيادة ولكن في حدود المعقول يا أم حسام! فأنت تعرفين الإمكانيات.

ضحكت ثم قالت: أجرتي هذه المرة هي شـــرط أشـــترِطُه عليكم: ألا تُسلَّم هذه البدلة إلا لبطلٍ مقدام، يلبسها وهـو يقـوم بعمليـة جهـادية مشـرِّفة ضـد الصهاينة المجرمين... هذا هو أجري الذي لا أريد أجراً غيره، أريده أن يمضي شهيداً إلى ربه وهو يلبسها؛ لتكون هي شهيدة لي عند ربي.

عادت إلى منزلها وهي تشـــعر بالراحة. إنها تؤدي جزءاً من واجبها، لكن يقلقها شـــأن حسام، كانت تربِّيه وتتوسم فيه أن يكون ابن أبيه، لكنه خيَّب ظنها بالتفافه حول صحـــبة لا تدري ما هم عليه؛ لكن مظهرهم لا يدل على خير. أخذت تردد: يارب... يا رب...!

انتظرت طويلاً، وكاد الفجر أن يطلع ولم يعد... أين هو الآن؟

ها هي تسـمع صوت الباب. خـرجت إليه مسرعةً، فارتبك وهو يقول: أمي؟ ما زلتِ مستيقظة! تابع وهو يحاول إخفاء ربيطةٍ كانت بيده: ظننتك نائمة.

نظرت إليه في ريبة وقالت: ماذا كنتم تفعلون حتى هذه الساعة؟

أجاب بعد تأتأةٍ وفأفأةٍ: كنا... كنا نلعب الورق يا أمي!

– تلعبون الورق؟ وتابعت في حسرة: لغير هذا أعددتك، اقتربَت منه، مســـت جبهته وهي تقول في إنكار: ومن يعلـــب الورق يتعرق هكذا في هذه الليلة الشاتية؟

قال: كفى يا أمي! لقد جئت مسرعاً لعلِّي أستجلب بعض الدفء، هيا يا أماه! أريد أن أنام... إني متعب.

ارتابـــت في أَمْرِه لكنها تركته يَمضِي لغرفته وانتظرت حتى ســـكنت حركتـــه وغلب على ظنها أنه قد نام، فدخلت غرفته تمشـــي على رؤوس أصابعها وبحثت عـــن الربيطة التي كانت بيده، أخذت تحلُّ عقدتَهـــا ويدُها على قلبها مما ستجده فيها، تُرَى هل ستجد سجائر؟ أم مخدرات؟ أم صوراً مخلة؟ أم...؟ أم...؟

لكن يا لدهشتها حين رأت البدلة التي خاطتها بيدها وسلمتها ذلك الصباح.

الفساد في الكيان الصهيوني بعد ٦٢ عاماً... سمة متأصلة

د. عدنان أبو عامر(*)

يعيش الكيان الصهيوني هذه الأيام ذكرى تأسيسه الثانية والستين على أنقاض الشعب الفلسطيني وقضيته الوطنية، وفي الوقت الذي تُفاخِر فيه هذه الدولة بما لديها من قدرات عسكرية وإمكانيات اقتصادية تفوق ما لدى جاراتها من الدول العربية، فإن نخبة من المحللين والكتَّاب الصهاينة لفتوا الأنظار إلى مشكلة ترقى إلى منزلة «المعضلة»، وهي أزمة الفساد المستشري في مختلف مفاصل الدولة.

«يديعوت أحرونوت» كبرى الصحف الإسرائيلية اختارت عنوان «الهزة الأرضية» لقضايا الفساد التي تعيشها الدولة هذه الأيام في ظل التحقيقات التي تلاحق رئيس الوزراء السابق «إيهود أولمرت».

أضف إلى ذلك أن وباء الفساد الذي بات يضرب بأطنابه في مختلف مرافق الدولة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما تعانيه منذ سنوات بما بات يعرف بـ «غياب جيل التأسيس» الذي رافقها من بداياتها الأُولَى؛ سواء بوفاة عدد منهم، أو باعتزال عدد آخر للحَلْبة السياسية، لكن المعضلة الأكبر التي تصدرت إثر غياب القيادة السياسية هذا العام، تكمن في تسلُّم عدد من القادة حديثي العهد للعمل السياسي، وقد أخذت الأزمة القيادية تستفحل عبر عدد من المحاور السياسية والعسكرية.

ومن أهم معالمها:

١ – الغياب القسري لـ «شارون» بفعل المرض، والغيبوبة الطويلة التي ألَمَّت به حتى كتابة هذه السطور، وهو ما نتج عنه تزاحمٌ مرحليٌّ لعدد ممن رأوا أنفسهم مؤهلين لخلافته.

٢ – المفاجأة التي ألَمَّت بالوسط السياسي الإسرائيلي بعد اجتياز حركة حماس لنتائج الحرب على غزة، والإرباك الذي وقعت به المؤسسة الأمنية الإسرائيلية.

٣ – تفاعل قضايا الفساد التي تورط بها جملة من كبار السياسيين، بدءاً برئيس الدولة، ورئيس الحكومة، ومختلف الوزراء والمسؤولين.

٤ – أزمة القيادة العسكرية المتمثلة بتواصل عمليات المقاومة، واستئناف إطلاق الصواريخ لتكشف العجز الذي ألَمَّ بها، وانفجار الوضع في لبنان وغزة، وأَسَّر مزيد من الجنود، وهو ما جعل الدولة تقف «عارية» أمام جنودها وجمهورها الذي بات يتفرج على جيشٍ مهزوم، وقيادة عسكرية لا تليق بأسطورة «الجيش الذي لا يُقهَر»، وجعلت الصحافة الإسرائيلية تطلق أوصافاً معيبة بحق القيادة الحاكمة، كـ: «السخف، والخيبة، والجهل».

نجوم مسلسل الفساد:

أفردت الصحافة الصهيونية «معاريف، هآرتس، يديعوت أحرونوت» صفحات عديدة، وأسالت كمّاً كبيراً من حبرها،

(*) كاتب فلسطيني.

فـــي اســـتعراض فضائح الفســـاد التي ألَـمَّـــت بالدولة في الســـنوات الأخيرة، ومنها إدانة وزير المالية السابق «أبراهام هيرشزون»، ووزير الشـــؤون الاجتماعية الأسبق «موشيه بن عيزري»، باختلاس المال العام، وخيانة الأمانة، وسوء التصرف في الممتلكات الخاصة بالدولة، وصدور حُكم بسجن كلٍّ منهما عدة سنوات في السجن.

إلى جانب تتابع الكشـــف عن فصول جديدة في فضيحة «أولمـــرت» المتعلقة بتلقِّي رُشـــىً، واســـتغلالِ المنصب العام، وتضليـــل التحقيق القضائي، وهو ما ســـلط الأضواء مجدداً على فساد النظام السياســـي، لدرجة جعلت كثيراً من مراكز الأبحاث في تل أبيب تؤكد أن الفســـاد أصبح ســـمةً متأصِّلةً للنظام السياسي الإسرائيلي.

«عفن» الشيفرة الأخلاقية:

لقد أكد «ألوف بن» الكاتب والمعلق الإســـرائيلي، على أن النظام السياســـي بات مستعداً ليس فقط لغضِّ الطرف عن الساســـة الفاسدين، بل لتهيئة الظروف للارتقاء بهم ليتبوؤوا المناصب الكبيرة.

وفي مقال نشـــره في صحيفة «هآرتس» يضرب مثالاً بما ســـيحدث لوزير الداخلية الأســـبق «آرييه درعي» الذي أُدين باختلاس المال العام قبل ســـبع ســـنوات وحُكِم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات، وهو الآن يستعد ليحل محل وزير الخارجية «أفيغدور ليبرمان» الذي من المتوقع أن يستقيل بسبب قضايا فساد مماثلة.

ويشير إلى أن رئيس الوزراء «بنيامين نتنياهو» أصر على تعيـــين ليبرمان في منصب وزير الخارجية (ثاني أهم منصب في الحكومـــة)، على الرغم من تحذير المستشـــار القضائي للحكومة من أنه لا يجوز تعيـــين وزير تُجْرى ضده تحقيقات حول شـــبهة ارتكاب قضايا فســـاد خطيرة كمـــا هو الحال بالنسبة لليبرمان.

وأضاف: «إن مجرد فكرة عودته «درعي» للحكومة مع كل ما ارتكبه من جرائم وجُنَح؛ بطريقة هزت الجهاز السياســـي والقضائي تثير الحفيظـــة في النفوس، وإن حدث هذا الأمر فعلاً، فإنه لا يوجد شيء غير ممنوع في إسرائيل».

وأكد «ألوف بن» على أن «الســـماح بعودة درعي للحكومة رغم فســـاده الكبير سيشـــجع الفاســـدين ويقلِّص من تأثير العقوبات التي تفرضها المحاكم على الساســـة الفاســـدين؛ لأن المشـــكلة الأساسية التي تهدد الدولة أنها لا تمتلك ثقافة سياسية، وأن الجهاز السياسي تحوَّل مع الوقت إلى جهازٍ بلا خجل أو وَجَل. لقد اجتزنا دربا طويلة منذ أن كان النشـــطاء الحزبيون ضالعين في أعمال فســـاد بذريعة أنهم يفعلون ما يفعلونه من أجل الحزب».

أما «بامبي شـــيلغ» فقد اعتبر أن الفساد لم يقتصر على السلطة التنفيذية فقط، بل إن السلطة التشريعية والقضائية قد نخر فيهما الفســـاد نخراً جائراً، واعتبر الكنيستَ الذي من المفترض أن يراقب أداء الســـلطة التنفيذية مؤسسةً تثير الخجـــل والاكتئاب، فـــي حين أن الجهـــاز القضائي والنيابة والشرطة قد استحكمت فيها المعايير غير الموضوعية، منوهاً إلى أن كبار موظفي النيابة العامة والشرطة يسرِّبون المعلومات حول كل قضية يَرِد فيها أشـــخاص لا يروقون لهم، منوهاً إلى أن الجمهور الإسرائيلي بات لا يثق بالشرطة والنيابة.

وفـــي مقال نشـــرته صحيفة «معاريف» أوضح «شـــيلغ» أن النواب والأحزاب تفضِّل القادة الذين تحوم حولهم شـــبه الفساد، وأضاف: «إن أزمة المجتمع الإسرائيلي تتمثل في أنه يحتاج إلى قيادة تتمتع بقاعدة جماهيرية واسعة، وقادرة على شنِّ الحرب أو الدخول في سياقات من المفاوضات، وفي الوقت نفسه لا ينزعج الجمهور الإســـرائيلي من إمكانية أن تضطر الدولة للدخول في مواجهة عسكرية مع أيٍّ من أعدائها، بينما يقف على رأسها قائد عديم الإسناد الجماهيري».

من ناحية أُخرَى قال الكاتب والمعلق «عوزي بنزيمان»: إن أحد العوامل التي تشجع الساسة في إسرائيل على الفساد هو حقيقة أن الجمهور الإســـرائيلي لا يبدي اكتراثاً إزاء سلوكهم المشين، معتبراً أن الجمهور الإســـرائيلي يعتمد منظومة قيم أخلاقية غريبة.

وفي مقال نشـــره في صحيفة «هآرتـــس» أعاد للأذهان حقيقـــة أن رئيس الوزراء «بنيامين نتنياهـــو» اعترف عندما تنافـــس على منصب رئيس الوزراء لأول مرة عام ١٩٩٦م بأن شـــخصاً مَّا قام بتصويره وهو يمـــارس الرذيلة مع صديقته علـــى الرغـم من أنه كـان متزوجـــاً، وأضـاف: «إن الجمهور الإسرائيلي لا يعنيه أن يتحول قادتُه إلى ممارسة الفجور طالما أن سلوكهم لا يؤثر على رفاهيتهم».

وأردف خاتماً حديثه: «الشـــيفرة الأخلاقية الإسرائيلية تفيد بحكمةٍ بأن الحياة الفاســـدة للسياســـيين، هي مسألة شـــخصية تخصُّهم طالما كانـــت لا تؤثر ســـلبياً على أدائهم لمنصبهم العام».

ملامح من منهج الإصلاح عند عبد الحميد بن باديس

و أثرها في تشييد الوحدة المغاربية

د. حمودة سعيدي(*)

مقدمة:

إننا ونحن نُحْيِي الكلام عن شيخ الحصانة الحضارية والثقافية للأمة العربية الإسلامية الجزائرية، وإمام التحضير للإصلاح والتغيير، نَصْبُو إلى مساهمة في إعادة تشكيل واقعنا الثقافي ووعينا الحضاري؛ ذلك أن آنية التفكير في حالنا ومآلنا بحاجة ماسة إلى منهجية متجددة، تتشرب من مناهل الأصل الباديسي في المراجعة، والتفاكر، والتشاور، والفحص، والاختبار، وإعادة المعايرة بقيم الدين الإسلامي الحنيف من مصدريه الأساسيين: كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ، والإفادة من التجارب الإيجابية من الأمم السابقة، وإعادة النظر في تلك التي تسللت إلينا، فصيرتنا غرباء عن واقعنا، منسلخين عن هويتنا، ومتنكرين لأصالتنا.

(*) أستاذ محاضر في قسم الفلسفة جامعة الجزائر.

لقد بات من المسلَّم به أنَّ التغيير لن ينالنا إلا إذا تمكَّن مفكرونا، كلٌّ من موقعه، سواء كان ذلك من موقع المسؤوليات القيادية والتوجيهية للأمة، أو من مواقع التفكير عبر الكتابة أو التدريس أو البحث والتنقيب، أو من مواقع طلب العلم بمدرجات جامعاتنا، إلا إذا تمكنوا من تطبيق منهج كشفٍ يرتقي إلى تعرية الأسباب التي أورثتنا هذا الواقع الذي غابت فيه مراجعة مناهجنا، وانعدم فيه فحص واختبار أفكارنا، ووسائل تفعيلها، فصرنا عاجزين متخاذلين، مستسلمين لهذا الواقع البئيس، الذي يميت الفاعلية، ويعطل التطلع صوب المستقبل.

إن التغيير لن يتحصل ما لم نتعرف إلى قدراتنا وإمكاناتنا، وما لم نضعها في موضع التفكير الإستراتيجي في مناهج التعليم عندنا؛ لاستشراف المستقبل، واستقراء الماضي، والتوغل في العمق التاريخي، واستيعاب التجارب، واكتشاف علل التحضُّر، وجوانب القوة والنهوض، وأسباب الضعف والسقوط، وتحديدِ السنن الاجتماعية الفاعلة في الحياة والأحياء، والإحاطة بالقضايا المطروحة، وتحليل جوانبها المتعددة، وقوانينها، والنظرِ في نتائج هذا الماضي، المتمثلة في الحاضر بكل معاناته، ومحاولةِ وضع هذا الحاضر في موقعه المناسب من مسيرة الشعب الجزائري، وشعوب المغرب العربي في تواصلها الثقافي والحضاري، وارتباطها بالعالم العربي الإسلامي؛ قَصْد بناء خطة مستقبلية ناجعة لهذه الشعوب؛ بحيث تكون واضحة الأهداف المرحلية والإستراتيجية، ودراسةِ الاحتمالات والتداعيات الممكنة؛ لأخذها بالاعتبار والاستعداد لها، والتعرف إلى الأولويات، واعتماد سُنة التدرج وعنصرِ الزمن كوعاءِ حركةٍ وقيمةِ إنجازٍ في الوقت نفسه، والتعاملِ مع المتاح، وعدم خلط الأهداف بالوسائل، والإمكانات بالأمنيات، والحماس بالاختصاص، والإحساس بالإدراك، وتجنُّب عثرات دعوات الإصلاح والتجديد والتغيير المتزمتة والمغلَقة، والملغية للآخر المماثل، والتخلص من حالة الانطفاء الثقافي، الذي يبعثر القدرة، ويعطل الإرادة.

ترشيد التعليم ومنهجيته في توحيد المغرب العربي:

يعود احتكاك عبد الحميد بن باديس بالمدارس الفكرية والطرق التعليمية المغاربية إلى رحلاته لطلب العلم، وخاصة رحلاته التأسيسة إلى جامع الزيتونة بتونس كطالب، وكمبتدئ في ممارسة التدريس؛ إذ لَمَّا أحس أنه استوعب كثيراً مما جاد به أستاذه الشيخ الونيسي، وعلم من عزم هذا الأخير على الهجرة، كان عليه أن يُواصل الطلب والتحصيل، وخاصة لما وجد عند والده تشجيعاً للارتحال إلى تونس، وهو ما كان بالفعل؛ لتتبُّع ينابيع العلم والمعرفة، فأخذ هناك العلم من عظماء الزيتونة وفطاحلها، والذين كان لهم بالغ الأثر في تكوينه الفكري واتجاهه الإصلاحي، ولعل هذا ما كوَّن عنده لبِنَة التوجُّه بالإصلاح نحو المجتمع المغاربي، ونحن نذكر هنا تأثير مشايخه على بِنيَة تفكيره الإصلاحي، فنذكر منهم:

- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: الذي لازمه قرابة ثلاث سنوات، فأخذ عنه الأدب العربي وديوان الحماسة، يقول

ابن باديس عن ذلك: «وإن أنسى فلا أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة لأبي تمَّام على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه؛ فقد حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبثت فيَّ روحاً جديدة في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت مني الشعور بعزِّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام».

- الشيخ محمد النخلي القيرواني: استقى ابن باديس الحكمة من بحر الخير الذي كان يتدفق من صدر هذا الشيخ، أستاذ التفسير في جامع الزيتونة. يقول عنه ابن باديس: «كنت متبرِّماً بأساليب المفسرين، وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، فذاكرتُ يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق، فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الآراء المضطربة، يسقط الساقط، ويبقى الصحيح، وتستريح؛ فواالله! لقد فتح الله بهذه الكلمات القليلة لذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها». ويقول عنه أيضاً: «ولا أكتمكم أني أخذت شهادتي في جامع الزيتونة في العشرين من عمري، وأنا لا أعرف القرآن أنه كتاب حياة، وكتاب نهضة، وكتاب مدنية وعُمران، وكتاب هداية للسعادتين؛ لأنني ما سمعتُ ذلك من شيوخي، عليهم الرحمة ولهم الكرامة، وإنما بدأت أسمع هذا يوم جلست إلى العلامة الأستاذ محمد النخلي».

- الشيخ البشير صفر: يعتبر هذا العلاَّمة من أبرز علماء تونس، ومن القلائل الذين جمعوا بين التعليم العربي الإسلامي والتعليم الغربي الأوروبي، مع إتقانه لعدة لغات حية.

اشتغل الأستاذ بشير صفر بالتدريس في جامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية، وكان - لسعة اطلاعه وتنوع ثقافته - يُعدُّ من أشهر أساتذة التاريخ العربي والإسلامي فيها. يقول عنه ابن باديس: «وأنا شخصياً أصرِّح بأن كراريس البشير صفر، صغيرة الحجم، غزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر».

هؤلاء هم أهمُّ الأساتذة الذين تلقَّى عليهم الشيخ ابن باديس العلوم العربية والإسلامية في جامع الزيتونة، وظل يأخذ عنهم، حتى استوفى الكثير مما عندهم من العلوم الإسلامية، طيلة أربع سنوات، إلى أن أجازوه للتدريس، فمكث بعد تخرُّجه سنة أخرى للتدريس في جامع الزيتونة المعمور، وكانت تلك عادة متَّبعة في كثير من الجامعات الإسلامية.

عاد ابن باديس سنة ١٩١٢م إلى الجزائر، وكلُّه عزم على بعث نهضة علميَّة جديدة يكون أساسها الهداية القرآنية والهدي المحمَّدي، والتفكير الصحيح؛ فانتصب يُحْيِي دروس العلم بدروسه الحية في الجامع الكبير بقسنطينة، عائداً بالأمة المحرومة إلى رياض القرآن، وأنهاره العذبة المتدفقة، وأنواره الواضحة المشرقة. لكنه كان يحمل همّاً أعمق، وألماً مكيناً لما كانت عليه بلدان المغرب الكبير من تخلُّف؛ لذلك فإنَّا لَـمَّا نستحضر الجهود التي بذلها الشيخ ابن باديس في مجال إصلاح المناهج التربوية، ندرك بوضوح شمولَ نظرته، وصدقَ إحساسه بمواضع الداء. وهو إذ يصبُّ جُلَّ جهوده نحو ترشيد التعليم في الجزائر، فهو يسعى كذلك إلى إصلاحه في غيرها من المدارس والمعاهد، ولا أدلَّ على ذلك من اهتمامه المُلِحِّ بإصلاح التعليم في جامع الزيتونة. هذا الجامع الذي يعبِّر عن كلية دينية يتخرَّج منها رجال القضاء والفتوى، ورجال الإمامة والخطابة ورجال التعليم. ولعل هذه اللفتة هي أول مساهماته في بناء منهج الإصلاح التغييري في بلدان المغرب العربي.

يتضح لنا من خلال مقالات ابن باديس العديدة حول حالة التعليم في جامع الزيتونة، مدى التدهور الذي كان يعانيه ذلك القِطاع في مناهجه ووسائله، وفي هذا يقول: «قد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة، ونحن لم ندرس آيةً واحدةً من كتاب الله، ولم يكن عندنا أيُّ شوق أو أدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوماً منزلة القرآن مِنْ تعلُّم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السُّنة النبوية

من ذلك، هذا فـــي جامع الزيتونـة، فـــدع عنك الحديث عن غيـــره مما هو دونه بمديد المراحل».

إن مـــا جعل البرامج فـــي هذا الجامع قاصـــرة عن أداء رســـالتها، هو عدم اتزانها؛ فكثُر جمودها وقلَّت فائدتها. ومن المعروف عند أهل العلم، أن العلوم منها ما هي مقصودة بالذات: كالتفســـير والحديث والفقه، وأخرى آلية (وسيلة لتلك العلوم): كالعربية والحســـاب والمنطق. يقول عبـــد الحميد ابن باديس: «فأمـــا العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج في توســـعة الكلام فيها، وتفريع المســـائل؛ فإن ذلك يزيد طالبها تمكُّناً في ملكته، وإيضاحاً لمعانيها المقصودة... أما العلوم التي هي آلة لغيرها... فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط». غير أن الواقع في جامع الزيتونة، هو التوسع في العلوم الآلية، والإفراط في ذلك إلى درجة الابتعاد عن الغرض منها، وإعاقة تحصيل العلوم المقصودة لذاتها؛ فيخرج الطالب ولم يحصل من ذلك على شيء.

يصف لنا ابن باديس استفحال ذلك الانحراف قائلاً: «وفي جامع الزيتونـــة - عمَّره الله تعالـــى - إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس التفســـير - ويا للمصيبة - يقع في خصومات لفظية... في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قَبْل، فيقضي في خصومة من الخصومـــات أياماً وشهـــوراً، فتنتهـــي الســـنة، وهـــو لا يـــزال حيـــث ابتـــدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً، دون أن يحصل على شـــيء من حقيقة التفســـير، وإنما قضى سَنَته في المماحكات، بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأن التفســـير إنما يُقرَأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية؛ فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن».

بهـــذا المنهـــج النقدي ومنافعـــه ووجوبه فـــي الدعوات الإصلاحية بيَّن ابن باديس أن طُرُقَ التدريس المنتهَجة في جامع الزيتونة ليســـت وســـيلةً تؤدي إلى تحقيق الغرض من التربية كما يتصوره؛ إنما تكوِّن ثقافة لفظية يهتم أصحابها بالمناقشات اللفظية العقيمة طوال سِـــنيِّ الدراسة. ويذكر ابن باديس، أن الطالـــب كان يُفني حصـــة كبيرة من عمره فـــي العلوم الآلية، دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفســـير كتفسير الجلالـــين مثلاً، وإنما يغرق في خصومات لفظية بين الشـــيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد، التي كان يظن الطالب أنه فرغ منها، ويتخرج الطالب دون أن يعرف عن حقيقة التفســـير شـــيئاً، وذلك بدعوى أنهم يطبقون القواعد على الآيات، كأنما التفسير يُدرَس من أجل تطبيق القواعد لا من أجل فهم الشرائع والأحكام، وهذا يعتبره الشيخ ابن باديس هجراً للقرآن، مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم يخدمون القرآن؛ لذلك كان ابن باديس يرى أن هذا يتعارض مـــع الهدف التربوي الإصلاحي، الـــذي يتمثل في إرجاع ضمير الإنســـان المســـلم إلى الحقيقة القرآنيـــة، كأنه أُنزِل على قلبـــه، واتصاله به من جديد اتصالاً حياً دافعاً للعمل.

إنَّ هذه الأمـــور وغيرها مما يحدث فـــي جامع الزيتونة، جعلت ابن باديس يتقدم باقتراح شـــامل لإصلاح البرامج فيه، إيماناً منه بأن هذه الكلية الدينية التي يقصدها الطلبة من كل أنحـــاء بلدان المغرب العربي، وغيرها مـــن الأمصار، هي منبع الامتلاء بضرورة الإصلاح والتغيير، وهي منبع توحيد المناهج، والوســـائلُ لمعالجة ما أصاب شـــعوب الأمة من تقهقر وتفتت في طرق ووســـائل العلاج؛ لهذا نعتبر أن إســـهاماته المباشِرة في تأســـيس حركة إصلاحية مغاربية إنما بدأت منذ أن بعث بمقترحاته إلى لجنة وضع مناهج الإصلاح التي شـــكَّلها حاكم تونس سنة ١٩٣١م.

لقـــد تضمن اقتراح ابن باديس خلاصـــة آرائه في التربية والتعليم؛ فشـــمل المواد التي يجب أن يدرسها الملتحق بالجامع: مـــن اللغـــة والأدب، والعقيـــدة، والفقه وأصوله، والتفســـير، والحديث، والأخلاق، والتاريـــخ، والجغرافيا، ومبادئ الطبيعة والفلَك، والهندســـة، وجعل الدراســـة في الزيتونة تجري على مرحلتين:

الأولى: مرحلة المشاركة: أو ما يسمى في بعض الجامعات بالقسم العام أو الجذع المشترك؛ حيث يتساوى فيه المتعلمون في المعلومات، على اختلاف مقاصدهم، وأن لا تقل مدة الدراســـة في هذا القسم عن ثماني سنوات، يتعلم خلالها الطلبة:

١ - فنون اللغة العربية، وتاريخ الأدب العربي.

٢ -العقائد الإســـلامية: على أن تؤخذ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

٣ -الفقه: بحيـــث يُقتصَر فيه على تقرير المســـائل دون تشعباتها.

٤ - تفسير القرآن العظيم: من تفسير الجلالين.

٥ -الحديث النبوي: بدراسة مختارات من كتب السُّنة.

٦ - التربية الأخلاقية: من الآيات والأحاديث وآثار السلف الصالح.

٧ - الحســـاب والجغرافيـــا ومبـــادئ الطبيعـــة والفلك والهندسة.

الثانيـــة: مرحلة التخصص: لـمَّـــا كان المتخرِّجون من

الجامعة الزيتونية على ثلاثة أصناف حسبما يتصدَّرون إليه بعد تخرُّجهم، رأى ابن باديس أن يفرِّع قسم التخصص إلى ثلاثة فروع، هي:

١ – فرعٌ للتخصص في القضاء والإفتاء: على أن لا تقل مدة الدراسة فيه عن أربع سنوات، يدرس خلالها الطلبة ما يلي:

– يُتوَسَّع لهم في فقه المذهب، ثم في الفقه العام، ويكون كتاب (بداية المجتهد) من الكتب التي يدرسونها.

– دراسة آيات وأحاديث الأحكام، ودراسة علم التوثيق، والتوسع في علم الفرائض والحساب، ويطلعون على مدارك المذاهب؛ حتى يكونوا فقهاء إسلاميين، ينظرون إلى الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة، لا من عين المذهب الضيقة.

٢ – فرع للتخصص في الخطابة والإمامة: تكون مدة الدراسة فيه سنتين، يتوسَّع الطلبة خلالها في صناعة الإنشاء، والاطلاع على أنواع الخطب، مع دراسة آيات المواعظ والآداب وأحاديثهما، ويتوسعون في السيرة النبوية ونشر الدعوة الإسلامية، ويتمرَّنون على إلقاء الخطب الارتجالية.

٣ – فرع للتخصص في التعليم، تكون مدة الدراسة فيه سنتين، يتوسع الطلبة خلالها في العلوم التي يريدون التصدي لتعليمها، وتمرينهم على التعليم بالفعل، مع التركيز على دراسة كتب فنِّ التعليم.

إضافة إلى كلِّ هذه المقترحات التي تدخل في صميم البناء الترشيدي للعمل الإصلاحي الذي يتولاه خريجو هذا الجامع المعمور في سائر بلدانهم، وعلى الأخص منهم العائدون إلى بلدان المغرب العربي، ويرى ابن باديس «أن المعلمين في قسم الاشتراك يكونون من الحائزين على شهادة التخصص في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع التخصص للتعليم، وأما المعلمون في فرع القضاء والفتوى فلا بد أن يكونوا ممن تخصصوا فيهما وتخصصوا في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع الخطابة».

إنَّ هذا يبيِّن لنا أن ابن باديس أدرك أهمية المعلِّم في إنجاح العملية التربوية، التي هي برنامج إستراتيجي للتحضير لما يستوجبه الإصلاح من تغيير، وأن إصلاح المناهج يفتقد أهميته إذا لم يتوفر (المدرِّس المصلِح الكفء)؛ لذلك نراه قد ركَّز على أمرين هامَّين فيه:

١ – أن يكون (المعلم المصلح) متمكناً من العلوم والفنون التي يتصدر لتدريسها، مستوعباً لتفاصيلها وفروعها.

– أن يكون (المعلم المصلح) ملمّاً بمبادئ فن التعليم، حتى يتمكن من التأثير في طلبته ومعاملتهم بحسب ما يلائمهم في الجوانب المعرفية والسلوكية؛ ذلك أن أهم ما يحتاج إليه المعلم هو – كما يقول ابن باديس –: «معرفة أساليب التفهيم، وفهم نفسية المتعلمين، وحُسْن التنزُّل لهم، والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم، حسب درجتهم واستعدادهم».

حضور علماء المغرب في نظرية الإصلاح الباديسية:

إذا ما سلَّمنا بأن البناء الحضاري هو نتيجة مشتركة بين الأخذ والعطاء، وأنَّ التأثير لا يكون الاَّ بالتأثر، فإننا نجد هذا في مَنْ تأثَّر بهم الشيخ عبد الحميد بن باديس في حياته العلمية ودعوته الإصلاحية في البناء المغاربي؛ فنحن نجد حضوراً متميزاً لأعلام المدرسة الأندلسية المغربية، وذلك في ما قرأ لهم ابن باديس من كتبهم قراءة تمحيص وتحقيق، وهي كثيرة في فنون مختلفة: من الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب، وكانت جلُّ هذه الكتب تشكِّل الزاد العلمي والثقافي لتلاميذ المدرسة الباديسية، ومِن هؤلاء الأئمة: القاضي عياض، والقاضي أبو بكر بن العربي، والإمام أبو عمر بن عبد البر.

أما العلامة القاضي عياض، فقد اختار الشيخ عبد الحميد بن باديس كتابه (الشفا)؛ لتدريسه لطلبته في المسجد الكبير بقسنطينة سنة ١٩١٣م، وأما الإمام أبو بكر بن العربي فيقول عنه ابن باديس: «إنه خزانة العلم وقطب المغرب»، وقد حقق له مخطوطَ كتاب العواصم من القواصم، وقدَّم له بمقدمة طويلة لما طبعه سنة ١٩٢٨م في جزأين بمطابع الشهاب بقسنطينة. وأهم ما يتميز به هذا التحقيق تلك الرسالة التي وضعها ابن باديس في الجزء الأول، والتي قرظها أكابر علماء المغرب العربي من الشيخ النخلي والطاهر بن عاشور وغيرهما من تونس، إلى الشيخ العابد بن أحمد بن سودة، ومعاوية التميمي وغيرهما من المغرب، مروراً بالشيخ ابن الموهوب القسنطيني، والشيخ شعيب بن علي التلمساني من الجزائر.

لقد تأثر الإمام ابن باديس بأفكار ابن العربي وبالإمام أبي عمر بن عبد البر القرطبي، فأخذ عنهما الكثير من فيض علمهم، وخاصة فيما انتهجاه في إصلاح طرق التدريس، التي كانت سائدة في عصرهما بالأندلس، وهو المنهج نفسه الذي

اتَّبعه ابن باديس في مقاومة روح التقليد والجمود الفكري الذي واجه دعوته الإصلاحية في الجزائر، وبذلك تكون أسس ومبادئ الدعوة الإصلاحية التغييرية عند ابن باديس جزائرية الروح ومغاربية المحتوى.

لعلَّنا نخلص في آخر مقالنا هذا عن إسهامات الفكر الباديسي في البناء الوحدوي المغاربي إلى أنَّ ابن باديس إنما وضع برامجه التربوية من أجل إعداد المتعلمين لحياة تلائم البيئة التي يعيشون فيها، أخذاً في الاعتبار ما ينبغي أن يحدث من تغيير في المجتمع، لاسترجاع الحرية والكرامة المسلوبتين لدى شعوب المغرب العربي، مع ما يمكن أن يلاحَظ من تفاوت بينها في درجات الأساليب الاستعمارية الفرنسية في الهيمنة والاستدمار، والتحقير والاستغلال؛ لذلك نجد ابن باديس يبيِّن الهدف التربوي الذي يسعى لتحقيقه بأنه: «الرجوع (بهذه الشعوب) إلى عقائد الإسلام المبنيَّة على العلم، وفضائله المبنيَّة على القوة والرحمة، وأحكامه المبنية على العدل والإحسان، ونُظُمه المبنية على التعاون بين الأفراد والجماعات، والتآلف والتعامل والتعاون، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله، ومن اتقى الله فهو أنفع الخلق لعباد الله».

يرمي المنهج الإصلاحي التغييري عند ابن باديس إذن إلى تكوين المواطن المغاربي المؤمن المتميز عن المستعمر المغتصِب في جميع جوانب حياته، وربط الأجيال المغاربية الصاعدة بالتراث والحضارة العربية الإسلامية، وهو ما يسميه بعض العلماء بوظيفة نقل التراث أو إحياء التراث؛ لذلك يؤكد ابن باديس أن هدفه التربوي الإصلاحي هو ترقية المجتمع الجزائري، والمجتمع المغاربي في جميع نواحي الحياة إلى أقصى ما تترقى إليه الأمم؛ ليكونوا محترمين من أنفسهم ومن غيرهم؛ يفيدون ويستفيدون، ويعرفون كيف يسوسون وكيف يُسَاسون، فتربح بهم الإنسانية عضواً مِن خيرِ مَن عَرَفَتْ من أعضائها؛ فإذا ما تحقق لهذه الشعوب الاستعداد الداخلي للتغيير، أو بعبارة مالك بن نبي: «التخلص من القابلية للاستعمار»، مصداقاً لقول الله – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] أمكنها الرقي في جميع جوانب الحياة، وذلك بتزويد المتعلمين بالقدر المناسب من المعلومات والخبرات المختلفة، فيساهموا في بناء صرح الأمة وخدمتها والدفاع عنها.

خاتمة:

لقد عاش الشيخ عبد الحميد بن باديس للفكرة والمبدأ، ومات وهو يهتف:

فإذا هلكتُ فصيحتي تحيا الجزائرُ والعربْ

فلم يَحِد عن فكرته ومبدئه قيد أنملة حتى آخر رمق من حياته، إنه ابن باديس الذي عرفته الجزائر والمغرب العربي والعالم العربي الإسلامي عالماً عاملاً، وفقيهاً مجتهداً، ومربِّياً مخلصاً، ومصلحاً وحدوياً، وسياسياً يبحث عمَّا يجعل شعوب المغرب العربي تقود ذاتها، وتخطط برامجها، وتضع عهودها، وإماماً يقضي بياض نهاره وسواد ليله في خدمة دينه ولغته وبلاده الجزائر، مع شعورٍ حاضرٍ بما لبلدان المغرب العربي من حق عليه.

هذا هو الرجل الذي كان قلبَ الجزائر النابض، وروحها الوثابة، وضميرها اليقظ، وفكرها المتبصر، ولسانها المبين، لم يضعف أمام هجمات الاستعمار المتتالية ولم يستسلم لمناوراته وتهديداته، ولا للإغراءات والمساومات، بل بقي ثابتاً على مبادئه صامداً حتى آخر حياته. ولعل أصدق ما قيل فيه كلمة الشيخ العربي التبسي: «لقد كان الشيخ عبد الحميد هو الجزائر؛ فلتجاهد الجزائر الآن أن تكون هي الشيخ باديس».

وإذا ما قال قائل: لماذا لم تصلِ الجزائر إلى أن تكون الشيخ ابن باديس، فذلك يعود في تقديرنا إلى شيوع التعصُّب، والانغلاق على الذات وعن الآخر، وحماية الضعف والعجز والتخاذل، وهو ما سمح بوصول بعض الناس من غير المؤهلين إلى مواقع القيادة، فجعلوا مهمة الحفاظ على استمرارهم هو هدفهم الأسمى، بعيداً عن الامتحان والاختبار؛ فكان ذلك أهمَّ سبب في تكريس الخطأ ومطاردة ومحاصرة أي توجه نقدي أو إصلاحي.

ولعل خير ما نختم به هذا المقال قولةٌ لابن باديس جاء فيها:

«أتمنى لإخواننا في كل ناحية أن يشتغلوا بما يهم وينفع، ويُعلِي ويرفع، ويُعرِضوا عن سفاسف الأمور، وبسائط المسائل؛ فدينهم دين العلم والمدنية، لا دين الجمود والهمجية وعصرهم عصر جد وفصل، لا عصر لعب وهزل، والمتخلف عن القافلة هو – بلا شك – عرضة للأتعاب وطُعمَة للذئاب».

الحداثة
بين الاستيعاب والاستلاب
قراءة مفاهيمية ونقدية

مولاي المصطفى البرجاوي
elberjaoui@gmail.com

من أعظم الفتن انتشاراً كانتشار النار في الهشيم، وأشدِّها هيجاناً، فلسفةُ الحداثة، وما من ناحية في الوطن العربي الإسلامي إلا أثير فيها نَقْعُها، وما من صُقّع وجِهَة فيها إلا استُفتِح فيها بابها، حتى أتخنت في المجتمعات جراحَها، وفشت في العقول تعفناتها.

إن موضوع الحداثة من الموضوعات التي أثير حولها اللغط والجدال ولا يزال؛ من كثرة ما كُتِب عنها وقيل، وخاصة أنه يُطرَق بطريقة مطاطية يستحيل على القارئ العادي فهم تصوراتها وأبعادها. وهناك من يرى أن التغير التاريخي الشامل الذي أحدثه الإسلام على النظم والأوضاع والأخلاق والقيم الدينية والاجتماعية والسياسية والإنسانية، هو بمقاييس الحداثة نفسِها حداثة، وأنه أقدر على الاستيعاب بحكم كونيته وعالميته إذا أُبرِزت بشكل صحيح خصائصه وتجلَّت أحكامه.

وبطريقة تعتمد إرضاء جميع الأطراف يذهب أحد المفكرين إلى «أن الاجتهاد هو حداثة المسلمين، وإذا صارت مجتمعاتهم تئنُّ من وطأة الجمود والتأخر، فمردُّ ذلك إلى تخلِّيهم عن الاجتهاد وتشبُّثهم بالتقليد»[1]. لكن السؤال المطروح: أي اجتهاد هو؟ ومن له الحق فيه؟ وخاصة في الآونة الأخيرة؛ إذ أضحى كل من له زاد علمي أو حقد على الدين، يتطاول على هذا الدين بفتاوى سائبةٍ؛ الغرض منها الخروج على الفطرة السليمة[2].

(1) Taha Jabir AL Alawani. Lijtihad. London. International Institut Thought 1991p 4.

(٢) لا يحق لأحد الخوض في الاجتهاد الفقهي إلا لمن يملك الكفاءة وشروط العلم؛ بأن يكون عارفاً باللغة العربية، ماهراً في التفسير وعلم الحديث والناسخ والمنسوخ وأصول الفقه وغيرها من العلوم المجمَع عليها لدى علماء الإسلام. ولقد نهى الإسلام عن القول بغير علم بشدة، من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

وثمة اتجاه آخر يعلن التمرد على التراث والقيم؛ في محاولة يائسة لاستئصال الثقافة العربية والإسلامية ومحوها، والاقتداء بالنموذج الغربي غثِّه وسمينه، لكن هيهات هيهات! فقد وجد نفسه معزولاً في وسط أمواج متلاطمة أفقدته هويته وجذوره التاريخية من جهة، ولقي صدوداً وتمعُّراً من طرف ذويه الذين حصَّنتهم ثقافتهم الإسلامية من شرور وآثام هذا التيار الحداثي الجارف من جهة أخرى، ومن ثَمَّ أصبح مثل الغراب الذي أراد تقليد الحمامة؛ فلا هو أتقن مشيتها ولا هو حافظ على مشيته، أو على حد تعبير الأستاذ محيي الدين عطية: كمن حُشر في مقعد غيره، وبدل أن يبحث عن مقعد يلائم حجمه بدأ يحاول التكيف مع وضعه الحرج في صورة (كاريكاتورية) مضحكة.

وهذا الاتجاه المغالي يمثله كلٌّ مِنْ: المفكر الجزائري محمد أركون، والمصري نصر حامد أبو زيد، والمفكر المغربي عبد الله العروي، وكمال أبو ديب، ومحمود درويش من فلسطين، وعبد الله الغذامي وسعيد السريحي من السعودية... وغيرهم من الذين أعلنوا ما يسمونه «القطيعة الإبستمولوجية مع التراث»، ويقصدون بطريقة أو بأخرى الإسلام أو ما يسمى بـ «التاريخانية»[1].

إذن: ما معنى الحداثة؟ وما المفاهيم والمصطلحات اللصيقة بها؟ وهل هي مجرد كلمات لغوية؟ أم أنها ذات مضامين أيديولوجية تاريخية وفلسفية تتخطى المضمون اللغوي العادي؟ وهل يمكن الحديث عن حداثة واحدة ووحيدة؟ أم حداثات متعددة، مترامية الأطراف؟ وما مقوِّمات وركائز الحداثة، وخاصة ذات النبتة الغربية؟ وهل تشكِّل مجالاً للالتقاء مع الثقافة العربية والإسلامية؟ أم تتجاوز ذلك إلى حد التنافر، رغم أنه لا مجال للمقارنة؟ ورحم الله من قال:

ألم ترَ أن السيفَ ينقص قدرُه
إذا قلتَ: إن السيفَ أمضى مِنَ العَصا؟

وسعياً منَّا إلى الأخذ بالمنهج العلمي في البحث والدراسة، سيكون من الأَوْلى الوقوف على التعريفات المحيطة بالحداثة، ثم محاولة الطواف بقراءة بانورامية، لن تحيط ـ بطبيعة الحال ـ بكل شاردة وواردة؛ لأن هذا الموضوع يستحق أكثر من مقال؛ نظراً لتشعُّب خيوطه وتشابك مفاصله، وخاصة الأدبية منها التي تتقاطر علينا كل يوم من أبناء جلدتنا وممن يَتَسَمَّوْن بأسمائنا في محاولة يائسة للتشويش على مبادئ الإسلام الراقية والرفيعة...

• قراءة في الجهاز المفاهيمي للحداثة:

الدلالة اللغوية لكلمة حداثة:

لقد تعرض ابن منظور لكلمة (ح د ث)، فقال: الحديث نقيض القديم. حدث الشيء حدوثاً وحداثة. وحَدَثَ أمرٌ إذا وقع[2]؛ فحداثة السن كناية عن الشباب وأول العمر.

وإلى جانب هذا المعنى فإن للكلمة بُعداً دينياً؛ انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف: «إياكم ومحدثات الأمور... »[3]؛ فمحدثات الأمور هي كل ما ابتدعه أهل الهوى من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها.

الدلالة الاصطلاحية للحداثة:

إن من أبرز صفاتها عدمَ قدرة أبواقها على وضع تعريف دقيق لها، وقد عرَّفوا الحداثة بعد الجهد بـ (الحداثة) ولقد صدق فيهم الشاعر ظنه حين قال:

وفسَّر الماءَ بعد الجهدِ بالماءِ

وقد عرَّفها أحدهم تعريفاً متطرفاً إلى حد الانبهار والانسلاخ بقوله: «مسار تاريخي كوني»[4]. وهناك من يحاول خلطها بالتحديث كما سنرى لتتماشى مع أطروحاتهم، ولتمرير أفكارهم التي تخفي ما وراءها بقوله: «إن الحداثة عملية متكاملة؛ فهي اكتساب معرفة متقدمة، ورَفْعُ مستوى المهارات، واستيعاب التكنولوجيا المتطورة، وإنتاجيةٌ منافسة»[5].

ومن ناحية أخرى تعرِّف «الموسوعة البريطانية» الحداثة بأنها: حركة ظهرت في أواخر القرن العشرين، تدعو إلى إعادة تفسير التعاليم الكاثوليكية التقليدية في ضوء النظريات التاريخية والفلسفية والنفسية، وتدعو إلى حرية الضمير، وترى أن العهدين (القديم والجديد) مقيَّدان بزمانهما، وأن هناك تطوراً في تاريخ الديانة الإنجيلية.

تبنَّى مثقفون من العرب هذا المفهوم للحداثة، واعترف بعضهم بعدم فصل الحداثة العربية عن الحداثة الغربية، ونظروا إلى الحداثة على أنها وحدة متجانسة مشعة عالمياً من الغرب؛ ولهذا حاولوا إسقاط الفهم الغربي للحداثة على الإسلام والقرآن؛ فقاموا بتفسير الإسلام في ضوء النظريات التاريخية والفلسفية

---

(١) التاريخانية (Historicisme): مصطلح طبقه أهل التخريب العقدي على الإسلام، ويعنون به: فهم الإسلام في حدود الحقبة الزمنية التي ظهر فيها، وفي ضوء البنية الاجتماعية والثقافية التي عمل عبرها، مع التأكيد على نسبية وعدم اتساع قواعده ومفاهيمه لتطبَّق على حِقَبٍ زمنية لاحقة.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٣٠٠هـ، مادة: ح د ث.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، السلسلة الصحيحة للألباني، (ح ٩٣٧).

(4) Abdallah Laroui, Islamisme, modernisme, lie`ralisme, op. cit, p 27.

(٥) علي أومليل: مواقف الفكر العربي من التغيرات الدولية: الديمقراطية والعولمة، منتدى الفكر العربي، سلسلة دراسات عربية، عمان الأردن، ١٩٩٨م، ص: ٢٣.

والاجتماعية التي تقوم على أساس إلحادي متعالٍ للدين، كما نظروا للإسلام والقرآن على أنهما مقيَّدان بفترة تاريخية معيَّنة لا تمتد إلى غيرها؛ فالعبرة عندهم بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وقام بعضهم باسم الحداثة بإحداث ما يسميه: «الإصلاح والتجديد في الإسلام»، وهو في الحقيقة تزوير وتحريف كما هو الشأن بالنسبة لحسن حنفي الذي دعا إلى استبدال اللغة التقليدية في التراث الإسلامي لمجانبتها الدقة والوضوح والتجديد، بل يرى أن لفظ «الله» لا يعبِّر عن معنى معيَّن (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)؛ حيث يمثِّل الرغيفَ عند الجائع، وعند المستعبَدِ «الحريةَ»[1].

وتناول الدكتور «الحداثي» محمد شحرور في كتابه (الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة)[2] كلَّ النصوص قطعية الدلالة - تقريباً - بالنظر والتأويل المنحرف؛ فقد تناول آيات الميراث وآيات الطلاق والزواج... وانتهى من تناوله لكل الآيات السابقة إلى فهمها فهماً جديداً مخالفاً لكل الفهوم الشرعية الصحيحة؛ فبالنسبة للربا حرم ربا الأضعاف المضاعفة دون غيره، وبالنسبة لآيات الميراث أباح التلاعب بالأنصبة التي حددها الشرع لكل فرد من أفراد الأسرة، وبالنسبة لتعدد الزوجات أباحه للأرامل ذوات الأولاد... إلخ. وقد استند في تناول النص القطعي الدلالة إلى شبهة تطوُّر المحيط البشري.

وبعبارة موجزة نقول: إن الإسلام راعى الثابت والمتحول ونحن في غنى عن هذه الاجتهادات المزيفة التي تطاولت على نصوص قطعية الدلالة انطلاقاً من قاعدة أصولية «الأصل في العبادات المنع حتى يرد الدليل، والأصل في المعاملات الإباحة حتى يرد المنع»[3].

وفي محاولة أخرى من الكاتبة المغربية رجاء ناجي مكاوي - وقد يكون ذلك منها بحُسْن نية لتلميع صورة الفكر الحداثي في الوطن العربي الإسلامي - تقول: إن كثيراً من أحكامنا على الحداثة لا تعتمد تمييزاً واعياً بمعانيها المختلفة؛ ففي المفهوم الشعبي وحتى النخبوي اختُزلَت الحداثة في اللائكية (العَلْمانية)؛ أي: الفصل الصارم بين الدين والدولة في معنى التصارع والتضاد، وفي الانتصار للمادية كـ (نقيض الروح) والعقلانية (الرافضة لكل حضور إبستمولوجي)، وفي كلمة نختزل - نحن العربَ والمسلمين - الحداثةَ في النموذج الفرنسي (كما يمثله فلاسفة عصر الأنوار)؛ وإن كانت فرنسا نفسها ليست باللائكية التي يصورها بها الكثيرون، بل هي دولة كاثوليكية منتصرة لمبادئ الكنيسة، ولا زال للكنيسة تأثير على عدد هائل من القرارات السياسية فيها[4].

ولكن: كيف نفسر الإعلان الصادر عن جاك شيراك الذي عبر فيه عن استيائه من انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي باعتبار أن أوروبا «نادٍ مسيحي»؟ وكيف نفسر الهجمة الشرسة على القرآن من خلال كتابات تدعو إلى قراءةٍ معاصرة للقرآن الكريم تتماشى مع أهواء الحداثيين اقتداءً بالنموذج الغربي، وإلى الهجوم على شخصية الرسول الكريم ﷺ باستخدام أبواق داخلية، بدعوى الحداثة؟

وفي المقابل؛ يبتعد المفكر الحداثي ذو الطابع الفلسفي الدكتور طه عبد الرحمن خارج السرب بإعلانه أن كل من نسخ الحداثة الغربية (لا يُعَدُّ حداثياً؛ حتى لو قلد الحداثة)؛ فقد تحقق أن الحداثة لا يمكن أن تكون إلا إبداعاً، وأنه ما من تقليد لها إلا وهو نسخ، وما من نسخ لها إلا وهو مسخ.

• تعريفات:

• الحديث: هو ترجمة لكلمة فرنسية (Moderne) التي تدل على ما هو معاصر وعلى ما هو محدَّد تاريخياً، وتتعارض مع ما هو قديم. ويبدو أن الكلمة تنحدر من اللغة الفرنسية القديمة. ونجد في اللاتينية (موديرنوس) (modernus) وتعني: الحديث. ولكن سرعان ما استُعملت الكلمة مصطلحاً لتحديد الحقبة التاريخية التي تمثل فترة انتقالية في أوروبا من العصور الوسطى المظلمة التي سيطرت فيها الكنيسة على جميع دواليب الحياة المدنية والدينية إلى عصر النهضة الأوروبية.

• التحديث: يقوم على إدخال ونقل العلوم العصرية والتكنولوجيا؛ شريطةَ ملاءمتها للمجتمعات المنقولة إليها وحفاظها على تراثها الثقافي؛ وهي الحقيقة التي سعى تيار التغريب إلى طمسها والتعتيم عليها، ووظف أدعياءه لمحاربة الفكر التحديثي واصفاً إياه بالظلامية والرجعية.

وتجدر الإشارة إلى أن التحديث للحضارة بتعبير مالك ابن نبي - رحمه الله -: «ليس سلعة يمكن استيرادها في صناديق أو بين دفَّتي كتاب ونقلُها من مكان إلى آخر، وليس إحدى لوحات الرسم التي ننقلها من مسمار الجدار الذي عُلِّقت عليه إلى مكان آخر؛ فأيُّ مشروع تحديثي لا يحترم دين الأمة وثقافتها

(١) د. حسن حنفي: ماذا يعني اليسار الإسلامي؟ مجلة اليسار الإسلامي، العدد الأول، ١٤٠١هـ، ص ٤٤، وهي مجلة لسان حال هذا التيار، لكنها انقطعت عن الصدور بعد فشلها في ترويج فلسفتها تلك.

(٢) هذا الكتاب قراءة عَلْمانية صدرت بعده عدة تعقيبات وانتقادات علمية لكثير من الباحثين والعلماء.

(٣) لمزيد من التوسع في هذا الموضوع يُرجَع إلى مقال الأستاذ غازي التوبة: (الكتاب والقرآن) قراءة معاصرة، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٩١، ربيع الأول، ١٤١٩هـ يوليو ١٩٩٨م.

(٤) د. رجاء ناجي المكاوي: من الحداثة المادية إلى الحداثة الأخلاقية: دور المسلم في ترشيد الانتقال، مجلة مدارك، العدد الأول، ديسمبر ٢٠٠٥م، ص ٧٤.

مشروعٌ آيلٌ – لا محالة – إلى الفشل الذريع مهما وُظِّفت له من طاقات وأموال».

وللخروج من هذا اللغط وهذا اللَّبْس المفاهيمي سنبحر في كتاب د. محمد خضر عريف الماتع (الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة) الذي يقول فيه: «إننا بصدد فكر هدام يتهدد أمتنا وتراثنا وعقيدتنا وعلمنا وقيمنا، وكل شيء في حاضرنا وماضينا ومستقبلنا... والذي يدفع إلى ذلك الظنِّ الخاطئ هو الخلط بين مصطلح الحداثة (Modernism)، والمعاصَرة (modernity)، والتحديث (Modernization). وجميع تلك المصطلحات كثيراً ما تترجَم إلى «الحداثة» على الرغم من اختلافها شكلاً ومضموناً وفلسفة وممارسة. والواقع أن الاتجاه الفكري السليم يتفق مع التحديث، ولكنه لا يتفق مع الحداثة. وإن يكن مصطلحا: (Modenity) و (Modenization) يمكن الجمع بينهما ليعنيا: المعاصرة أو التجديد، فإن مصطلح (modernism) يختلف عنهما تماماً؛ إذ ينبغي أن نفرق بين مصطلحين أجنبيين، ومن المؤسف أن كليهما يترجَم ترجمة واحدة؛ وهي (الحداثة).

أما المصطلح الأول فهو (modernity)، وهو يعني: إحداث تجديد وتغيير في المفاهيم السائدة المتراكمة عبر الأجيال نتيجة وجود تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن.

أما الاصطلاح الثاني فهو (modernism)، ويعني: مذهباً أدبياً، بل نظرية فكرية لا تستهدف الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التمرد على الواقع بكل جوانبه السياسية الاجتماعية والاقتصادية... وهو المصطلح الذي انتقل إلى أدبنا العربي الحديث، لا مصطلح (modernity) الذي يَحْسُن أن نسميه المعاصرة؛ لأنه يعني التجديد بوجه عام دون الارتباط بنظرية ترتبط بمفاهيم وفلسفات متداخلة متشابكة[1].

ما بعد الحداثة أو الحداثة القيمية المعيارية: وتسمى أيضاً بالحداثة العصرية التي تسعى إلى التخلص من الفكر المادي الإلحادي، وإلى إحياء القيم التي يؤمن بها رائدوها (القيم النصرانية – اليهودية)، وإلى بعث التقاليد وتقويمها عِوضَ نبذها، وإلى الموازنة بين العلم والدين، وإلى احترام الطبيعة...[2]. و (جاك دريدا) أبرزُ فلاسفة (ما بعد الحداثة) المعاصرين، وهو من أكثر الفلاسفة المعاصرين تأثيراً على الباحثين العرب، ويسمى بـ (فيلسوف التفكيك أو التقويض).

(١) للتوسع في الموضوع يُرجَع إلى كتاب الدكتور محمد خضر عريف: الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة، ص: ١١ – ٢١.

(٢) د. رجاء ناجي مكاوي: مرجع سابق، ص ٧٤.

وخلاصة فلسفة (ما بعد الحداثة) التي قام الباحثون العرب بتطبيقها على النصوص القرآنية أنه لا حدود فاصلة بين النص والتفسير، وهو ما يعني: تقويض مرجعية صاحب النص من جذورها، بمعنى: أن صاحب النص لا يستطيع أن يفرض على النصوص المعاني التي يريدها؛ فالعقل يجدد النصوص على نحو دائم... والتفكيك هنا إستراتيجية مهمتها إنكار أن يكون لأي نص معنى ثابتٌ ومستقرٌ[3].

• الإطار التاريخي للحداثة:

نظراً لاختلاف مدلول الحداثة، واستعماله المفرط من اتجاهات مختلفة، فإنه أفضى إلى إدخال اللبس والغموض عليها، وإلى تضارب التعريفات لدرجة فقدانها لمدلولها الأصلي، ولكن في محاولة منا للإمساك أكثر بهذا المدلول بالنواجذ، تحتم علينا النبش في حفريات التاريخ وما يختزنه من وسائل حِجاجية في أفق ملامسة هذا الموضوع؛ وفي هذا الإطار نسبر أغوار بعض الحداثات الغربية لتباينها:

الحداثة اللاتينية أو القديمة: وهي التي تمخضت عن عصر الأنوار والفلسفات المادية التي تبلورت خلاله، وهو ما استعجل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م؛ لارتكازها على نظريات فلسفية تلخَّصت مبادئها الأساسية في التمرد على الكنيسة وتسلُّطها واستبدادها (سياسياً)، ولأنها لم تميز بين استبداد الكنيسة وبين المبادئ الدينية كما هو الشأن بالنسبة للذين يحكمون على الإسلام انطلاقاً من سلوكيات المسلمين؛ فقد جاءت على شكل تمرد على الدين؛ وهو ما أفضى إلى الفصل الصارم بين الدين والدولة وصدور قانون اللائكية (العَلْمانية) سنة ١٩٠٥م.

ومن سمات هذه العَلْمانية: إقصاء كل تفسير ديني للعلم، والتعقيل المنفصل عن الإبستمولوجيا والفردانية... وهي حداثة

(٣) د. أحمد إبراهيم خضر: الأساس الإلحادي للمفاهيم الغربية، مجلة البيان، السنة الحادية والعشرون، العدد٢٢٣، ربيع الأول ١٤٢٧هـ مارس ٢٠٠٦م، ص ٩٩.

سياسية لكونها - انطلاقاً من النظريات الفلسفية - أنتجت قيماً جديدة تنتصر لحقوق وحريات الأفراد والمساواة وإشراك المواطن في تدبير الشأن العام...

كل هذه المبادئ والقيم الجديدة ظاهرياً استقيت من مبادئ تراكمت عبر التاريخ الطويل للبشرية، بدءاً من ديمقراطية أثينا إلى حقوق الإنسان كما أقرها القانون الروماني.

وفي هذا الجانب تبنَّى الغلاة من الحداثيين العرب ما يسمى بـ «المقايسة السطحية» على حد تعبير المفكر الإسلامي عدنان زرزور؛ وذلك سعياً منهم للتمرد على الأحكام الشرعية للإسلام بقولهم: إن أوروبا تقدمت لأنها تخلت عن دينها؛ ولهذا يجب بذل الإمكانات لوضع نسخة ببغاوية مطابقة في المجتمعات العربية.

لكن نسيَ هؤلاء المغفلون أن الدين النصراني محرَّف، وأن الإسلام دين قويم لا تشوبه شائبة ولا تستطيع الأيادي العفنة اقتلاعه؛ لأن الذي تولَّى حفظه والدفاع عنه هو الله، سبحانه وتعالى.

وما يؤكد أيضاً زيف هذا الادعاء انخراط فرنسا في مسلسل استعماري ضمَّ شمال إيطاليا سنة ١٧٩٥م، واحتلال مصر سنة ١٧٩٨م، وكذا الجزائر سنة ١٨٣٠م، والمغرب سنة ١٩١٢م.

الحداثة الأنجلوسكسونية:

وتعود بداية نشأتها إلى فترة قريبة من السالفة. ورغم تشابهها مع الحداثة اللاتينية في ضمان الحقوق (حقوق الطبقات البورجوازية وذوي النفوذ، ولم توسَّع إلا لاحقاً لتشمل بعض الحقوق للمواطنين العاديين والرعايا الإنجليز)، إلا أنها تتماهى معها في التسابق على الأسواق واستعمار العالم؛ فهي لم تؤمن باللائكية ولم تجعلها ركيزتها الأساس. ومع أنها اعتمدت فلسفة عصر الأنوار لكنها - سياسياً - لم تتعامل مع الدين بالشكل الراديكالي الفرنسي؛ لذلك أنتجت حداثة توفِّق بين الثورة العلمية والصناعية وبين الأعراف والتعاليم الدينية (الكنيسة). وامتد شكل الحداثة هذا إلى أمريكا الشمالية بحكم ارتباطها السياسي آنذاك بالبلد الأم[١].

ومن هنا نستخلص أن إنجلترا في بداية حداثتها لم تتخلَّ عن دينها، بل عدَّته إحدى الركائز الأساسية في نهضتها وتقدُّمها، والشيء نفسه ينطبق على باقي الدول التي تمسكت بقاطرة التقدم، مثل: اليابان، والدولة الصهيونية، والولايات المتحدة الأمريكية، والبلد الإسلامي الصاعد ماليزيا...

• دعائم ومقومات الحداثة:

يُجمِع أغلب الحداثيين على أن أواني الحداثة تقوم على الركائز التالية:

١ ـ العَلْمانية: هذا الداء الذي عشش وباض وفرَّخ لتمتد مخالبه وأدواؤه في جميع أوصال المجتمع العربي الإسلامي، وسال المداد بشأنها إلى حدِّ التخمة، وطبعاً كلٌّ على شاكلته، ولكن لا بأس من طَرْقها للوقوف على سمومها وجراحاتها التي اتسع فَتْقُها. وقد جاءت أغلب التعاريف في مجملها متفقةً على أن العَلْمانية تعني: إقصاء الدين بمعناه الإسلامي عن الحياة، ومن أهم تعاريفها غير الملتوية ما ذهب إليه صاحب المفرقعات التاريخية - وقد صدر له مؤخراً كتاب (نهاية الأسطورة... نظريات ابن خلدون مقتبسة من رسائل إخوان الصفا) - محمود إسماعيل في قوله: «مصطلح العَلْمانية يشتمل على نمط في التفكير يتعلق برؤية عامة للكون والحياة، ولا يقتصر على تصوُّرٍ للحكم فقط، إنه مشتق من العالم كبديل للرؤية اللاهوتية التي ترى أن هذا العالم محكوم بقوة غيبية مفارقة لهذا العالم تقدِّر مصائره وتتحكم في أقداره»[٢].

ويميز بعض الكُتَّاب (وعلى رأسهم الدكتور عبد الوهاب المسيري) بين نوعين من العَلْمانية:

ـ العَلْمانية الجزئية: وهي رؤية جزئية للواقع لا تتعامل مع الأبعاد الكلية والمعرفية، من ثَمَّ لا تتسم بالشمول، وتذهب هذه الرؤية إلى وجوب فصل الدين عن عالم السياسة، وهو ما يعبَّر عنه بعبارة: «فصل الدين عن الدولة» ومثل هذه الرؤية الجزئية تلزم الصمت حيال المجالات الأخرى من الحياة.

ـ العَلْمانية الشاملة: وهي رؤية شاملة للواقع تحاول بكل صراحة تحييد علاقة الدين والقيم المطلقة والغيبيات بكل مجالات الحياة، ويتفرع عن هذه الرؤية نظريات ترتكز على البعد المادي للكون، وأن المعرفة المادية هي المصدر الوحيد للأخلاق، وأن الإنسان يغلب عليه الطابع المادي لا الروحي[٣].

هذا التقسيم الذي تبنَّاه المسيري شديد البيان، وهو يحاول من خلاله إيهام القارئ أن لا تعارض بين الإسلام والعَلْمانية الجزئية؛ لأنه حتى لو كانت العَلْمانية الجزئية هي فصل الدين عن الدولة؛ فهي تعني العمل على الانتقاص من شمولية الدين، بل تهدف إلى تبعيضه، وهو الأمر الذي يتناقض مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا

(١) د. رجاء ناجي مكاوي، مرجع سابق، ص ٦٤.

(٢) جريدة الأحداث المغربية، وهي جريدة حاقدة على الدين.

(٣) سبق لمجلة البيان أن تناولت أطروحة د. المسيري هذه حول العَلْمانية الجزئية والشاملة بدراسة ناقدة للأستاذ محمد إبراهيم مبروك في العدد ٢١٥ الصادر في رجب ١٤٢٦هـ، أغسطس ٢٠٠٥م.

اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

٢ ـ العقلانية: ويُقصَد بالعقلانية: احتكام الإنسان إلى العقل، في كل ما يحيط به، وفي وجوده وحياته وعلاقاته؛ فلا يقبل إلا ما يقبله عقله، ويرفض ما لا يقبله، ومن ثَمَّ يكون العقل أداةً للحكم على كل شيء، ووسيلةً لسَبْر أغوار مختلف الظواهر، وإدراك كنهها. وهناك مدارس فلسفية ومذاهب فكرية عقلانية متعددة، لا مجال لاستعراضها هنا، غير أنه لا بد من الإشارة إلى (روني ديكارت ١٥٩٦م - ١٦٥٠م René Descartes) الذي يُعدُّ مؤسساً للعقلانية الحديثة، والذي يركز على «الشك المنهجي» أو الشك العقلي الذي يرمي إلى تحرير العقل من كل حكم مسبق، ومن أي سلطة مرجعية، ويؤدي إلى الحقيقة عن طريق البداهة العقلية[١].

أما مفهوم العقل عند المسلمين فيمثل قوة ربانية يسَّرها الله ـ تعالى ـ للإنسان؛ ليستعملها ميزاناً يميِّز به بين الخير والشر. وقد ذكر ـ تعالى ـ كلمة (عقل) تسعاً وأربعين مرة في كتابه العزيز، ولم تَرِد في صيغة الاسم، بل في صيغة الفعل الماضي مرة واحدة عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة:٧٥]، وذُكِرت الكلمة في صيغة المضارع ثمانياً وأربعين مرة. ومجمل المعاني التي تدل على العقل في القرآن تدور حول عدم الإدراك وغياب الفهم الناتج عن غشاوة الجهل التي تمنع هذا النور الإلهي وهذه المَلَكة من القيام بواجبها، وتجعل الإنسان يعي ربه ليأخذ العبرة ويسيرَ في الصراط المستقيم.

وانطلق فقهاء الإسلام من الاستعمالات القرآنية ليحددوا العقل التشريعي؛ أي: العقل التكليفي عند المسلمين المراعين لله. وتساءل الحارث المحاسبي: متى يسمى الرجل عاقلاً عن الله تعالى؟ وكان جوابه: «إذا كان مؤمناً خائفاً من الله عز وجل. والدليل على ذلك أن يكون قائماً بأمر الله الذي أوجب عليه القيام به، مجانباً لما كرهه ونهاه عنه؛ فإذا كان كذلك استحق أن يسمى عاقلاً عن الله، بل إنه لا يسمى عاقلاً عن الله من يعزم على القيام بشخصه فأقام على ذلك مصرّاً غير تائب»[٢].

(١) في بعض الروايات القصصية، واستناداً إلى ما يسمى بالشك المنهجي والإلحادي في الآن نفسه؛ حاول أحد المعلمين إيهام التلاميذ استغلالاً لبراءتهم بنفي وجود الله، فقال لهم: لو قلت لكم إن في هذا النهر البعيد عنا فرساً يشرب ماء، سيكون جوابكم بطبيعة الحال بالنفي والإنكار؛ لأنكم لم تروه، الشيء نفسه ينطبق على وجود الله؛ لا نراه، إذن هو غير موجود. فتقدم أحد التلاميذ النجباء بسؤال معجز ومحير: «يا أصدقائي وزملائي: هل ترون عقل المعلم؟ فأجابوا: لا، فقال لهم: إذن المعلم بدون عقل.

(٢) الحارث بن أسد المحاسبي وأبو حامد محمد بن محمد الغزالي، شرف العقل وماهيته، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦، ص ٢٣.

ورأى الغزالي أن «العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه؛ لأنه يجري فيه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين؛ فكيف لا يَشْرُف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟»[٣].

٣ ـ العلم: ويعني ذلك عند أغلب الحداثيين: التخلص من قيود الميتافيزيقا والغيبيات، والأخذ بالمنهج العلمي الذي لا يُقِرُّ إلا ما تثبته التجارب العلمية، وقد سبق لي أن توقفت عند مقالات متعددة في هذا المجال تحاول اختزال أسباب تخلُّف البلدان العربية والإسلامية في الركون إلى الغيبيات، وكأن الإسلام يقف حجر عَثْرة أمام مسايرة البلدان المتقدمة. يقول الدكتور الإنتربولوجي الحداثي أحمد أبو زايد: «التفكير العلمي يتميز بالعقلانية والمنطق الواقعي الذي يرتفع عن مستوى الخرافات التي تؤلف جانباً لا يستهان به من التراث الثقافي لدى كل الشعوب بما في ذلك التراث الثقافي العربي، أي أن التفكير العلمي يقوم على المواجهة المباشرة مع الواقع وفَهْم الأمور كما تتمثل للواقع الواعي المدرك لأبعاد الحقيقة العِيانية، والتي يمكن البرهنة عليها بالأدلة والحجج المقبولة عقلاً، مع توخي عدم الخلط بين النظرة العقلانية الواعية للأشياء والأفكار والتخيلات التي تفتقر إلى الدليل؛ كأن تُردَّ حالات الأعاصير والفيضانات المدمرة إلى غضب الله...»[٤].

ويمكن الرد على هذا الحداثي في نقطتين:

ـ النقطة الأولى: أن الإسلام لم ولن يكون في يوم من الأيام باباً موصوداً في وجه العلم، بل حث على طلبه في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة. يقول الرسول الكريم ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة»[٥]؛ شريطةَ عدم مخالفته للضوابط الشرعية، وما زوبعة الاستنساخ البشري عنا ببعيدة؛ تلك التي وقف في وجهها كل ذي لبٍّ وبصيرة من أهل العلم والدين.

ـ النقطة الثانية: وهي المتمثلة في محاولة تحييد الدين عن الكوارث: من أعاصير وزلازل وغيرها، واعتبارها ظاهرة كونية لا علاقة لها بغضب الله. هذه النقطة التي أَفْحَمَ فيها علماء الإسلام، وخاصة المهتمين بالإعجاز العلمي بأدلة علمية وشرعية مِثْلَ هؤلاء القائلين بتحييد الدين؛ وإلا فكيف نفسر قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾. [الطلاق:٨]

(٣) أبو حامد الغزالي، مرجع سابق، ص ١٥.

(٤) د. أحمد أبو زايد: هل تقوم ثورة علمية في العالم العربي؟ مجلة العربي، العدد ٥٦٨، مارس، ٢٠٠٦م، ص ٢٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، (ح ٢٦٩٩).

٤ ـ الحرية الفردية / الليبرالية: وتعني عند الحداثيين: تحرُّر الفرد من كل القيود والأغلال التي تعطِّل قدراته الذاتية في البحث عن أنجع السبل لتحقيق ما يطمح إليه من تطوُّر، أو تحول دون تلبيته لرغباته، أو تمنعه من الوصول إلى السعادة وَفْقَ تصوره الخاص، ويمتزج هذا المفهوم بمقاصد المذهب الليبرالي الذي يَعدُّ الحرية هي الغاية الأولى والرئيسة التي يتطلع إليها الفرد بطبيعته، وهو ما أدى إلى ظهور بعض الأمراض الاجتماعية: من لواط وسحاق وانتحارات جماعية وأنواع شتى من السفور والتفنج، ثم الأمراض الفكرية المتمثلة في التطاول على كتاب الله وسُنة نبيِّه المصطفى ﷺ، دون أن ننسى ما قامت به بعض الصحف الغربية - خاصة الدنماركية والنرويجية وبعدها الصحف العربية الحداثية - من نشر رسوم كاريكاتورية مسيئة لرسول الله ﷺ بدعوى حرية التعبير (الليبرالية).

٥ ـ الديمقراطية: وهي إحدى الأدوات المهمة التي وظفها الحداثيون؛ من خلال استعمالها استعمالاً غربياً، وهي تجعل المرجعية في الأحكام الدينية والدنيوية إلى الشعب، ولا أدلَّ على ذلك من اشتقاق كلمة الديمقراطية من كلمتين يونانيتين: (Demos) وتعني: الشعب، و (kratos) وتعني: السلطة، فتكون العبارة: «سلطة الشعب»، ومفاد ذلك كلِّه إرضاء الشعب ولو كان ذلك على حساب القيم الدينية الإسلامية.

لم يبتعد الزعيم البريطاني (ونستون تشرشل) عن الحقيقة عندما قال: «إن الديمقراطية هي أسوأ نظام يمكن الأخذ به، ما لم يطبَّق على الجميع». ولا نظن أننا نبتعد عن الحقيقة أيضاً عندما نقول: إن أسوأ ما في هذا النظام أنه صُمِّم بحيث لا يمكن أن يطبق على الجميع، بل لمن يملك شراء الأصوات وبيع الذمم والاتِّجار في الأزمات بالشعارات؛ فالتطبيق الديمقراطي لا يعدو أن يكون بيعاً للحكم، وهو ما تنبأ الرسول ﷺ بحصوله حين قال: «أخاف عليكم ستاً: إمارة السفهاء، وسفك الدم، وبيع الحكم، ونشوء جماعة يتخذون القرآن مزامير، وكثرة الشُّرَط»[1].

٦ ـ احترام حقوق الإنسان: المقصود بذلك احترام الحقوق والحريات الفردية والجماعية، وحماية الكرامة الإنسانية المتأصلة في طبيعة الكائن البشري، وَفْقَ المعايير الكونية التي أقرَّتها المواثيق الدولية لحقوق الإنسان.

فمن حيث الالتزام بالتطبيق نجد بَوْناً شاسعاً بين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي يكاد يخلو من تحديد الجهة المكلَّفة بتنفيذه، أو الإجراءات التي تُتَّخذ بحق من يخرق تلك المبادئ، ما عدا إشارات قليلة مبهمة؛ ومن هذه الإشارات قوله في الديباجة: «... فإن الجمعية العامة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفَه كافة الشعوب والأمم...»[2].

أما الشريعة الإسلامية فإن فقهاءها متفقون بشكل عام على دلالات النصوص المتعلقة بحقوق الإنسان في الإسلام. ومما ييسر ذلك أن المكلفين بحماية حقوق الإنسان وتمكين الأفراد من ممارسة تلك الحقوق محدَّدون بوضوح في الشريعة الإسلامية؛ فالتكافل الاجتماعي في الإسلام - مثلاً - منظَّم بدقة؛ فالزكاة محددٌ مقدارها وتُفْرَض على المقتدرين من أبناء الأمة لصالح الضعفاء بصرف النظر عن جنسهم أو دينهم أو أصلهم، ويُلزَم ولي الأمر بتطبيق ذلك. والحدود مقررة بوضوح وخرقها يستدعي عقوبتين:

- دنيوية: يُنزلها أولياء الأمور.
- وأخروية: تتمثل في العذاب الذي يَحيق بالظالمين يوم الحساب: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [**البقرة**: ٢٢٩].

والأمثلة الباهرة على احترام الإسلام لحقوق الإنسان يصعب حصرها؛ لكثرتها، منها قصةُ ذلك القبطي في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الذي قصد المدينة، وهو يرمي إلى لقاء أمير المؤمنين هناك، عندما أقدم ابن والي مصر آنذاك عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ على ضربه دون وجه حق، وقطع هذا القبطي كلَّ تلك المسافة؛ لأنه كان يعلم بأن أمير المؤمنين سينصفه من ابن والي مصر، ولولا ذلك لما كان تجشم كل ذلك الجهد والعناء وطول المسافة، ولَمَّا دخل على الخليفة وألقى شكواه، فما كان من الخليفة إلا أن أمر الوالي وابنه بالحضور إليه، ولَمَّا تثبَّت من الظلم الذي حاق بالقبطيِّ أمر القبطي بأن يضرب ابن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ وقال كلمته الشهيرة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

٧ ـ النسبية: وهو مذهب ظهر لأول مرة في القرن الخامس قبل الميلاد، يقول بأن الصحيح والمغلوط والجيد والرديء ليست صفات مطلقة، وأن كل شيء يتغير ويتبدل حسب الظروف. إن هذه القضية ليست صحيحة على إطلاقها؛ فالإسلام على عكس ذلك؛ يجمع بين الثوابت (المتمثلة في الأحكام)، وبين المتغيرات (المتمثلة في الفروع الاجتهادية)، وقد توقف بشكل

(١) أورده الألباني في صحيح الجامع برقم: ٢١٦.

(٢) للتوسع يُرجَع إلى كتاب: حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والإعلان العالمي، للدكتور علي القاسمي، كتاب المعرفة للجميع، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ٢٠٠١م.

موسَّع فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه الممتع (الخصائص العامة للإسلام) على اللَّبْس والغبش اللذين يلفَّان هذين العنصرين اللذين تحاول الاتجاهات التشكيكية توظيفهما في هذا الزمن الذي أصبح فيه التخلف بل الضعف حكمة للإجهاز على الإسلام وقيمه الراقية، والذي لا يحتاج إلى بيان وتوضيح مميزاته، ورحم الله القائل:

وليس يصحُّ في الأذهان شيء
إذا احتاج النهار إلى دليل

• الحداثة في مقابل الدين، إسقاطٌ لتجربة وتعميمٌ لما هو خاص:

إن المرء حين يفتح الحوار مع الآخر في إطار تبادل وتداول المعرفة والخبرات، إنما يسعى إلى إدراك المناهج العلمية لا التربوية، تلك التي ارتكزت عليها البلدان المتقدمة في بناء حضارتها ومجدها، واستيعابها بشكل حذر وفطن لا الابتلاع التام دون التمييز بين الصالح والطالح. أما التربية والثقافة فيستمدها من دينه وتراثه والعرف السائد الذي لا يصطدم بالقيم الحضارية الإسلامية لمجتمعه، وبذلك يصبح الهدف من التلاقح الفكري إدراك الحضارات الإنسانية في عمقها المعرفي، وليس الولوغ في فكرها التربوي وفلسفتها الحياتية. والتجربة اليابانية مثال صارخ وساطع لأنموذجٍ استطاع في ظرف وجيز أن يَخرُج من رِبْقة التخلف إلى بريق إشعاع التقدم دون محو ثقافته وإرثه العتيق، كما تسعى إلى ذلك ثلة من الحداثيين العرب بكل ما أوتيت من قوة الإعلام والمنشورات والدعم الخارجي، في العمل على التعتيم على تاريخ الأمة الإسلامية وطمس هويتها الدينية. يقول «برتراند راسل»: «كانت اليابان دولة متخلفة اقتصادياً ولم تكن تشعر أبداً أنها متخلفة ثقافياً».

ولكن ما يحزُّ في النفس هو إقبال المسلمين على استيراد ثقافة الآخر الممسوخة: من إعلام ماجن، ولباسٍ عارٍ مفضوح زاعمين أن التقدم في العري؛ فراحوا ينزعون الثياب، وفاتَهم الأخذُ بالعلم وآلياته التي هي أساس نهضة البلدان ما لم تتعارض مع المبادئ السامية للإسلام. يقول الشاعر العربي:

قلّدوا الغربيَّ لكن بالفجورِ
وعن اللُّب استعاضوا بالقشورِ

لهذا - كما قال أحد دعاة هذا العصر - فإن: «الواجب أن نأخذ الحق من كل شخص، وأن نتجنب الباطل مهما كان قائله». وقبله ابن رشد ـ رحمه الله ـ قال: «إنا ألفينا لمن تقدَّمَنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته

> **المرء حين يفتح الحوار مع الآخر في إطار تبادل وتداول المعرفة والخبرات، إنما يسعى إلى إدراك المناهج العلمية لا التربوية**

شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسُررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه».

وخلاصة القول: إن الفكر الحداثي يرتكز على النقاط التالية:

ـ إعلان القطيعة التامة مع الدين، وتجاوز ما يسمونه (سلطة النص)، والتأكيد على أن النص يجب أن يُقرَأ في سياقه التاريخي (أي: النص الشرعي بطبيعة الحال).

ـ التمرد الصارخ على القيم والثوابت الفكرية والأخلاقية، والضيق الشديد بكل ما له صلة بالدين.

ـ الدعوة إلى الاقتداء بالأسياد البيض (الغرب) بكل ما عندهم من إنجازات معرفية، وظواهر إلحادية، وتمزقات اجتماعية.

ـ الدعوة إلى فسح مجال الاجتهاد الشرعي للجميع، ومن ثَمَّ إقصاء دَوْر العلماء.

سبحان الله! هل يريدون أن تكون أمَّتُنَا ثُلَّةً من الغلمان بلا رُؤوس؟ ويرحم الله أبا حنيفة؛ إذ مرَّ على جماعة يتفقهون، فقال: ألَهم رأسٌ؟ قالوا: لا. قال: إذن لا يفلحون أبداً[1].

وللـه درُّ القاضي عبد الوهاب بن علي المالكي ـ رحمه الله ـ إذ يقول:

متى يصلُ العطاشُ إلى ارتواءٍ
إذا استَقَتِ البحارُ من الرِّكايَا
ومن يَثْني الأصاغرَ عن مُرادٍ
إذا جلس الأكابرُ في الزَّوايَا
وإنَّ تَرَفُّعَ الوضَعَاءِ يوماً
على الرُّفَعَاءِ من إحدى الرَّزَايَا
إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي
فقد طابت مُنَادَمَةُ المَنَايَا

(١) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه، (٧٩٠).

حرية اللباس أم حرية منع اللباس؟

إبراهيم بن عبدالله الأزرق

عندما أطالع تقريراً حقوقياً يتعرض لحرية اللباس، ألحظ بصورة متكررة حياء أدعياء الحقوق – حتى أولئك الغربيون الذين لا يدينون بدين – مِنْ وَصْف دعوتهم وصفاً يعبِّر عن حقيقتها؛ فهم يشـــنعون على بعض البلدان الإســـلامية بدعاوى أنها لا تكفل حرية اللباس. وهذه العبارة تَرِد في تقارير المنظمات الغربية عن السعودية والسودان وربما غيرهما بين فينة وأخرى. والحق أن هذه الدول – كغيرها – تكفل حرية اللباس، لكنها لا تكفل حرية التعري، أو بعبارة أخرى: لا تكفل حرية منع اللباس؛ فللمرأة أن تلبس ما شـــاءت، لا يمنعها أحد ولا يســـألها إنسان؛ لكن عليها أن تلبس فوقه ما يستر بدنها في المجامع العامة؛ فهناك حد من اللباس يجب على المرأة أن تلتزمه، كما هو الشـــأن في معظم دول العالم التي تمنع التعري وتجرِّمه في المجامع العامة وتضع حدوداً تَعُدُّ تعدِّيها جريمة يحاسب عليها القانون.

وفلسفتهم التي يبنون عليها ذلك المنع، هي: أنه من حق الأمم والشعوب أن تمنع لباساً ترى فيه ما يخدش حيـــاءها أو يثير مشاعرها أو يستفزها في قيَمِها وثوابتها؛ فحرية الفرد ينبغي أن تُكبَح وتُوقَف عند حدها؛ إن كانت تتصادم مع حرية المجتمع. وحرية الجماعة أَوْلَى بالتقدير من حرية زيـــد أو عمرو، بل حتى لو لم تكن هناك جماعة؛ فحرية يدك أثناء تمخطك تنتهي حيث تبدأ حريتي في وضع أنفي، وحرية سوأتك ينبغي ألا تعكر على حرية عيني، وحرية جَسَدِك يجب أن لا تثيرَ مشاعرَ الآخرين...

فالناس في اللباس إذاً محكومون بحد أدنى ليسوا أحراراً في تجاوزه عند معظم البشرية؛ حتى العلمانيون منهم

نعم! هنـــاك دول وولايات أباحت التعري في أماكن عامة محددة، ورضي المشـــرِّعون لمن رضي لنفسه أن يقلد الحيوان بذلك الســـلوك، كما في بعض ولايات أمريكا؛ ولا سيما عند شـــواطئها؛ لكن مع هذا لا يوجد فـــي أمريكا قانون اتحادي يجعل التعري حقاً من الحقـــوق مكفولاً في كل مكان، كما لا يوجد تشريع اتحادي يمنعه، بل لكل ولاية قانونها الذي يختلف في حدِّ التعري الممنوع وعقوبته؛ فهذه رائدة الحريات الغربية لم يتجرأ نظامها على كفالة التعري حقاً عاماً. وكذلك الشأن في ســـائر الدول التي يســـمونها متحضرة؛ غير أن مضايقة النـــاس وأذاهم بأي تصرُّف ممنوع في الجملـــة أينما كانوا؛ وهذا مبدأ عام مُقَر.

فالناس في اللباس إذاً محكومون بحد أدنى ليسوا أحراراً في تجاوزه عند معظم البشرية؛ حتى العلمانيون منهم، دعك من المستمســـكين بالأديان، ويبقى الجدل بين الأمم في هذا الحد: ما هو؟ ومن الذي يحدده؟ وما عقوبة متجاوزه؟

فمن شاء أن يكون عبداً مسلوب الحرية للقوانين البشرية وآراء حفنـة من مشـــرِّعيها، أو اختـــار أن يكـون عبداً لهواه؛ فهو (حر!)، لكن ليعرف حقيقتـــه وَلْيتأمل أي عبودية اختار، ولا يتعدَّ حدَّه بالاســـتطالة على مَنْ آثر أن يكون عبداً لله رب العالمين ملتزماً شـــرعه في اللباس وغيره، وَلْيعلم أنه لا بد له من إحدى العبوديتين؛ فلا إنســـان بلا سلاسل ولا قيود؛ كما قال جان جاك روســـو (ملهم الثورة الفرنسية): «إن الإنسان يولـد حـــراً، وفي كـل مكـان يقيـد بالســـلاســـل». وكـأني بروســـو وقـد سرق شـــطر كلمـة عمـر بن الخطـاب – رضي الله عنه – يوم قال لبعض أمرائه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

ويبقى الفرق أن نظام الإســـلام يكرِّم الإنســـان من حيث دعوتـــه للمكارم وإلزامه بحد أدنـــى منها، ومن جملة تكريمه مَنْعُه استعباد عباد الله عباداً أمثالهم بقوانين يخترعونها وَفْقاً لأهوائهم، بل غاية أهل الإســـلام عبَّر عنهـــا ربعي بن عامر بقوله: «نحن أمة ابتعثنا الله لنخرج من شـــاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد».

ولذا كان من المعقول المقبول أن تكفل تشـــريعات البلدان الإسلامية حرية اللباس بضوابط، لكنها لا ينبغي أن تكفل أبداً حريـــة نزع اللباس، بل يجـــب أن تضع حداً أدنى من اللباس؛ وللمـــرأة أن تلبس تحته ما يلائمها وأن تزيد عليه ما تشـــاء؛ وذلك الحد مســـتقى من تشريعاتها التي يدين بها أهلها، كما أن الحـــد الأدنى من اللباس في كل بلـــد يخضع لثقافة أهل ذلك البلد.

وأدعياء الحقوق يدركون ذلـــك؛ فكان من تزويرهم أثناء تشـــنيعهم على البلدان المحافظة، أن عيَّروا عمَّا يطالبون به من: حرية التعري ونزع اللباس، بـ: (حرية اللـــباس)؛ فيرمون بلداننـــا المحافظة التي تفرض حداً أدنـــى مـــن اللباس – لا يعجبهم أن تستتر النساء به – بمنع حرية اللباس زوراً وبهتاناً؛ لتجد كلماتهم قبولاً عند بعض المغفلين.

ومن العجيب أن هـذا التعبيـر: (منـع حـرية اللبـاس) لا يستخدمونه مع دول تمنـع – فعلاً – حرية اللباس!

فهذه فرنســـا – مثلاً – دولة منعت غطاء الرأس وحاربت البرقع والنقاب؛ فمنعت بذلـــك حرية اللباس ومع هذا الكبت لحريـــة اللباس تجد تقييمها في مثـــل: تقرير «بيت الحـــرية» فري دوم هـــاوس Freedom house (وهـــي: جمعية تُعنَى بالحريـــات في العالم وتدعمها وتصـــدر تقارير عنها) تجدها قد أحرزت أعلى تقييم في حريـــة اللباس، والحريات الدينية ونحوهما؛ مع أن فرنسا بمنعها الحجاب ومحاربتها النقاب قد تعدَّت تعدِّياً صريحاً على حرية اللباس وحرية التدين، لكنها لم تعتدِ على حرية نزع اللباس وحرية التعري وحرية ترك الدين؛ وهذا مـــا تريد صيانته تلك الشـــرذمة الأقلية من الحقوقيين العلمانيين. وهذا ما لا يرضاه المســـلمون، ويعلمون أنه مخالف للعقل الصحيح والفِطَر السليمة، والشرائع المنزَّلة، ولا يتفق إلاَّ مع منطق الشهوات الرخيصة التي أضحت تستعبد النساء اليوم باسم الحرية؛ لتعرض أجسادهن في سوق النخاسة العصرية.

إن اللبـــاس عنوان حضارة إنســـانية عُرِفَت منذ عهد آدم – عليه الســـلام – وقد قال رب العزة – سبحانه –: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّـيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَـوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْـثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ٢٧]، ومن جملة أولياء الشياطين أولئكم الذين يريدون أن ينزعوا عن بني آدم ألبستهم بدعوى الحرية؛ فتعســـاً لهم. وعجبي لا ينقطع من حرية يريد أصحابها من بني الإنسان أن يكونوا كسائر الحيوانات!

أعوذ بالله الســـميع العليم من الشيطان الرجيم: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ٢٦].

ما بين رمضان الماضي ورمضان القادم!!

سارة بنت محمد حسن

لا بد أن القارئ تعجَّب من العنوان ولا ريب؛ فليس هذا وقت يُعتَاد الكلام فيه عن رمضان؛ ولهذا اخترته!

فقد مضى ما يقرب من نصف العام على رمضان الماضي وبقي مثلها تقريباً حتى رمضان القادم. ومنا من سيعيش ليدركه ومنا من لن يدركه، كما أنه كان منا من أدركه، ومضى بعضنا قبل بلوغه.

والسؤال الآن: هل فترت الهمم عمَّا عهدناه في رمضان؟ هل نسينا ما عزمنا عليه آنذاك ونحن نبكي فِراق الشهر ليلة العيد؟

هل فترت الهمم هذه الأيام؟ بل قبلها بأيام... عفواً بأشهر؟

نعم فترت!

لماذا؟

لكي نعلم ضعفنا ونلزم قَدْرَنا ولا نغتر بأعمالنا.

فنحن لم نجتهد في رمضان؛ ولا تُسَمِّ قيامك وصيامك اجتهاداً، ولو كنتَ سميته اجتهاداً وأعجبك وانتفختْ له أوداجك، فاعلم أنه سبب من أسباب الفتور.

وَلِنعلم أننا لم نجتهد في رمضان، علينا أن ندرك كيف مرت عبادتنا فيه:

لقد كبل الله لنا الشياطين، وسيَّر لنا قارب العمل فصعدنا مع الصاعدين، وسار بنا الركب مع التيار بلا جهد يُذكَر؛ فما أيسر العمل مع العاملين! وهذا حال رمضان والمجتهدين؛ فما أسهل الإبحار مع التيار!

فالجميع في رمضان قد صام وقام (أعني أغلب من حولنا)، والجميع تحركت شفاههم بالذكر والقرآن، بل إن مواعيد دوام الأعمال تغيرت فصار لدينا متسع من الوقت للراحة ومِن ثَمَّ العبادة، فظهرت أمارات الصلاح فأنت لست غريباً ولا تبحر ضد التيار... وما أصعب الإبحار ضد التيار!

وعند انتهاء الثلاثين يوماً المباركات وقد نهلتَ فيهن من الحسنات – بإرادتك أو رغم أنفك – فلا تعجب بنفسك ولا تظن فيها الخير وتتفرج أساريرك ثقةً وتتقلب شفتاك ازدراءً لحال أقوام تظن أنهم لم ينالوا ما نلت، بل احمد ربك الذي أعطاك فلم يحرمك، ورَغَّم شيطانك فلم يخذلك، وكبح جماح نفسك بما رزقك من الصوم فلم يُسلمك: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ولم أتعرض في كلماتي القليلة للرياء والتسميع وما إلى ذلك رحمة بنفسي وبالقارئ.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة؛ فمن كانت فترته إلى سُنَّتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك»[١].

إذاً هذا الفتور الحالي بعد مرور نصف عام على رمضان يجب أن يوجَّه لكي يكون على سُنة رسول الله ﷺ؛ فهو من نعم الله علينا لنعلم أن الله هو الرزاق؛ يرزقنا العمل ثم يجزل لنا العطاء عليه، فإن حُرمتَ هذه الأيام عملاً كنتَ عملته من قبل فارفع كفَّيِّ الضراعة متوسلاً لله – تعالى – وافرح بقبضة الحزن تعتصر الفؤاد وقل: «يا رب ردَّني إليك رداً جميلاً» لعل الذي نفسي ونفسك بيده أن يُجري عليك الرزق من جديد؛ فإنه – سبحانه – ما منعك إلا ليعطيك؛ فابسط كفاً: وتصدق علينا[٢]

فما أحوجنا لمعرفة قَدْر أنفسنا، وما أحوجنا لرفع أيدي الضراعة لرب العزة – سبحانه – لنعترف بين يديه بضعفنا وعجزنا إلا أن يتغمدنا الكريم الرحيم برحماته، وما ألطف العليم الخبير بعباده؛ إذ جعل لهم من أنفسهم واعظاً، فما اشتكى أحدهم الفتورَ إلا كان حقاً علينا أن نبشره بالتوبة، فَلْيستبشر خيراً فإن شكواه دليلُ إيمانه؛ فإنه لو كان ميتاً لما كان للجرح ألمٌ؛ وهل لجرح بميت إيلام؟

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «سئل النبي ﷺ عن الوسوسة. قال: تلك محض الإيمان»[٣].

ومن هذا الحديث نفهم أن دخول الوساوس على القلب دليل الإيمان فإن الشيطان كاللص؛ فما يفعل اللص في البيت الخرب؟ اللص يدخل البيوت المليئة بالذهب والفضة، ونستطيع أيضاً أن نقول: إن حزن القلب بسبب الفتور والوساوس دليلُ إيمانه؛ لأنه لو كان كارهاً للحق لما أحزنه فتوره وضعفه ووسوسته.

وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «تُعرَض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً؛ فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربَادّاً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرِب من هواه»[٤].

فإن الشيطان يلقي بالشبهات والنفس تلقي بالشهوات وقد يختلط الأمران معاً فتشتهي النفس ويشبِّه علينا الشيطان الحِل والحرمة؛ فَحُزْن القلب دليل الرفض ويبقى على القلب عمل لا بد منه؛ وهو أن يتوجه إلى ربه بالضراعة ولا يكتفي بالحزن ولا يقف عنده طويلاً؛ فإن له رباً رحيماً ما منعه شيئاً إلا ليعطيه خيراً منه؛ فاسأله – يا عبد الله – تنلْ رضاه.

ولولا الفتور لتمادينا في العُجْب والرياء حتى نذوق الخذلان بما قدمت أيدينا.

وأعظم خير يأتي به الفتور ذلُّ النفس بين يدي العزيز الرحيم؛ فلا تحرم نفسك هذا الذل بين يديه في جوف الليل تشتكي إلى الله عجزك وتتضرع إليه أن يتغمدك برحماته فوالله لولا الله ربنا ما اهتدينا!

فكل مقاومة بحزن وتضرع لله – تعالى – تنكت في القلب النكتة البيضاء التي ذُكِرَت في الحديث حتى يصير القلب سليماً لا تضره الشبهات ولا الشهوات: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وبعدُ فهذا نوع من الأمل يسطع نوره في ظلمات القلب فيستبصر الطريق ولا تشطح به الوساوس فيظل في دائرة من الفتور، لا يُرى لها بداية ولا نهاية.

نسأل الله العظيم أن يغفر لنا ذنوبنا ويتجاوز عن سيئاتنا ويرحمنا؛ فإن الله هو الرحيم الودود.

---

(١) صحيح الجامع.

(٢) انظر كتاب الفوائد؛ حيث ذكر فيه ابن القيم جملة بديعة قال في آخرها: وابسط كفاً: وتصدق علينا «كناية عن التذلل لله – تعالى – تذلُّل السائل الذي ضاقت به السبل حتى أُغلقَت دونه ولم يجد إلا باباً فولجه ولوج الغريق الذي وجد نجاة بعد ما كاد أن يهلك، وهي جزء من آية في سورة يوسف؛ حيث توسل إخوته إليه بعدما ابيضت عين أبيهم وأُخِذ أخوهم واحتاجوا الميرة حاجة شديدة فمسهم الضر فلم يجدوا غير أن يبسطوا أيديهم إليه وقالوا له: «فأوفِ لنا الكيل وتصدق علينا».

(٣) رواه مسلم.

(٤) صحيح الجامع.

سَدُّ الذرائع في الشريعة الإسلامية

د. عبد الحكيم درقاوي

تقوم قاعدة سد الذرائع على المقاصد والمصالح؛ فهي تقوم على أساس أن الشارع ما شرع أحكامه؛ إلا لتحقيق مقاصدها: من جَلْب المصالح ودَرْءِ المفاسد؛ فإذا أصبحت أحكامه تُستعمَل ذريعة لغير ما شُرعت له ويُتوسَّل بها إلى خلاف مقاصدها الحقيقية، فإن الشرع لا يُقرُّ إفساد أحكامه وتعطيل مقاصده.

وقبل الحديث عن الذريعة يَحسُن بنا الإشارة إلى معناها: لغة واصطلاحاً.

الذريعة لغة واصطلاحاً:

بالرجوع إلى المعاجم اللغوية لتجلية معنى (الذريعة) في اللغة نجد أنها تفيد: (الوَسيلَةُ والسَّبَبُ إلى شيء. يُقال: فلانٌ ذَريعَتي إليكَ؛ أَي: سبَبي ووُصْلَتي الذي أَتَسَبَّبُ به إليكَ)[1].

والمراد بها اصطلاحاً: (حَسْمُ مَادَّةِ وَسَائِلِ الْفَسَادِ دَفْعاً لَهَا؛ فَمَتَى كَانَ الْفِعْلُ السَّالِمُ عَنْ الْمَفْسَدَةِ وَسِيلَةً لِلْمَفْسَدَةِ منعنا من ذلك الفعل)[2]. نقل ابن حزم عن أبي محمد علي بن أحمد – رحمه الله – قوله: (ذهب قوم إلى تحريم أشياء من طريق الاحتياط، وخوف أن يُتذرَّع منها إلى الحرام البحت)[3].

إن عماد تعريف (الذريعة) هو: أنها كل مسألة ظاهرها الإباحة، يتوصل بها إلى فعل محظور. وبيان ذلك: أن الوسيلة إذا أفضت إلى مفسدة كانت فاسدة؛ فوجب قطع الذريعة؛ لما ينجم عنها من مفاسد. والوسائل إذا كانت مؤدِّية إلى مصلحة كانت صالحة؛ فتكون الذريعة عندئذٍ غير ممنوعة. قال القرافي: (الوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل وإلى ما هو متوسط متوسطة)[4].

فبحسب الإمام القرافي؛ فإن الأمور ليست بحسب مآل نية الفاعل، وإنما بحسب نتائجها وغاياتها. وهذا ما أقرَّه أبو زهرة، فقال: (إن أصل سد الذرائع لا يعتبر النية فيه على أنها الأمر الجوهري في الإذن أو المنع، وإنما النظر به إلى النتائج والثمرات)[5].

(١) لسان العرب، وتاج العروس، مادة: (ذرع).
(٢) أنوار البروق: ٣/ ٤٥.
(٣) الإحكام لابن حزم: ٦/ ٧٤٥.
(٤) التنقيح، القرافي: ص٤٤٩.
(٥) مالك، أبو زهرة: ص٣٤٣.

فلما كان المقصد الأساسي للشريعة الإسلامية، هو: إقامة المصالح ودَفْع المفاسد، فكل ما يؤدي إلى ذلك من ذرائع وأسباب يكون له حكم ذلك المقصد الأصلي.

ومَنْ تأمَّل مصادر الشريعة ومواردها، علم أن الشارع الحكيم سدَّ الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرَّمها ونهى عنها، وهذا ما سنلحظه من خلال القسم الأول من أقسام الذرائع.

أقسام الذرائع:

قسم علماء أصول الفقه الذرائع إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: ما أدى إلى مفسدة مقطوع بها: وهذا القسم أجمعت الأمة على سدِّه ومَنْعه وحَسْمه، وقد عبَّر ابن القيم عن هذا القسم بقوله: (لا يجوز الإتيان بفعل يكون وسيلة إلى حرام وإن كان جائزاً)[1].

ومن أمثلة هذا القسم - على سبيل المثال - ما يلي:

١ - قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فقد حرَّم الله - تعالى - سب آلهة المشركين - مع كون السب حَميَّة لله وإهانة لآلهتهم - لكونه ذريعة إلى سب الله، عز وجل؛ فكانت مصلحة ترك مسبته - تعالى - أَوْلى من مصلحة سب آلهتهم، وجاء التصريح على المنع؛ لئلا يكون سبباً في فعل الحرام.

٢ - يقول - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]. (وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله! من المراعاة؛ أي: أَرْعِنا سمعك، وفرِّغ سمعك لكلامنا، وكانت هذه اللفظة شيئاً قبيحاً بلغة اليهود، وقيل: كان معناها عندهم اسمع لا سمعتَ. وقيل: هي من الرعونة)[2]؛ (فنهى - تعالى - المسلمين عن قولها؛ سداً لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي تشبُّهاً بالمسلمين، يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون، ولئلا يخاطَب بلفظ يحتمل معنىً فاسداً)[3].

٣ - وحرَّم الشارع الطِّيبَ على المُحْرِم؛ لكونه من أسباب ودواعي الوطء؛ فتحريمه من باب سد الذرائع.

٤ - وأمر - عليه السلام - أن يفرَّق بين الأولاد في المضاجع؛ فلا ينام الذكر مع الأنثى في فراش واحد؛ لأن ذلك قد يكون باباً من تلبيس إبليس عليهما فيتحد الفراش وهما لا يشعران. قال - عليه السلام -: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[4].

٥ - ونهى المرأة عن السفر بغير مَحْرَم؛ قطعاً لذريعة الطمع فيها والفجور بها.

القسم الثاني: ملغىً إجماعاً: لأن مفسدته نادرة الوقوع؛ لذلك أجمعت الأمة على عدم مَنْعه وأنه ذريعة لا تُسَد ووسيلة لا تُحسَم: كالمنع من زراعة العنب خشية الخمر؛ فإنه لم يقل به أحد، ومنه كذلك المنع من المجاورة في البيوت خشية الزنا.

القسم الثالث: مختلَفٌ فيه بين السد والترك: وذلك كبيوع الآجال، ومثاله: (كمن باع سلعة بعشرة دراهم إلى شهر ثم اشتراها بخمسة قبل الشهر؛ فالإمام مالك يقول: إنه أخرج من يده خمسة الآن وأخذ عشرة آخر الشهر فهذه وسيلة لسلف خمسة بعشرة إلى أجل توسُّلاً بإظهار صورة البيع لذلك.

والشافعي يقول: يُنظَر إلى صورة البيع ويُحمَل الأمر على ظاهره؛ فيجوز ذلك. وهذه البيوع يقال: إنها تصل إلى ألف مسألة اختص بها مالك وخالفه فيها الشافعي...

وكذلك اختُلف في تضمين الصناع؛ لأنهم يؤثِّرون في السلع بصنعتهم؛ فتتغير السلع؛ فلا يعرفها ربُّها إذا بيعت: فيضمنون سداً لذريعة الأخذ أم لا يضمنون؛ لأنهم أُجَراء وأصل الإجارة على الأمانة قولان.

---

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم: ٣/١١٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي: ١/١٣٢.
(٣) إعلام الموقعين: ٣/١١٩.
(٤) صحيح مسلم، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله ابن عمرو.

وكذلك تضمين حَمَلة الطعام؛ لئلا تمتد أيديهم إليه، وهو كثير في المسائل؛ فنحن قلنا بسد هذه الذرائع ولم يقل بها الشافعي)[1].

القسم الرابع: الذرائع والوسائل المشروعة المفضية إلى البدعة: وإليه أشار الإمام الشاطبي في الاعتصام بقوله: (قد يكون أصل العمل مشروعاً؛ لكنه يصير جارياً مجرى البدعة من باب الذرائع)[2]، وضرب أمثلة لذلك، منها:

١ - أن يكون للمكلَّف طريقان في سلوكه للآخرة: أحدهما أسهل والآخر صعب؛ فيأخذ بالطريق الأصعب ويترك الأسهل بناءً على التشديد على النفس: كالذي يجد للطهارة ماءين (ساخناً وبارداً)؛ فيتحرى البارد الشاق استعماله بدليل إسباغ الوضوء على المكاره؛ فهذا لم يعط النفس حقها وخالف دليل رفع الحرج: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

الأمور ليست بحسب مآلات الفاعل، وإنما بحسب نتائجها وغاياتها

٢ - ومن ذلك الاقتصار على البشع في المأكل والخشن في الملبس من غير ضرورة.

٣ - ومنه أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أمر بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ؛ لأن الناس كانوا يذهبون إليها فيصلون تحتها؛ فخاف عليهم الفتنة.

(فهذه الأمور جائزة أو مندوب إليها، ولكن العلماء كرهوا فعلَها خوفاً من البدعة؛ لأن اتخاذها سُنة إنما هو بأن يواظب الناس عليها مظهرين لها، وهذا شأن السُّنة، وإذا جرت مجرى السنن صارت من البدع بلا شك)[3].

القسم الخامس: تجويز الحِيَل[4] يناقض سد الذرائع: فقد كتب ابن القيم فصلاً هاماً، بيَّن فيه الأهمية القصوى لمبدأ سد الذرائع، وانتهى فيه إلى أنَّ سد الذرائع هو أحد أرباع الدين، ثم بنى عليه بحثاً في تحريم الحيلة، معتبراً إياها رافعة للتحريم وساقطة للوجوب[5]. ومن أمثلة الحيل المفضية إلى فتح الذرائع المحرمة:

١ - إبطال حيلة إسقاط الزكاة: وذلك ببيع ما في اليد من النصاب قبل حلول الحول، ثم استرداده بعد ذلك، وهذه حيلة محرَّمة باطلة.

٢ - ومن الحيل الباطلة لإسقاط حد السرقة: أن يحفر الحر السقف ثم يُدخل عبده؛ فيُخرج المتاع من السقف.

فهذه الحيل وأمثالها لا يحل لمسلم أن يفتي بها في دين الله، (ومن أفتى بها، فقد قلب الإسلام ظهراً لبطن، ونقض عرى الإسلام عروة عروة. قَالَ أَحْمَدُ بْنُ زُهَيْرِ بْنِ مَرْوَانَ: كَانَتْ امْرَأَةٌ هَاهُنَا بِمَرْوٍ أَرَادَتْ أَنْ تَخْتَلِعَ مِنْ زَوْجِهَا، فَأَبَى زَوْجُهَا عَلَيْهَا، فَقِيلَ لَهَا: لَوْ ارْتَدَدْتِ عَنِ الْإِسْلَامِ لَبِنْتِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، فَقَالَ: مَنْ وَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ سَمِعَ بِهِ وَرَضِيَ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ حَمَلَهُ مِنْ كُورَةٍ إِلَى كُورَةٍ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَرَضِيَ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ عَنْ شَقِيقِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ: إِنَّ ابْنَ الْمُبَارَكِ قَالَ فِي قِصَّةِ بِنْتِ أَبِي رَوْحٍ؛ حَيْثُ أُمِرَتْ بِالِارْتِدَادِ، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ أَبِي غَسَّانَ، فَذَكَرَ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ وَهُوَ مُغْضَبٌ: أَحْدَثُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَمَنْ كَانَ أَمَرَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ عِنْدَهُ أَوْ فِي بَيْتِهِ لِيَأْمُرَ بِهِ أَوْ هَوِيَهُ وَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: مَا رَأَى الشَّيْطَانُ كَانَ يُحْسِنُ مِثْلَ هَذَا، حَتَّى جَاءَ هَؤُلَاءِ فَأَفَادَهَا مِنْهُمْ فَأَشَاعَهَا حِينَئِذٍ، أَوْ كَانَ يُحْسِنُهَا وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُمْضِيهَا فِيهِمْ حَتَّى جَاءَ هَؤُلَاءِ.

وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِي: قَالَ شَرِيكٌ - يَعْنِي: ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَاضِي الْكُوفَةِ - وَذُكِرَ لَهُ كِتَابُ الْحِيَلِ، فَقَالَ: مَنْ يُخَادِعِ اللَّهَ يَخْدَعْهُ)[6].

(١) أنوار البروق: ٣/ ٤٥.
(٢) الاعتصام، الشاطبي: ص٢٥٣.
(٣) المرجع السابق.

(٤) الحِيَل: جمع حيلة، وهي: الحذق وجودة النظر والمراد بها هنا ما يكون مَخْلَصاً شرعياً فيُسقط واجباً أو يُحِل حراماً، وأُطلق عليه لفظ الحيلة؛ لأن المخْلَص من ذلك لا يدرَك إلا بالحذق وجودة النظر.
(٥) إعلام الموقعين: ٣/ ١٣٥ - ١٥٩.
(٦) المرجع السابق: ٣/ ١٥٢.

مجلة البيان

www.albayan-magazine.com

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

bayan@albayan.co.uk

Badr: 0508948947

الكنز المنسي

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣].

ما أعظم هذه المزايا، وما أعظمه من كنز كتابُ الله العظيم، وصراطُ الله المستقيم، وحبلُ الله المتين، وكلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه تنزيلٌ من حكيم حميد . يقول - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٧ - ٥٨]. وقوله - سبحانه - : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٧ - ٧٩]؛ فأين نحن من هذا الكنز المدرار ونباته الزاهر وثمره الطيب وثمنه الجلي؟

عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجَّة ريحها طيب وطعمها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة؛ لا ريح لها وطعمها حلو. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة؛ ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة؛ ليس لها ريح وطعمها مُرٌّ» متفق عليه، ومن فضائله أيضاً أن من تحصَّله في صدره تحققت له الخيرية وأصبح من أهل الله وخاصته وحلَّت له شفاعة القرآن يوم القيامة.

وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم.

وفي قراءته مضاعفة الأجر والثواب الجزيل؛ والذي لا يقرؤه فهو في خسارة وتبِعة؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب». [ضعفه الألباني] والفضائل في ذكر القرآن الكريم أعظم من أن تحصى في مقال أو مقالين، بل في عدة مجلدات ومؤلفات.

بقلم الطالب

أنس بن عبد الله الشبانات - روضة سدير

إلى أحبائي المسلمين

كفاكم يا أحبائي شقاقَا
كأنكُمُ ترومونَ الفراقَا
تحكَّم فيكُمُ داءٌ عضالٌ
فصار كلامُكم عنكم نفاقًا
فصار البغضُ بعد الحبِّ فيكم
وأحكمتم قلوبكُمُ وَثَاقَا
نسيتم أن ربكُمُ نهاكُم
فقارفتُم مِنَ الفعل احتماقَا
تناءيتم عن الإيثار دوماً
وراءيتم فما صرتم رفاقَا
فما ضجرت وما غارت نفوسٌ
على حبٍّ وعزٍّ قد تراقَى
كأن قلوبكم صارت صخوراً
فما قلب تفكَّر ذا فَتَاقَا
كأن عقولكم صارت جماداً
فما عقل تفكَّر فاستفاقَا
فهبوا مِنْ تجافيكم وكونوا
كأحبابٍ ولا تخشوا خفاقَا
فإنكم كأقمارٍ وأخشى
إذا صرتم بذا الدرب انفلاقَا

عمر بن عبد الله البخاري
criziomar@hotmail.com

نسأل اللّه العافية

في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَمَنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافيه؛ فإذا لقيتوهم فاصبروا».

قال ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري: قوله «لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافيه، فإذا لقيتموهم فاصبروا» قال ابن بطال: حكمةُ النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر. وهو نظير سؤال العافية من الفتن، وقد قال الصدِّيق: «لأن أعافى فأشكر أحب إليَّ من أن أُبتَلى فأصبر»، وقال غيره: إنما نهى عن تمنِّي لقاء العدو؛ لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفوس والوثوق بالقوة وقلة الاهتمام بالعدو، وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم.

إذا كان هذا النهي في أمرٍ الحقُ فيه واضحٌ لمن قاتل العدوَّ فما دون ذلك من أمور ومصائب أَوْلى أن تُسأَل العافيةُ والسلامة منها؛ كأن يقول: لو حصل لي كذا لفعلت كذا، ولو كنت مكان فلان من الناس لفعلت كذا. وإن ظن أو علم في نفسه النصر والقدرة فهو من العُجْب وقد تقع الأمور بخلاف ما ظن الإنسان وقد لا يطيقها، وَلْيسأل الله العافية من كل بلاء، وَلْيستعذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ فإذا ابتلي فَلْيصبر وَلْيحتسب وَلْيلجأ إلى الله، عز وجل.

سعيد عبده

ص. ب: ١٢٨٢

الرمز البريدي: ١١٣٣٣

التقاليد الجاهلية وأثرها عند مثقفي اللغة العربية في نيجيريا

١ - التواضع في المجتمع النيجيري:

لا يزال في نيجيريا بصفة خاصة، وفي أقطار إفريقيا بصفة عامة تقاليد جاهلية، وعاداتٌ غريبة منها: خَلْع النعال والانبطاح والسجود بالأذقان للتحية، والتي لا يستنكف من منعها أي واعظ على مسمع الأمراء أو مرآهم إلا إذا رضي بأن يهتكوا عرضه أو يفتوا بكفره، أو يهدروا دمه، وهم بذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعاً بالأدب والتواضع والإسلام.

والحقيقة: أن هنالك عددٌ من العلماء يطوون قلوبهم على كره هذه العادات واستهجانها؛ ولكنهم لا يملكون من الأمر شيئاً، ولايجدون مفرّاً ولا ملْجأ من فِعْلِها لمن لا يرضى إلا بفعله.

٢ - الجنازة كالوليمة في نيجيريا:

من التقاليد الشائعة في الأوساط الإسلامية في نيجيريا وخصوصاً في بلاد يوربا، إقامةُ حفلات ضخمة لموتاهم؛ ولعل السبب في ذلك احتكاكهم واختلاطهم بالوثنيين والنصارى؛ لأن أهل الأديان الثلاثة كانوا يتداخلون في ما بينهم في أسرة واحدة، ويختلطون في السوق والمعمل والبلد والشارع.

وقد كانت هذه الحفلات بدايةً مقتصرةً على الملوك والأثرياء والعظماء ثم امتدت إلى أفراد الناس في كل أسرة لكسب السمعة والشرف لها، ثم تجاوزوا ذلك إلى حدِّ المباراة والمنافسة والمغالاة؛ حيث ينفق كلُّ ذي سَعَة من سَعَته أو من تركة الميت الراحل. ومن كان ذا عسرة منهم فما عليه إلا أن يستدين ويرهن للدَّيْن كل مايملك من ديار وعقار حتى يستطيع أن يغسل عن نفسه وأسرته عار العجز عن إقامة التشريف النهائي لميِّته الراحل، وعارَ عجزه عن الشكر على أنه خَلَف والديه؛ وإذا استطاع ذلك شَمَخ بأنفه بين أقرانه، واختال في مشيته وطرب ورقص، ثم تغنى بمدحته المغنون، وذبح الذبائح، ووزع الأطعمة والأشربة على المدعوين.

٣ - محاربة الأسماء العربية في نيجيريا:

إن من الغزو الثقافي المنظَّم على الإسلام في هذه البلاد (نيجيريا) محاربة الأسماء العربية التي حمل لواءها المبشرون، ولم يتفطن لها الأكثرون بل تبعهم في ذلك كثير من المسلمين المثقفين في كل مكان، ويلحق بذلك تعجيم الأسماء العربية بالتحريف البعيد عن الاسم على وجه الترخيم أو النحت.

٤ - سمات الوجوه والخدود في نيجيريا:

لقد كانت سمات الوجوه والخدود عادة قديمة في مختلف أنحاء العالم؛ وإن كانت متأصلة عند معظم قبائل نيجيريا إن لم تكن بأسرها؛ فتخطُّ الوجوه والخدود والعضدين والذراعين والجسد بالسكين؛ لتكون علامة تمتاز بها كل قبيلة أو عشيرة، ثم انقلبت هذه العلامة إلى زينة.

ولقد حاربها الإسلام. ولا تزال بعض قبائل نيجيريا تتقيد بهذا التقليد باعتبارها عادة لا تُلغَى، وعُرْفاً لا يستهان به إلى يوم البعث.

٥ - الاحتكار بالإمامة في نيجيريا:

لقد وضع الإسلام شروطاً معيَّنة للإمامة يجب مراعاتها، من أهمها: العلم والورع والتقوى والصلاح، لا الشرف والنسب والأصل؛ كما هو الحال في نيجيريا.

وإنما يجب أن تكون تولية الإمامة بيد العلماء العارفين بأحكام الشرع، لا بيد من لا يعرف شروط الإمامة؛ فيولي من يركن إليه أو ذا قرابة له؛ ولو لم يكن أهلاً.

د. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن

المحاضر بقسم الدراسات العربية والإسلامية كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المستشرقون الجدد

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

قبل عقود كانت كتابات المستشرق الألماني (هوروفيتش) والمستشرق المجري (بيرانت هيللر) وغيرهما من المستشرقين المعتنين بالدراسات القرآنية، وكتابات غولد تسهير وجوزيف شـاخت وغيرهما من المستشـرقين المعتنين بالدراسـات الحديثية، كانـت كتابات هؤلاء جميعاً تحظى باهتمام بعض أهل الأهواء من بني جلدتنا، ثم تراهم يجترون شبهات القوم للتشـكيك في القرآن العظيم والسُّـنة النبوية، وفي تاريخ الأمة وتراثها العلمي. وكان بعضهم يعرض ذلك الغثاء بحجة البحث العلمي، كما فعل محمد أحمد خلف الله في رسـالته عن الفن القصصي في القرآن، وكما فعل أبو ريَّة في تدوين السُّنة النبوية.

وكان بعض المنتسـبين للأحزاب الشـيوعية والتيارات الإلحاديـة يتلقفون تلك الشـبهات، ويثيرونها في وسـائل الإعلام وفي منتدياتهم الثقافية والفكرية لإسـقاط حجية الشريعة ومحاربة دين الإسلام.

وفي تلك المرحلة تصدى علماء الإسـلام لتلك الحملات الاستشـراقية، وكشـفوا زيف وتحريف تلك المشاريع التي تدَّعي الحياد العلمي في البحث، وتزعم اسـتخدام الأدوات المعرفية المعاصرة في النقد والتحليل.

ومع مطلع هـذا العقد بدأت حملة جديـدة لإحياء تلك الشبهات الاستشراقية بأسلوبٍ هجوميٍّ فجٍّ مستفزٍّ أحياناً كما فعل نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون وغيرهما، وبأسـلوب ماكـر مخادع أحياناً كما يفعل الدكتور محمد عابد الجابري، الذي يتدثر أيضاً بالبحث العلمي، ويزعم نقد التراث الإسلامي باستخدام الأدوات المعرفية من التراث نفسه.

وأكثـرُ هؤلاء لا يزيد دورهم عن اجترار تلك الشـبهات وإعادة استنساخها وصياغتها... والمحصِّلة النهائية الناتجة واحـدةٌ؛ فإذا كان محمد خلف اللـه وأركون وعزيز العظمة يزعمـون أن القصص القرآني أسـاطير لا حقيقة لها، فإن الجابـري يزعم أن سـياق القصص في القـرآن الكريم لم يُقصَـد به التدوين التاريخي؛ وإنما هي أمثال مضروبة يراد منهـا العظة والعبرة، ويزعم أنه (كمـا يضرب القرآن المثل برجلين أو بجنتين من غير تحديـد، وكما يُجرِي حواراً بين أهل الجنـة وأصحاب النار والقيامةُ لـم تقم بعد، فكذلك الشـأن في قصص الأنبياء التي يذكرهـا؛ إنها للذكر (أي: للموعظـة والعبرة). وهكذا فكما أننا لا نسـأل عن صحة القصـة التي وراء الأمثال التي تُضـرَب لموقفٍ أو حالٍ؛ لأن المقصود بالمثل ليس أشـخاصه بل مغزاه، فكذلك القصص القـرآني فـي نظرنا. والصدق في هـذا المجال - سـواء تعلق الأمـر بالمثل أو بالقصة - لا يُلتَمـس في مطابقة أو عدم مطابقة شـخصيات القصة والمثل للواقع التاريخي، بل الصدق فيه مرجعه مخيال المستمع ومعهوده)[1].

وإذا كان المستشـرقون يطعنون صراحة في جَمْع القرآن وتحريه، فإن الجابري يثني على الجهد الكبير الذي بُذِل في جمـع القرآن، ولكنه يرى (أنه ليس ثمة أدلةٌ (قاطعة)[2] على حدوث زيادةٍ أو نقصانٍ في القرآن كما هو في المصحف بين أيدي الناس منذ جَمعِـه زمن عثمان. أما قبل ذلك فالقرآن كان مفرَّقاً في صُحُفٍ وفي صدور الصحابة، ومن المؤكد أن ما كان يتوفر عليه هذا الصحابي أو ذلك من القرآن (مكتوباً أو محفوظـاً) كان يختلف عمَّا كان عند غيره، كمّاً وترتيباً). ثم زعم أنه (من الجائـز أن تحدث أخطاء حين جَمْعِه زمن عثمـان أو قبل ذلك)؛ بحجة أن (الذين تولوا مهمة جمعه لم يكونوا معصومين)[3]!

هذه الموجة الجديدة مـن التضليل والتحريف والخداع، دفعت كثيـراً من أهل الأهواء وأدعيـاء الفكر والثقافة إلى التمرد على الثوابـت والتطاول على الحرمات الشـرعية، والنقد المتطرف والمتشـنج لكل ما هـو تراثي. وقد زاد من حدَّة هذه الظاهرة ذلك الفضاء الواسـع الذي فتحته شبكة

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول في التعريف بالقرآن (ص ٢٣٨)، طبع دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

(٢) يعني: أنه قد توجد أدلة محتمَلة على الزيادة والنقصان؛ وهذا أسلوب خطير لإثارة الشكوك وترويج الشبهات.

(٣) مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول في التعريف بالقرآن، (ص٢١٠).

الإنترنت؛ حيث أصبحت بعض المنتديات الحوارية والمواقع الفكرية تقذف بشباكها ليتساقط فيها بعض البسطاء المبهورين ببريق الحرية، وبعض أرباع المثقفين الذين غرهم تعالُم بعض المتفيقهين؛ فتحولت العقلية الانهزامية الهشة بعد الاغترار بتلك الشبهات إلى عقلية متشنجة تدَّعي الشجاعة والجرأة في نقد ثوابت الأمة!

والجدير بالتأمُّل أن الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله تعالى - شهد أن أبا ريَّة كان أفحش وأسوأ أدباً من كل مِنْ تكلَّم في حق أبي هريرة - رضي الله عنه - من المعتزلة والرافضة والمستشرقين قديماً وحديثاً[1]، وصدق - رحمه الله تعالى - في ما ذهب إليه؛ فكثير من هؤلاء المتطاولين بلغوا من سوء الأدب والفجور الفكري ما تجاوزوا فيه أسيادهم المستشرقين، خاصة في بعض مواقع الإنترنت التي يتستر فيها بعضهم بأسماء رمزية.

وإذا كان أبرز المستشرقين (قد جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام) كما وصفهم الكاتب النمساوي المسلم محمد أسد[2]، فإن بعض مقلديهم من المستشرقين الجدد أضافوا إلى غياب تلك الموضوعية جهلاً ذريعاً في تراث الأمة وأصولها العلمية، وحقداً متجذراً على علماء الأمة وتاريخها الحضاري.

إذاً نحن أمام ظاهرة يجب الوقوف عندها؛ فعجلة التغيير الاجتماعي والفكري تتسارع بشكل مذهل في مجتمعاتنا، وخطابُنا العلمي والدعوي يتغير ويزداد نضجاً، ولكن ذلك يجري ببطءٍ واضحٍ يقصر عن متابعة الواقع في بعض الأحيان.

إننا أمام نازلة تتطلب أفقاً جديداً من العلماء والدعاة، ومن المعالم المهمة التي ينبغي مراعاتها:

أولاً: تربية الأمة على تعظيم النصوص الشرعية، والاستسلام التام لها، وعدم التقدم بين يديها برأي أو اعتراض، وأحسب أن كثيراً من الجنوح والاضطراب الفكري الذي يدفع الشباب إلى التبعية والاستلاب سببه الرئيس هجران النصوص والإعراض عنها.

ثانياً: تحصين الفتيان والفتيات بالعلم النافع الذي يبني اليقين، ويزيل غشاوة الشبهات ونزوات الأهواء. ويتطلب ذلك عناية بالخطاب الشرعي الذي يعلي من شأن العلم والمعرفة، ويرتكز على أساس الحجة والبرهان.

ثالثاً: استخدام الأدوات المعرفية والتقنية الحديثة

(١) السُّنة ومكانتها في التشريع، (ص٣٢٠).
(٢) الإسلام على مفترق الطرق، (ص٥٠).

لمخاطبة الشباب باللغة التي يفهمونها ويتفاعلون معها. ويتطلب ذلك قدرة فائقة على تفهُّم مشكلاتهم واستيعاب التحديات التي تواجههم، بشكل يتجاوز الحواجز النفسية والزمنية التي قد تفصل العلماء والدعاة عنهم.

رابعاً: هذه النازلة تتطلب فريقاً من المتخصصين الأكفياء الذين يتقنون الأدوات الفكرية والمنهجية في الحوار، ويتصدون للاحتساب العلمي على أولئك المستشرقين بعلم وعدل.

وقد يكون تقصيرنا في إعداد هذا الفريق من أسباب انتشار ذلك الباطل وكثرة من يتأثر بهم من الشباب.

خامساً: ترسيخ قيم التدين والعبادة والخوف من الله، تعالى: إن الحقيقة التي نلمس بعض مظاهرها أن ضعف التدين وقلة الخوف من الله - عز وجل - تجعل عقل الإنسان بيئة خصبة للقلق الفكري والانحراف عن جادة الصراط المستقيم، وتجعل قلمه ولسانه يخوض في ما لا يُحسِن، ويتطاول بحثاً عن التصدر والأضواء، وصدق المولى - جلَّ وعلا -: ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾. [**الزخرف**: ٣٦ - ٣٧]

مشاريع الإحسان ..
في شهر رمضان

مركز الإحسان الخيري في بريدة
بإشراف جمعية البر الخيرية في بريدة

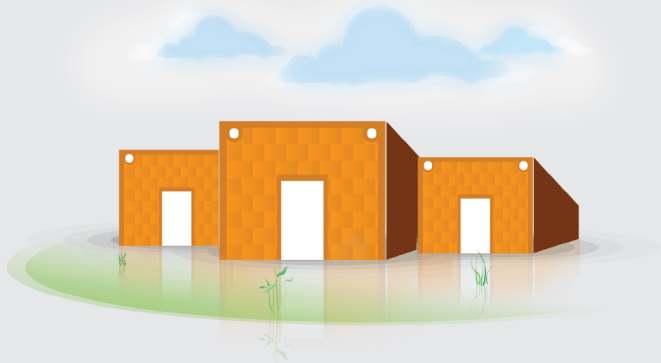

مستودعات المركز

صدقة جارية ..
لك .. ولوالديك

٢١٢٦٠٨٠١٠١٧٧٧١٩

الراعي الرسمي

نادي التعاون
نتعاون لخدمة المجتمع

الرعاة المشاركون

شركة الغيث للاستثمار والتسويق العقاري
الرقم الموحد: 920000513

نكاز للمساعدة والسلام
920000509

مخابز وحلويات جونا JOUNA

قناة المجد الفضائية

الراعي الإعلامي
الجزيرة

الرعاة الإلكترونيون
القصيم نيوز
www.qassimnews.com
صحيفة إخبارية شاملة
مشاريع بريدة
بريدة سكي

تفطير الصائمين
مؤونة رمضان
سقيا التراويح
كسوة العيد
احتياجاتي
تثقيف الأسر

سهم الجود
٣٠٠ ريال
في كل يوم ١٠ ريالات

سهم البذل
١٥٠ ريالاً
في كل يوم ٥ ريالات

سهم العطاء
٣٠ ريالاً
في كل يوم ريال

رمضان .. في كل يومٍ لك صدقة

٢١٢٦٠٨٠١٠١٧٧٧٠١

بريدة - حي الرفيعة
جوال : ٠٥٥٣٢٥٥٧٥٥
www.Ehsan.org.sa